التصوف علم واتباع

والرد على من اتهموا رجاله بالابتداع



بقلم

عبد الإله الزهراوي الحامدي الشاذلي

التصوف علم واتباع

والرد على من اتهموا رجاله بالابتداع

بقلم

عبد الإله الزهراوي
الحامدي الشاذلي

العنوان:

التصوف علم واتباع
والرد على من اتهموا رجاله بالابتداع

بقلم

عبد الإله الزهراوي
الحامدي الشاذلي

إشراف عام:

داليا محمد إبراهيم

الترقيم الدولي: 9- 4535 - 14-977

رقم الإيداع: 8537 / 2012

الطبعة الأولى: يناير 2013



أسسها أحمد محمد إبراهيم سنة 1938

طبع بمطابع دار نهضة مصر للنشر

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمـــة

أخي المسلم:

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته،

لقد سبقني إلى الحديث عن التصوف الإسلامي كثير من أساتذتنا وعلمائنا الأفاضل، وقد أفاضوا علينا من علومهم ومعارفهم ما يجعلنا نسأل الله لهم مزيدًا من الفتح وفيضًا من النعم.

ولن أزيد على ما كتبوا في كتبهم، بل ربما أجد تفسيرًا لما أفاضوا به وتحدثوا عنه. وإن في احترامي وتقديري لمذهب السادة الصوفية ما يجعلني أقدم خلاصة مما قرأت ليقف القارئ عند فضل هؤلاء الأئمة ويكون معنا من جملة المنصفين لهم العارفين بفضلهم المقتدين بآثارهم، نسأل الله لنا ذلك.

جعلنا الله وإياكم من الذين يحبهم ويحبونه، ويختم لنا وإياكم بالسعادة التي ختم بها لأوليائه.

آمين.......آمين.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

بـقلم

عبـد الإلـه محمـود مكادي

الـزهـراوي الـحامـدي الـشاذلـي

شكر وتقدير

أتقدم بالشكر والتقدير- بعد شكر الله – لكل من مدَّ يد العون والمساعدة لي أثناء عملي في هذا الكتاب، وأخص بالشكر والثناء:

السيد المستشار / أحمد محمد كامل باشا بوزارة العدل.

السيد المستشار / محمد محمود عنتر بوزارة العدل.

السيد المستشار / محمد صلاح مصطفى بدور بمحكمة المنصورة الاقتصادية.

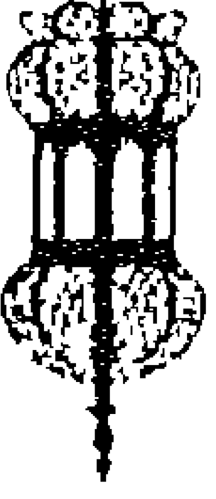
فجزى الله هؤلاء خير الجزاء، ولهم مني خالص الدعاء، بأن يجزل الله لهم العطاء، ويرفع درجاتهم في الأرض والسماء، إنه على ذلك قدير وبالإجابة جدير.

وأستغفر الله مما ندَّ به القلم أو زلَّ، ومما غاب عن الفكر أو ضلَّ، وأسأله تعالى أن يعفو عنا، ويحفظنا من الخطأ والزلل في السر والعلن، وأن يجعل عملي هذا خالصًا لوجههِ الكريم، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

الفقير إلى الله

عبد الإله محمود مكادي

الزهراوي الحامدي الشاذلي



البـاب الأول

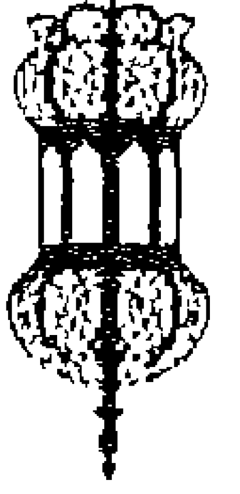
نشـــأة التصـــوف

الحديث عن الصوفية والتصوف حديث تناوله أساتذتنا وعلماؤنا بالبحث تارة وبالمناظرة بين بعضهم تارة أخرى؛ ليكتمل عندهم أو عند بعضهم معنى كلمة صوفي، لكننا إذا أنصفنا فإننا نجد أن هؤلاء القوم لم يطلقوا على أنفسهم هذا الوصف، لكن هذا الوصف صار وصفًا لمن يراه الناس عابدًا زاهدًا تقيًّا ورعًا.

ولا عجب فقد يطلق لفظ عابد إذا رأينا رجلًا غاية في العبادة، أو نطلق على غيره زاهدًا إذا رأيناه معرضًا عن الدنيا زاهدًا فيها ونطلق على الرجل صوامًا إذا كان كثير الصيام، وهكذا تصير الأسماء والمسميات على الأفعال إذا اقترنت بصفاتها.

فلم يكن هؤلاء يدَّعون الجهاد أو يلتمسون من البشر أن يقال لهم مجاهدون أو زاهدون أو عابدون فجهاد النفس عندهم أرقى مراتب الجهاد، فهو ترويض النفس على مخالفتها بما يعود نفعه على النفس ذاتها، إنهم طهروا بواطنهم من الريب والنفاق؛ طهروا بواطنهم من خواطر النفس الذميمة وما يرد بها، فصفت قلوبهم وعلت أرواحهم، فالمنهج علوي سماوي رباني أيقظ في نفوسهم روح المجاهدة وتصفية النفس بالإعراض عن زخارف الدنيا، فربما يقف الباحث عند سيرة هؤلاء القوم، فتارة تراهم زهادًا، وتارة تراهم عبادًا، وليس ذلك تفريقًا بين الزهد والعبادة في حياتهم، فالزهد عندهم زهد في الدنيا وما حوت، والعبادة لله بكل معنى جمعت.

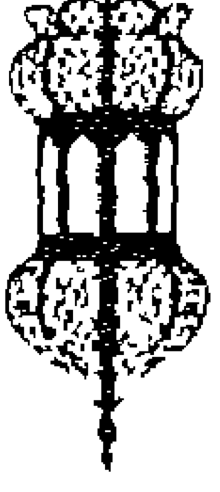
الزهد عندهم عزوف عن زخارف الدنيا وشهواتها من مأكل وملبس ورياسة بجهاد النفس ومخالفتها، وسنقف عند ثمرة هذا الجهاد في حديثنا عن السلوك الصوفي عندما نتحدث عن مراتب الطريق عندهم.



فأنت إذا تعرفت سيرة هؤلاء فسترى أنك أمام قوم طهروا بواطنهم وجملوا ظواهرهم في محبة الله تعالى، سترى جمال مسلكهم إلى الله، وسعة علمهم عن الله، ثم لا يشغلك بعد ذلك ما تطلق عليهم من تسمية إن شئت عبادًا أو شئت زهادًا أو شئت صوفية.

إنهم نهجوا على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ على نور وبصيرة، فانجلت بصائرهم، ونارت سرائرهم، ولن يتأتى ذلك إلا لمن سلك منهجهم وسار على طريقتهم، كانوا مجاهدين متبعين ولم يكونوا مجتهدين مبتدعين، قوم عرفوا الطريق إلى الله فتحملوا المشقة والمكابدة في جهاد النفس والسمو بالروح على منهج أستاذهم ومعلمهم «محمد ﷺ»، فالتصوف سمو بالروح، ونكران للذات، وحفظ للمروءة وتشييد لفضائل الأخلاق، وكلمة صوفي أو صوفية لم تطلق على أحدٍ أيام الصحابة رضوان الله عليهم حتى القرن الأول الهجري، فقد أُطلقت في بدايات القرن الثاني من الهجرة - أي المائتين من الهجرة - وأول من أُطْلِقَ عليه هذا اللقب هو أبو هاشم الكوفي في سنة 150 هـ، كما ذكر ذلك بعض المؤرخين، وأي شرف يناله المرء بعد صحبة النبي ﷺ، فلا أفضلية فوقها كما **يرويه لنا الإمام السهروردي في عوارف المعارف حيث يقول:**

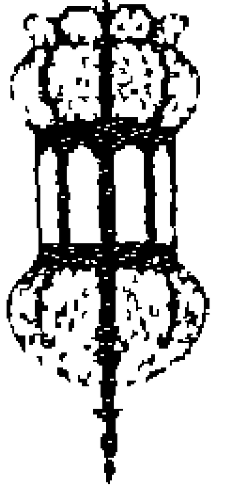
«إن هذا الاسم **(يعني التصوف)** لم يعرف قبل المائتين من الهجرة إلا أنه في زمن رسول الله ﷺ كان أصحاب رسول الله ﷺ يسمون الرجل صحابيًّا لشرف صحبته للنبي ﷺ ؛ إذ لا أفضلية فوقها، ثم بعد عهد رسول الله ﷺ من أخذ منهم العلم سمي تابعيًّا، ثم لما تقادم زمن الرسالة وبَعُدَ عهد النبوة، وانقطع الوحي السماوي واختلفت الآراء وتنوعت وتزعزعت أبنية المتقين، واضطربت عزائم الزاهدين، وتزخرفت الدنيا؛ تفردت طائفة بأعمال صالحة وأحوال سنية وصدق في العزيمة وقوة في الدين، زهدوا في الدنيا واغتنموا العزلة والوحدة واتخذوا لنفوسهم زوايا يجتمعون فيها تارة وينفردون أخرى، أسوة بأهل الصفة، متبتلين إلى رب الأرباب، فأثمر لهم صالح الأعمال وسني الأحوال؛ وتهيأ لهم صفاء الفهم لقبول العلم، فصار لهم بمقتضى ذلك علوم يعرفونها، وإشارات يتعاهدونها، فحرروا لنفوسهم اصطلاحات تشير إلى معان يعرفونها بينهم، وإشارات يتعاهدونها، وتعرب عن أحوال يجدونها. فأخذ ذلك الخلف عن السلف،



فظهر هذا الاسم بينهم، وتسمَّوا به، فالاسم سمتهم، والعلم بالله صفتهم، والعبادة حليهم، والتقوى شعارهم»، حتى إن بعض الباحثين والمفكرين ذهب إلى أن حياة النسك والعبادة واعتزال الخلق والعكوف على التعبد في الصوامع ومغارات الجبال كان في عصور ما قبل الإسلام، وكان رسول الله ﷺ أول من تحنَّث وتعبَّد في غار حراء حتى جاءه وحي السماء ليعلمه ويخبره أنه رسول الله إلى أهل الأرض.

وفي حياته ﷺ كان جماعة من الصحابة عاكفين على العبادة والصلاة والبعد عن الدنيا في مسجد رسول الله ﷺ، وكان يتزعمهم الإمام الجليل أبو هريرة رضي الله عنه، وكانوا يسمونهم أهل الصفة.

ولقد ذكر الشيخ العلامة «أحمد الصاوي» في شرحه على تفسير الجلالين في معنى قوله تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [الأنعام: 52]، حاصل نزولها كما قال «الخازن» أنه جاء «الأقرع بن حابس التيمي وعتبة بن حصين الفزاري وعباس بن مرداس» وهم من المؤلفة قلوبهم، فوجدوا النبي ﷺ جالسًا مع ناس من ضعفاء المؤمنين كعمار بن ياسر وصهيب الرومي وبلال بن رباح، فلما رأوهم حوله حقروهم وقالوا: يا رسول الله، لو جلست في صدر المسجد وبعَّدت عنا هؤلاء ورائحة جبابهم **(وكانت عليهم جبب من صوف لها رائحة كريهة لمداومة لبسها لعدم وجود غيرها)**، لجالسناك وأخذنا عنك فقال النبي ﷺ **«ما أنا بطارد المؤمنين»** قالوا: فإنا نحب أن نجعل لنا منك مجلسًا تعرف به العرب فضلنا، فإن وفود العرب تأتيك فنستحي أن ترانا مع هؤلاء الأعبد، فنحن إذا جئناك فأقمهم عنا، فإذا نحن فرغنا فاقعد معهم إن شئت. قال: «نعم» قالوا: فاكتب لنا عليك بذلك كتابًا. فأتى بالصحيفة، ودعا عليًا ليكتب، فنزل جبريل بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [الأنعام: 52]. فألقى رسول الله ﷺ الصحيفة ثم دعانا وهو يقول: **«سلام عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة»**.



فكنا نقعد معه وإذا أراد أن يقوم قام وتركنا فأنزل الله تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ [الكهف: 28] فكان يقعد معنا بعد ذلك وندنو منه حتى كادت ركبنا تمس ركبتيه، فإذا بلغ الساعة التي يريد أن يقوم فيها، قمنا وتركناه حتى يقوم. وقال أيضًا في سبب نزول قوله تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ قيل إنها نزلت في أصحاب الصُّفَّة، وكانوا سبعمائة رجل فقراء في مسجد رسول الله ﷺ لا يخرجون إلى تجارة ولا زرع، يصلون صلاة وينتظرون أخرى، فلما نزلت قال رسول الله ﷺ: «**الحمد لله الذي جعل في أمتي من أمرت أن أصبر نفسي معهم**».

وروى الطبراني بسنده عن عبد الرحمن بن سهل بن حنيف قال نزلت على رسول الله ﷺ ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ [الكهف: 28] وهو في بعض أبياته، فخرج يلتمسهم، فوجد قومًا يذكرون الله تعالى، منهم ثائر الرأس، وحاف الجلد، وذو الثوب الواحد، فلما رآهم جلس معهم وقال: «**الحمد لله الذي جعل في أمتي من أمرني أن أصبر نفسي معهم**» وعبد الرحمن هذا ذكره أبو داود في الصحابة، أما أبوه عثمان بن حنيف فمن سادات الصحابة.

ولا تعارض فيما جاء بالروايات السابقة، فكلها تتضمن معنى واحدًا هو أمر للنبي ﷺ من الله أن يصبر نفسه مع هؤلاء العباد الذاكرين.

ومما سبق نريد أن نقف عند قوله تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ [الكهف: 28]، ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ [الأنعام 52] فالله تعالى لم يقل يريدون جنته أو يخافون عذابه، فالقائل هو الله، العالم بسرائرهم أنهم لا يريدون نعيمًا وجنانًا، لكنهم يريدون وجه الله، تلك سمة السالكين إلى الله وصفهم بها في الآيتين واحدة في (سورة الأنعام52): ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾، والثانية

في سورة [الكهف: 28]: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾.

تقول رابعة العدوية - رضي الله عنها - في مناجاتها لله:

ليس قصدي من الجنان نعيماً   غير أنـي أريدها لأراكا

ففي الآيتين ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾. [الكهف: 28]و[الأنعام: 52] وهذا حالهم، ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ هذا مطلبهم. لقد أمر الله رسوله بقوله: ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الكهف: 28] يا لها من عظمة الرعاية والملاحظة، إنها دعوة خاصة من الله لنبيه لهؤلاء النفر من المؤمنين.

قوم يطلب الله منهم ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرْنَا وَٱسْمَعُواْ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [البقرة: 104]، وقوم يطلب الله لهم ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[الأنعام: 52].

فهذه الحياة النقية الصافية في التقرب إلى الله أوجدت ثمرتها فيما تلاها من قرون، فقد ظهر في القرن الأول الهجري كثير من العباد والأتقياء الزهاد، مما يدل على أن هذا النهج لم يكن وليد الحقبة التالية من الزمن، نعني القرن الثاني من الهجرة كما أشار إليه بعض أساتذتنا من الكتاب والمفكرين، فقد ظهر في القرن الأول الهجري كثير من هؤلاء العابدين العارفين، نذكر منهم:

يزيد بن الأسود الجرشي ت 71 هـ:

كان عابدًا زاهدًا، سكن الشام بقرية زيدين، وله روايات عن الصحابة، وكان أهل الشام يستسقون به إذا قحطوا، وقد استسقى به معاوية رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، واستسقى به الضحاك ابن قيس. وكان إذا خرج من قريته يريد الصلاة في المسجد في الليلة المظلمة يضيء له إبهام قدمه، وقيل أصابع رجليه كلها حتى يدخل المسجد، فإذا أراد الرجوع إلى القرية أضاءت له حتى يدخل القرية رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

الأسود بن يزيد النخعي ت 75 هـ:

وهو من كبار التابعين ومن أعيان أصحاب ابن مسعود ومن كبار أهل الكوفة، كان يصوم الدهر وقد ذهبت عيناه من كثرة الصوم، وحج البيت ثمانين حجة وعمرة، فلما حضرته الوفاة بكى، فقيل له: ما هذا الجزع؟ فقال: ما لي لا أجزع ومن أحق بذلك مني، والله لو أُنبئت بمغفرة من الله لأهابن الحياء منه مما قد صنعت. إن الرجل ليكون بينه وبين الرجل الذنب الصغير فيعفو عنه فلا يزال مستحيًا منه.

العلاء بن زياد البصري ت 78 هـ:

كان من العباد الصالحين من أهل البصرة، وكان كثير الخوف والورع، وكان كثير البكاء بعد رؤيا رآها له رجل من أهل البصرة أنه من أهل الجنة فصار يبكي لا يأكل ولا يشرب حتى أشفق عليه أخوه وذهب إلى الحسن البصري، وجاء به إليه فقال له الحسن: يابن زياد، وما الجنة وقد أعد الله لعباده المؤمنين ما هو أفضل من الجنة!! وما زال به حتى أكل وشرب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

وغير هؤلاء مثل «إبراهيم التيمي ت 92 هـ، وعروة بن الزبير ت 94 هـ، وإبراهيم ابن يزيد النخعي ت 95 هـ» إلا أنه لم تُطلق هذه التسمية (صوفية) على هؤلاء القوم إلا في القرن «المائتين» من الهجرة عندما وافق نهجهم نهج من جاء بعدهم، حيث ظهر قوم سلكوا مسلكًا خاصًا في كثرة الصلاة والصوم ومجاهدة النفس عن ملذات الدنيا، ولنذكر قليلاً من كثير، فمنهم:

أبو بكر بن عبد الله المزني ت 108هـ:

وكان عابدًا زاهدًا متواضعًا قليل الكلام، له روايات كثيرة عن خَلْق من الصحابة والتابعين، وكان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول:

«إذا رأيتم الرجل موكلًا بعيوب الناس ناسيًا لعيوبه فاعلموا أنه قد مُكر به، ويقول: ما سبقهم أبو بكر بكثرة صلاة ولا صيام ولكن بشيء وقر في صدره. ووقف بعرفات فقال: والله لولا أنني فيهم لرجوت أن يغفر لهم أجمعين».

وهب بن منبه اليمني ت 114 هـ:

تابعي جليل له معرفة بكتب الأوائل، قال عنه ابن كثير في البداية والنهاية: إنه يشبه كعب الأحبار، وروى عن معاذ بن جبل وأبي هريرة وطاووس، وأسند عن ابن عباس وجابر والنعمان بن بشير.

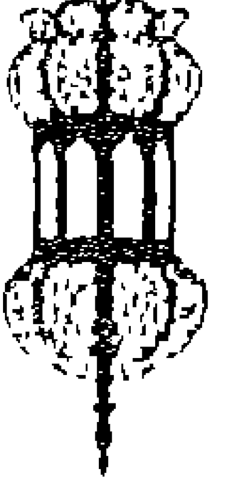
عبد الله بن المبارك ت 181 هـ:

عاصر كثيرًا من أئمة التابعين، وحدَّث عن خلائق من الناس، وكان موصوفًا بالحفظ والفقه والزهد، وكان يربو - أي يزيد - كسبه في كل سنة على مائة ألف ينفقها كلها في أهل العبادة والزهد والعلم، يقول عنه سفيان بن عيينة: «نظرت في أمره وأمر الصحابة فما رأيتهم يفضلون عليه إلا في صحبتهم للنبي ﷺ».

الفضيل بن عياض ت 187 هـ:

وهو أحد أئمة العباد والزهاد وأحد العلماء والأولياء، وُلد بخراسان وقدم الكوفة وهو كبير، فسمع بها الأعمش والمنصور بن المعتمد وعطاء بن السائب وحصين بن عبد الرحمن وغيرهم ، وكان سيدًا ثقة من أئمة الرواة، وكان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: «العمل لأجل الناس شرك، وترك العمل لأجل الناس رياء، والإخلاص أن يعفيك الله منهما».

ومن النساء كانت «شعوانة العابدة الزاهدة ت 175 هـ»، و«عفيرة العابدة ت 180 هـ»، و«رابعة العدوية ت 185 هـ» وغير هؤلاء من الرجال والنساء الكثير



والكثير، وحياة هؤلاء في القرن الأول والثاني كما ذكرنا تدحض وتكذب هؤلاء الذين ينسبون التصوف تارة إلى الفارسية، وتارة إلى المسيحية، وتارة أخرى إلى المذاهب اليونانية. فلم تكن ظهرت في الحقبة الأولى أو القرن الأول مثلًا أفلاطونية أفلاطون أو غيره، ولم يكن لصوفي أن يستمد نسكه وتعبده من منهج غير الدين الذي يعتقده ويعلم منه وحدانية خالقه وعظمة مولاه.

فظهور هذه الطائفة في القرن الثاني من الهجرة لم يكن طفرة تميز بها ذلك القرن عن نظيره من القرون السابقة أو اللاحقة، بل كان مسلك الجهاد إلى الله والانقطاع إلى عبادة الله كما ذكرنا موجودًا على عهد رسول الله ﷺ وإطلاق وصف الزهد والعبادة على هذه الطائفة في ذلك الوقت وصف شرف تتميز به هذه الطائفة على غيرها من الطوائف الأخرى في بداية ظهورها كالمعتزلة والقدرية والمرجئة وغيرها.

ولا يُطلق الوصف على موصوف إلا بشهود الوصف عليه، فالزاهد وصفٌ لمن شوهدت عليه أمارات الزهد، والعابد وصفٌ لمن لوحظت عليه علامات التقوى. ولم تكن هذه الجماعة أو تلك الطائفة مجتمعة في وقت أو مكان فأطلقوا عليها ما وصفوه، ولكن كل وقت يمضي فيظهر فيه واحد أو اثنان أو ثلاثة يسلكون هذا المسلك ينسبونه إلى مسلكهم، ويصير من جماعتهم؛ لأنه ظهرت عليه صفة غالبة تميزت بها هذه الطائفة في مسلكها.

وعلى ما ذكرنا ظهور أمثالهم في القرن الأول الهجري والثاني الهجري، ظهر أيضًا في القرون التالية وحتى يومنا هذا.

ففي القرن الثالث الهجري:

ذو النون المصري وبشر بن الحارث الحافي والسَّرِي السَّقَطي والجنيد وأبو اليزيد البسطامي وأبو الحسين النوري وغيرهم.

وفي القرن الرابع الهجري:

يوسف بن الحسين الرازي وأحمد بن يحيى والحسين بن منصور الحلاج وأبو العباس بن عطاء وأبو علي الروزبادي وأبو بكر الشبلي وغيرهم.

وفي القرن الخامس الهجري:

الحسين بن أحمد وأبو علي الدقاق النيسابوري وأبو الحسن الواعظ وأبو الحسن الزوزني ومحمد أخي حماد وغيرهم.

وفي القرن السادس الهجري:

الشيخ عبد القادر الجيلي ت 561 هـ والشيخ أحمد بن الحسين الرفاعي ت 570 هـ وأبو حامد الغزالي وحماد بن مسلم وأحمد بن جعفر وغيرهم.

وفي القرن السابع الهجري:

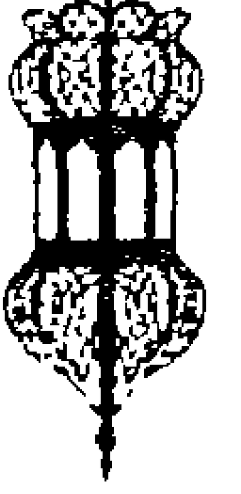
السيد أحمد البدوي ت 638 هـ والحسيب النسيب إبراهيم الدسوقي ت 676هـ وأبو الحسن الشاذلي ت 656 هـ وعبد الرازق بن عبد القادر الجيلاني، وعبد الله اليونيني، وشهاب الدين السهروردي وعبد الله الأرمني وسالم البرقي وأبو الرجال المنيني وأبو العباس المرسي ت 686 هـ.

وفي القرن الثامن الهجري:

شهاب الدين الرومي وياقوت الحبشي ت 707 هـ وإبراهيم الجعبري وغيرهم.

وهكذا إلى عصرنا هذا تكون علامات الموصوف سببًا لإطلاق الوصف، لكن المنكرين والمعترضين على هذه الطائفة لم يبحثوا في جمال المسلك وأجهدوا أنفسهم في بحثهم عن الوصف، واستخدموا الألفاظ انتصارًا لفكرهم وتشبثًا بمذهبهم، وراحوا يقولون: هل الصوفي نسبة إلى لبس الصوف أم إلى وقوفهم في الصف الأول من الصلاة أم نسبة لتشبههم بأهل الصفة أم نسبة إلى الصفاء ؟ فتراهم يقولون:

فلو كان نسبة إلى لبس الصوف لكان الأولى أن يُسمى «صووفي» بواو زائدة عن الأولى، ولو كان لوقوفهم في الصف الأول في الصلاة لكان الأولى أن يُقال « صَفِّي» بفتح الصاد، ولو كان نسبة لتشبههم بأهل الصفة لكان الأولى أن يُقال صِفِّي بكسر الصاد، ولو كان نسبة إلى الصفاء لكان الأولى أن يُقال «صفائي».

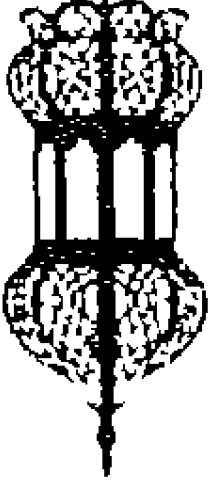


وقد نسبوا هذا القول للشيخ ابن تيمية رحمة الله عليه، لكن علماء الصوفية العاملين منهم أفاضوا في تعريفهم للتصوف، والصوفية وكان من أبلغ ما قيل في الرد على هذه الألفاظ الكلامية ما قاله الشيخ أبو العباس المرسي: إن الصوفي من صافاه الله فصُوفيَ. فلا حاجه أن نقول صِفي أو صَفي أو صفائي أو صووفي، فإذا كان الشيخ ابن تيمية رحمة الله عليه عارفًا بأصول المنطق عالمًا بقواعد الاستدلال فهو كثيرًا ما يترك نقاطًا رئيسية يتحدث فيها وينساق بالقارئ إلى ما يجعله أمام أفكار لغوية مثل ما أشار إليه في استنباطه غير الصحيح في معنى كلمة صوفي، وربما جنح بالقارئ إلى بحث منطقي لا علاقة له بما أراد الحديث عنه. وسنفرد مقالاته في الهجوم على سادة القوم من الصوفية، وكثيرًا ما تراه مضطرًّا إلى الهجوم بالسب، والاتهام بالزيغ والكفر فكثيرًا ما يقول: «وهذا مع أنه من أعظم الكفر والكذب الباطل في العقل والدين» وأحيانًا يجذب انتباه القارئ حين يقول: «والذي عليه أهل السنة والجماعة»، فالقارئ حينئذ في مقام خوف ألاَّ يكون مع رأيه حيث قال، وهذا عنصرٌ كلاميٌّ دعويٌّ، فهو رحمة الله عليه يعتمد في حديثه على عناصر كلامية بعضها دينية وأخرى منطقية فلسفية، لكننا لا ننكر أن الشيخ كان غيورًا على الإسلام في عصر كان أحوج إلى مثله، ولكن يأبى إعزازه أن يكون صوفيًّا، فأين الشيخ الذي يلجأ إليه ويتتلمذ على يديه وهو يرى أنه في هذا الوقت هو شيخ عصره وعالم وقته إلا أن كثيرًا من علماء عصره الذين كانوا على درجة علمه أو يزيدون، أخذوا العلم على يد صوفية زمانهم، كالعز بن عبد السلام وابن دقيق العيد والغزالي رحمة الله عليهم أجمعين.

وإننا عندما نستعرض هذا الرأي الذي نُسب إلى ابن تيمية رحمه الله فلا يفوتنا أيضًا ما قاله الشيخ مهاجمًا به هذه الطائفة أو بعض ما قاله، ثم نعرض ما قاله رحمه الله مُزكيًا لمنهجهم مفسرًا لبعض من فيوضاتهم.

فأنت إذا أردت الشيخ مهاجمًا، فستجد ذلك في كثير من مقالاته، وإذا أردت الشيخ منصفًا فستجد ذلك في كثير من كتاباته -رحمة الله عليه.

فهل كان الشيخ ابن تيمية خصمًا لهم أو خصمًا لبعضهم أو كان الشيخ المفترى عليه من أتباعه والمتعصبين لمذهبه؟ وقبل أن نتحدث عما نُسب إلى العلامة الجليل ابن تيمية، تعالوا بنا نعرف معنى كلمة «تصوف» لنعرف من هو الصوفي. وكيف أن التصوف علم تفرع من عين الشريعة.



البـاب الثاني

تعريف التصوف الإسلامي

يقول الإمام الشعراني رَضِيَ اللهُ عَنْهُ في الطبقات الكبرى: «إن علم التصوف عبارة عن علم انقدح في قلوب الأولياء حين استنارت بالعمل بالكتاب والسنة، فكل من عمل بهما انقدح له من ذلك علوم وأدب وأسرار وحقائق تعجز الألسن عنها نظير ما انقدح لعلماء الشريعة من الأحكام حين عملوا بما علموه من أحكامها، فالتصوف إنما هو زبدة عمل العبد بأحكام الشريعة إذا خلا من عمله العلل وحظوظ النفس.

وكما أن علم المعاني والبيان زبدة علم النحو، فمن جعل علم التصوف علمًا مستقلًّا صدق، ومن جعله عين أحكام الشريعة صدق، كما أن من جعل علم المعاني والبيان علمًا مستقلًّا فقد صدق، ومن جعله من جملة علم النحو فقد صدق. لكنه لا يشرف على ذوق أن علم التصوف تفرع من عين الشريعة إلا من تبحر في علم الشريعة حتى بلغ الغاية».

وهو بذلك يرى رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أن علم التصوف من عين الشريعة وكيف تخرج علومهم عن الشريعة، والشريعة هي وصلتهم إلى الله في كل لحظة؛ ولهذا قال الإمام الجنيد رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «علمنا هذا مشيد بالكتاب والسنة».

وقد أجمع أقطاب الصوفية على أنه لا يصلح للتصدر في طريق الله عز وجل، إلا من تبحر في علم الشريعة وعلم منطوقها ومفهومها، وعامها وخاصها، وناسخها ومنسوخها، وتبحر في لغة العرب حتى عرف مجازاتها واستعاراتها؛ ولذلك قالوا: كل صوفي فقيه، وليس كل فقيه صوفيًّا.

وقد حكى الشيخ محيي الدين بن عربي في كتابه «الفتوحات المكية» أن طريق الوصول إلى علم القوم الإيمان والتقوى.

قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾. [الأعراف: 96] أي أطلعناهم على العلوم المتعلقة بالعلويات والسفليات وأسرار الجبروت وأنوار الملك والملكوت.

وقال تعالى: ﴿وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ ۚ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ [الطلاق : 3]، والرزق نوعان: روحاني وجسماني.

وقال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾ [البقرة 282] أي يعلمكم ما لم تكونوا تعلمونه بالوسائط من العلوم الإلهية، ولذلك أضاف التعلم إلى اسم الله الذي هو دليل على الذات وجامع للأسماء والصفات.

ولعل من يطالع سيرة هذا الفقيه الصوفي سيجد أن هذا الرجل قد وقف على معان في الآيات التي ذكرناها، لم يسبقه فيها غيره، وسنورد في مقالاته وأفكاره الصوفية ما يثبت للقارئ أن الرجل كان ولا ريب عارفًا عالمًا، لكنه كان رضي الله عنه من الذين نالتهم قذائف ألسن الجاهلين بأحوالهم.

ويحضرني قول شيخي القطب الشاذلي رضي الله عنه حيث يقول: «ولقد ابتلى الله هذه الطائفة الشريفة بالخلق خصوصًا أهل الجدال، فقلَّ أن تجد منهم أحدًا شرح الله صدره للتصديق بولي معين، بل يقول لك نعم نعلم أن لله أولياء وأصفياء ولكن أين هم؟ فلا تذكر أحدًا إلا أخذ يدفعه ويرد خصوصية الله تعالى له، ويطلق اللسان بالاحتجاج على كونه غير ولي لله تعالى، وغاب عنه أن الولي لا تعرف صفاته إلا من الأولياء، فمن أين لغير الولي نفي الولاية عن إنسان!!». فأهل الله تعالى يعلمون أنهم مبتلون بأهل الجدال من الخلق، ولم يسلم عصر من العصور إلا وظهر فيه منكرون مجادلون، ومصدقون مقرون.

ولذا يقول الفُضَيل بن عياض رضي الله عنه:

«إياك ومجالسة القراء فإنهم إن حبوك وصفوك بما ليس فيك وغطوا عليك عيوبك، وإن أبغضوك جرحوك بما ليس فيك وقبله الناس منهم».

وما ذكره الإمام ابن عربي في تفسيره أو تأويله أو خواطره للآيات السابق ذكرها لا يتوهم أن ذلك إحالة للظاهر عن ظاهره، ولكن لظاهر الآية مفهومًا بحسب الناس وتفاوتهم في الفهم، فليس في كلامهم إحالة لكلام الله وكلام رسوله، وإنما يكون إحالة لو قالوا لا معنى للآية أو الحديث غير ما ذكرناه أو قلناه، وهم لم يقولوا بذلك بل يقرون الظواهر على ظواهرها مرادًا بها موضوعاتها، ويفهمون عن الله تعالى في نفوسهم ما يفهمهم بفضله وبفتحه على قلوبهم برحمته ومنته، فهم لا يأتون بشرع غير شرع رسول الله ﷺ، ولكنهم يأتون بفهم جديد عن طريق الفتح والإلهام يستغربه من لا إيمان له بأهل الطريق. حينما يسمع أن أحدهم يقول حقيقة التقوى هي ترك التقوى، أو يقول حقيقة التوبة هي التوبة من التوبة، فظاهر هذا الكلام خطأ كبير؛ لأن التوبة من التوبة هي إصرار على المعصية، ولكنه إذا فسر في الأولى أن حقيقة التقوى هي ترك الاعتماد على التقوى دون فضل الله عز وجل، وفي الثانية إذا فسر الفقير مراده على مصطلحه، قال مرادي عن تزكية النفس وعدم الاعتماد والركون إلى التوبة دون رحمة الله عز وجل.

ومن مثل هذه المصطلحات حَكَمَ عليهم بعض المنكرين بالكفر والزندقة والشعوذة ومخالفـة الشرع، لكننـا لم نسمع أو بلغنا عن أحدهم أنه نهى أحدًا عن صلاة أو زكاة أو حج أو صوم ولا تعرض أحد منهم لمعارضة شيء من الشرائع، وكيف يترك الولي ما هو سبب لوصوله إلى حضرة ربه.

وبعد هذه المقدمة التي قصدنا بها أن نقف بالقارئ الفاضل على معان يستنشق عبير ما سيأتي بعدها نريد أن نعرف ما معنى كلمة صوفي أو تصوف، وإن كنت أرى أن هناك فرقًا بين الصوفي والمتصوف، فالصوفي هو من سلك الطريق إلى الله على نور وبصيرة؛ سلك على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ فالتزم ما أمر الله به، وما نهى عنه

واتبع سنة رسول الله ﷺ في أقواله وأفعاله وأطاع أستاذه ومرشده، فصفت سريرته ونارت بصيرته، فهو ينطق بالله عن الله لله. أما المتصوفة فهم أولئك الذين يتشبهون بالصوفية وهم لا يألون جهدًا أن يكونوا مثلهم، فمنهم من يتشبه بهم على فهم وعلم وقد يفلحون، ومنهم من يتشبه بهم على جهلهم وأحوالهم فهذا لا يدري أنه في حاجة إلى من يدري.

وفي كلتا الحالتين يقول الشاعر:

وتشبهوا إن لم تكونوا مثلهم إن التشبه بالرجـــال فلاح

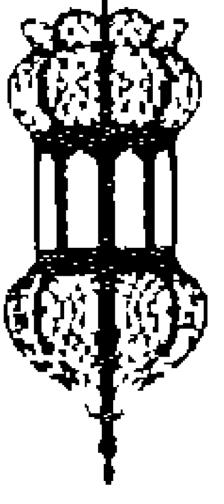
والحقيقة أن العارفين بالله ذكروا في معنى التصوف ما يزيد على الألف تعريف، لكننا سنذكر قليلاً من كثير في هذا المعنى؛ ذلك لأن كلاًّ منهم يصف على حاله المعنى فيما يريده.

قال الجنيد رضي الله عنه: «**التصوف أن يميتك الحق عنك ويحييك به**». والمعنى عندما يفهمه ذو بصيرة فيدرك ببصيرته معنى يميتك الحق عنك، يميتك عن أهواء نفسك يميت نفسك عن شهواتها وملذاتها ويحييك بذكره والتفكر في آلائه ونعمائه، ثم اذهب إلى أبعد من ذلك في معان ترتقي فيها الروح وترقى فيها النفس.

ويقول الشبلي رضي الله عنه: «**التصوف ضبط حواسك ومراعاة أنفاسك**». أي يقصد بذلك مراقبة النفس في كل تصرفاتها.

ويقول أيضًا: «التصوف لا حال يقل ولا سماء يظل». ومعناه أن الصوفي لا يثبت على حال واحدة لأنه في ترقٍّ باستمرار، فإذا ثبت على حال أصبح كماء راكد لا يجري فهو دائم في تصفية نفسه ويعينه على ذلك افتقاره إلى الله.

ولذلك قال رضي الله عنه: «ليس للمريد فترة ولا للعارف علاقة ولا للمحب شكوى ولا للصادق دعوى ولا للمخالف قرار ولا للخلق من الله فرار».



وكان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول مفسرًا معنى آخر للتصوف: «**ما أحوج الناس إلى سكرة. قيل له: أي سكرة؟ قال: سكرة تغنيهم عن ملاحظة أنفسهم وأفعالهم وأحوالهم والدنيا وما فيها**».

إنه يجب على المريد أن يرى أن الفضل لله وحده، فليس لأحد فضل فيما يفعله أو يعمله، ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴾ [النحل: 53] ، الله سبحانه هو الذي وفقك لعبادته وأوجد فيك القدرة على العبادة وهو الخالق لكل عضو تتعبد به وتتقرب به إليه.

وقال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**الصوفي من صفا من الكدر وامتلأ من الفكر وانقطع إلى الله من البشر واستوى عنده الذهب والمدر**».

وسُئل أبو اليزيد البسطامي عن التصوف فقال: هو طرح النفس في العبودية، وتعليق القلب بالربوبية، واستعمال كل خُلُقٍ سني، والنظر إلى الله بالكلية.

ويقول الجنيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أيضًا: «**التصوف هو صفاء المعاملة مع الله تعالى، وأصله الصرف عن الدنيا، كما قال حارثة: صرفت نفسي عن الدنيا فأسهرت ليلي وأظمأت نهاري**».

وقال أيضًا: «**التصوف أن تكون مع الله تعالى بلا علاقة**». والمعنى: ألا تكون لك علاقة بالدنيا وشهواتها وملذاتها، أي لا يعلق في قلبك من عللها وحظوظها شيء.

ويقول سمنون الخواص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عندما سئل أيضًا عن التصوف: «**ألا تملك شيئًا ولا يملكك شيء. والمعنى لا يملكك هواك، ولا تملك من الدنيا شيئًا يتعلق به قلبك، فلذلك قالوا: اجعل الدنيا في يدك ولا تجعلها في قلبك**».

وعندما سئل ذو النون المصري: من هو الصوفي؟ قال: «**الصوفي إذا نطق أبان نطقه عن الحقائق؛ وإن سكت نطقت عنه الجوارح بقطع العلائق**». «والعلائق هنا هي كل ما يتعلق به القلب يشغله عن الله.

وقال أبو محمد الجريري: سمعت الجنيد يقول: «**ما أخذنا التصوف عن القيل والقال لكن عن الجوع وترك الدنيا وقطع المألوفات والمستحسنات**».

والمعنى أن يقصد مخالفة النفس وترك هواها فيما يستلذ به.

وقال: أيضًا: «**الطرق كلها مسدودة على الخلق إلا على من اقتفى أثر رسول الله ﷺ**».

وقال أيضًا: «**من لم يحفظ القرآن ويكتب الحديث لا يُقتدى به في هذا الأمر؛ لأن علمنا هذا مشيد بالكتاب والسنة**».

وأبو عمرو بن إسماعيل رضي الله عنه وهو صوفي صحب أبا عثمان ولقي الجنيد وتوفي بمكة، يقول عندما سئل عن التصوف: الصبر تحت الأمر أو النهي.

وقال النصرأبادي: « **أصل التصوف ملازمة الكتاب والسنة وترك الأهواء والبدع وتعظيم حرمات المشايخ ورؤية أعذار الخلق والمداومة على الأوراد وترك ارتكاب الرخص والتأويلات** ».

تعرفنا بعضًا من أقوالهم ويكفي قول الشاعر:

عبارتهم شتى وحسنك واحـــد ... وكلٌّ إلى ذاك الجمال يشـــير

لكن شيخنا أبا العباس المرسي رضي الله عنه له رأي آخر في تعريف التصوف حيث يقول: «الصوفي من صافاه الله فصُوفيَ».

وإليه ينسب هذان البيتان حيث يقول:

تَخَالَفَ الناسُ في الصوفي واختلفـــوا ... وقالـوا عنه قولًا غير معـــروف

ولستُ أمنحُ هـذا الاسم غير فتـــى ... صافَى فصُوفيَ حتى سُمِّيَ الصوفـي

لكن أدعياء التصوف البلهاء والسذج والذين ليس لهم معرفة بالطريق إلى الله هم الذين أعانوا من هاجم الصوفية والتصوف إلى أن أخرجهم هجومهم على الصوفية إلى هجومهم على الأتقياء والصالحين وآل البيت الكرام، سواء باستخدامهم الأدب في الهجوم أو خروجهم عن الأدب الذي حدا بهم إلى الفتوى بعدم زيارة قبر الرسول ﷺ بقصد التوسل والاستغاثة به عليه الصلاة والسلام.

وإننا قصدنا أن يفهم القارئ أن التصوف ليس لبس لبس الزي والخرق، وليس هو طول المسبحة أو اللحية، وليس هو التردد على مقامات الصالحين رضوان الله عليهم أجمعين، أو إقامة الموالد أو الأضرحة إلى غير ذلك.

ولكن الذي أوردناه في أقوال المتصوفة أنفسهم يعني أن التصوف الحق هو السلوك إلى الله والإقبال عليه بالكلية واتباع الشارع في الأمر والنهي وتطهير النفس من أمراضها والارتقاء بالروح إلى العوالم العلوية.

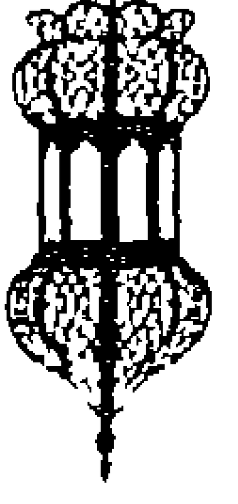
وليس أبلغ من قول الجنيد رَضِيَ اللهُ عَنْهُ حيث يقول: الطرق كلها مسدودة على الخلق إلا من اقتفى أثر رسول الله ﷺ. فالعلم بأحكام الشريعة أساس المريد في السير إلى الله ولذلك قالوا: «كل صوفي فقيه، وليس كل فقيه صوفيًا».

وهنا نشير إلى الصوفي الحق، فالصوفي الحق لابد أن يكون عالمًا بأحكام العبادات كلها من صلاة وصيام وزكاة وحج وغيرها، فعبادة العالم ولا ريب أفضل من عبادة الجاهل، وكل من طالع سيرة هؤلاء الرجال من المتصوفة الحقة يجد أنهم كانوا يفنون حياتهم في مدارسة العلم والعكوف عليه؛ ولذلك كان شيخنا الإمام الشاذلي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ لا يأخذ العهد على مريديه حتى يعد المريد للمناظرة في العلوم الظاهرة، وكان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يقول: «طريقنا هذا مشيد بالكتاب والسنة، وإن عارض كشفك الكتاب والسنة فتمسك بالكتاب والسنة، ودع جانب الكشف والإلهام فإن الله ضمن لك العصمة في الكتاب والسنة، ولم يضمنها لك في جانب الكشف والإلهام».

فهؤلاء قوم قطعوا العلائق واتجهوا إلى الله بالكلية، فهم يرجون محبته، ويطمعون في قربه لا رجاء لجنته ولا خوفًا من ناره، هم يعبدونه لجلاله وكماله وهو حقيق أن يعبد.

يقول أبو حازم الصوفي : «إني لأستحي أن أعبده للثواب والعقاب فأكون كالعبد السوء إن لم يخف لم يعمل، وكالأجير السوء إن لم يعط لم يعمل».

ويحضرني ما روي عن سيدنا عيسى «أنه مر على طائفة من العباد قد نحلوا وهزلوا قال: ما بكم؟ قالوا: نخاف النار ونرجو الجنة. فقال لهم: مخلوقًا خفتم ومخلوقًا



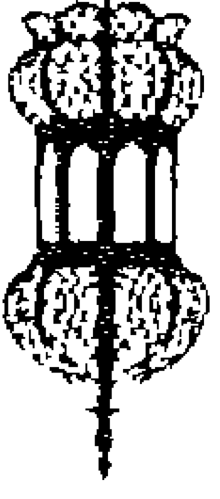
رجوتم فتركهم، ومر عليه السلام بآخرين كذلك فقالوا له: نعبده حبًّا له وتعظيماً لجلاله. فقال: أنتم أولياء الله حقًّا معكم أمرت أن أقيم».

وسأل بعض الإخوان معروفًا الكرخي: أخْبِرْنا يا أبا محفوظ: أي شيء هاجك إلى العبادة والانقطاع عن الخلق؟ فسكت معروف، فقال السائل: ذكر الموت؟ قال معروف: وأي شيء الموت؟! قال السائل: ذكر القبر والبرزخ؟ قال: وأي شيء القبر والبرزخ؟! فقال السائل: خوف النار ورجاء الجنة؟ قال: وأي شيء هذا؟! إن ملكًا هذا كله بيده إن أحببته أنساك جميع ذلك وإن عرفته كفاك جميع هذا.

روي أن الحق جل جلاله أوحى إلى بعض الصديقين: «إن لي عبادًا يحبونني وأحبهم، ويشتاقون إليَّ وأشتاق إليهم، ويذكرونني وأذكرهم وينظرون إلي وأنظر إليهم، فإن حذوت طريقهم أحببتك، وإن عدلت عنهم مقتك. قال يارب: وما علامتهم؟ قال يراعون الظلال كما يراعي الراعي الشفيق غنمه، ويحنون إلى غروب الشمس كما يحن الطائر إلى وكره، فإذا جَنَّهم الليل واختلط الظلام وفرشت الفرش ونصبت الأسرة وخلا كل حبيب بحبيبه، نصبوا إليَّ أقدامهم وافترشوا إليَّ وجوههم وناجوني بكلامي وتملقوا إليّ بإنعامي، فبين ضارعٍ وباكٍ، وبين متأوهٍ وشاكٍ، وبين قائمٍ وقاعدٍ، وبين راكعٍ وساجد، بعيني ما يتحملون من أجلي وبسمعي ما يشتكون من حبي، أول ما أعطيهم ثلاث: أقذف من نوري في قلوبهم، فيخبرون عني كما أخبر عنهم، والثانية لو كانت السماوات والأرض وما فيها في موازينهم لاستقللتها لهم،والثالثة أقبل بوجهي عليهم فترى من أقبلت عليه أيعلم أحد ما أريد أن أعطيه ؟». [ذكره الغزالي في الإحياء]

وأود أن أعرض أقوالًا للإمام ابن قيم الجوزية - رحمه الله - في كتابه «مدارج السالكين» في آرائه عن التصوف وافق فيها الإمام أبا إسماعيل الهروي صاحب كتاب «منازل السائرين» حيث يقول في أشياء يدرك بها التصوف.

قال الهروي: «وإنما يدرك إمكان ذلك في ثلاثة أشياء؛ في العلم، والجود، والصبر فالعلم يرشده إلى مواقع بذل المعروف، والفرق بينه وبين المنكر، وترتيبه في وضعه مواضعه، فلا يضع الغضب موضع الحلم، ولا بالعكس، ولا الإمساك موضع البذل،



ولا بالعكس، بل يعرف مواقع الخير والشر ومراتبها، وموضع كل خلق: أين يضعه وأين يحسن استعماله».

والجود يبعثه على المسامحة بحقوق نفسه، والاستقصاء منها بحقوق غيره. فالجود هو قائد جيوش الخير، والصبر يحفظ عليه استدامة ذلك. ويحمله على الاحتمال، وكظم الغيظ، وكف الأذى، وعدم المقابلة، وعلى كل خير، كما تقدم. وهو أكبر العون على نيل كل مطلوب من خير الدنيا والآخرة.

قال تعالى: ﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ﴾ [البقرة: 45].

فهذه الأشياء الثلاثة: بها يُدْرَكُ التصوف، والتصوف زاوية من زوايا السلوك الحقيقي، وتزكية النفس وتهذيبها لتسعد لسيرها إلى صحبة الرفيق الأعلى، ومعية من تحبه، فإن المرء مع من أحب. وكما قال سمنون: ذهب المحبون بشرف الدنيا والآخرة، فإن المرء مع من أحب. والله أعلم.

كان هذا شرحًا لابن قيم الجوزية على كلام الإمام الحافظ أبو إسماعيل عبد الله بن محمد الهروي رضي الله عنه وافقه فيه. وابن قيم الجوزية لم يخالف تلاميذه الذين أبوا أن يكون الهروي شيخًا من مشايخ الصوفية ولا يعنينا رأيهم من قريب أو بعيد وافقوه أو لم يوافقوه، فالشيخ ابن قيم الجوزية - رحمه الله -إن أعجبه ما وافق مذهبه في كلام الشيخ وافقه عليه، وإلا فهو يعارضه في كثير من كلامه، خاصة إن وافق شيئًا من أحوال القوم كالسكر والصحو والفناء وغير ذلك، وهو محق فيما يراه، فلم يخرج عن رأي شيخه ابن تيمية - رحمة الله عليهم أجمعين - ثم يعرض ابن القيم رأيًا للشيخ عبد القادر الجيلاني.

فيقول: «ومدار حسن الخلق مع الحق ومع الخلق على حرفين ذكرهما عبد القادر الكيلاني أو الجيلاني فقال: كن مع الحق بلا خلق، ومع الخلق بلا نفس».

فتأمل.. ما أجمل هاتين الكلمتين، مع اختصارهما، وما أجمعهما لقواعد السلوك.

ولكل خلق جميل !! وفساد الخلق إنما ينشأ من توسط الخلق بينك وبين الله تعالى. وتوسط النفس بينك وبين خلقه. فمتى عزلت الخلق - حال كونك مع الله تعالى -

وعزلت النفس - حال كونك مع الخلق - فقد فزت بكل ما أشار إليه القوم، وشمروا إليه، وحاموا حوله. والله المستعان.

ويستدل الشيخ برأي الإمام الجنيد في مقام آخر فيقول: «وسئل الجنيد: ما للمريد حظ في مجازات الحكايات ؟

فقال: «الحكايات جند من جند الله يثبت الله بها قلوب المريدين».

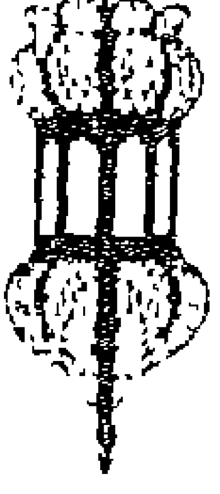
ثم قرأ قوله تعالى: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [هود: 120].

وقد ذكر عن الجنيد كلمتان في الإرادة مجملتان تحتاج كل منهما إلى تفسير الكلمة الواحدة. قال أبو عبد الرحمن السلمي: سمعت محمد بن مخلد يقول: سمعت جعفرًا يقول: سمعت جنيدًا يقول: «المريد الصادق غني عن العلماء».

وقال أيضًا: سمعت الجنيد يقول: إذا أراد الله بالمريد خيرًا أوقعه على الصوفية. ومنعه صحبة القراء.

يقول ابن القيم: «إذا صدق المريد، وصح عقد صدقه مع الله، فتح الله على قلبه ببركة الصدق وحسن المعاملة مع الله ما يغنيه عن العلوم التي هي نتائج أفكار الناس وآرائهم، وعن العلوم التي هي فضلة ليست من زاد القبر. وعن كثير من إشارات الصوفية وعلومهم، التي أفنوا فيها أعمارهم: من معرفة النفس وآفاتها وعيوبها، ومعرفة مفسدات الأعمال، وأحكام السلوك. فإن حال صدقه، صحة طلبه يريه ذلك كله بالفعل».

لقد وافق الشيخ ابن القيم رأي الشيخ محيي الدين بن عربي في شرحه على قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ﴾ [البقرة : 282]، حيث يقول ابن عربي: أي يعلمكم ما لم تكونوا تعلمونه بالوسائط من العلوم الإلهية، ولذلك أضاف التعلم إلى اسم الله الذي هو جامع للأسماء والصفات.



ثم يقول الشيخ العلامة ابن قيم الجوزية رحمة الله عليه وهو يتكلم عن حقيقة الذكر: «فالعارفون منهم أرباب البصائر أعطوا العبودية حقها والعلم حقه، وعرفوا أن العبد حقيقة من كل وجه، والرب حقيقة من كل وجه، وقاموا بحق العبودية بالله لا بأنفسهم ولله لا لحظوظهم وفنوا بمشاهدة معاني أسمائه وصفاته عما سواه. وبما له محبة ورضا عما به كونًا ومشيئة. فإن الكون كله به والذي له هو محبوبه ومرضيه فهو له وبه. ثم يقول رحمه الله: ولما دخل الواسطي نيسابور سأل أصحاب أبي عثمان: بماذا كان يأمركم شيخكم ؟ فقالوا: كان يأمر بالتزام الطاعات، ورؤية التقصير فيها. فقال: أمركم بالمجوسية المحضة، هلا أمركم بالغيبة عنها برؤية منشئها ومجريها؟

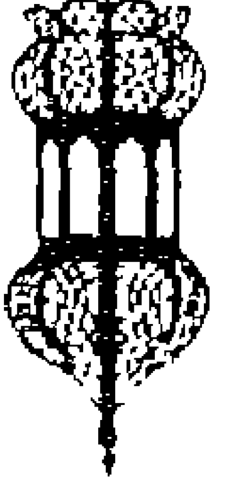
قلت: لم يأمرهم أبو عثمان رحمه الله إلا بالحنيفية المحضة. وهي القيام بالأمر ومطالعة التقصير فيه. وليس في هذا من رائحة المجوسية شيء، فإنه إذا بذل الطاعة لله وبالله صانه ذلك عن الاتحاد والشرك، وإذا شهد تقصيره فيها صانه عن الإعجاب؛ فيكون قائمًا بإياك نعبد وإياك نستعين.

وأما ما أشار إليه الواسطي: فمشهد الفناء، ولا ريب أن مشهد البقاء أكمل؛ فإن من غاب عن طاعاته، لم يشهد تقصيره فيها. ومن تمام العبودية شهود التقصير، فمشهد أبي عثمان أتم من مشهد الواسطي.

وأبو عثمان هذا هو «سعيد بن إسماعيل النيسابوري» من جلة شيوخ القوم وعارفيهم. وكان يقال: في الدنيا ثلاثة، لا رابع لهم: أبو عثمان النيسابوري بنيسابور، والجنيد ببغداد، وأبو عبد الله بن الجلاد بالشام، وله كلام رفيع عالٍ في التصوف والمعرفة.

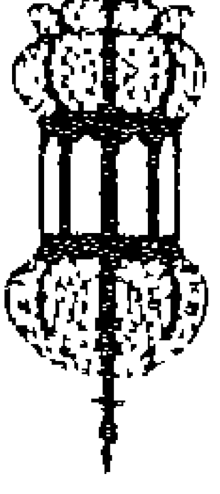
وكان شديد الوصية باتباع السنة، وتحكيمها ولزومها، ولما حضرته الوفاة مزق ابنه قميصًا على نفسه؛ ففتح أبو عثمان عينيه، وهو في السياق. فقال: يا بني خلاف السنة في الظاهر، علامة رياء في الباطن.

ولعل القارئ يقف عند فهم ابن قيم الجوزية لمواجيد القوم وأذواقهم وإعجابه بفيض الله عليهم واستدلاله بآرائهم وإبداء رأيه غير منكر لأحوال شهود فنائهم إلا



أنه يرى أن حال شهود البقاء أكمل كما قال رحمة الله عليه إن شهود التقصير من تمام العبودية، فمشهد أبي عثمان أتم من مشهد الواسطي تعليقًا على سؤال الواسطي لتلاميذ أبي عثمان رحمة الله عليه.

ولم يكن عرضنا لما جاء في أقوال العلامة ابن قيم الجوزية - رحمه الله - إلا ردًّا منه على من يدعون اتباع مذهبه، وينكرون على العارفين من الصوفية سلوكهم ومنهجهم. فالشيخ رحمه الله لم ينكر التصوف كمذهب سلكه غيره، ولم ينكر أيضًا على الصوفية أحوالهم ومواجيدهم فيعجبه آراء أئمتهم كالجنيد والسَّري السَّقَطي والفضيل بن عياض وعبد القادر الجيلاني وأبو عثمان النيسابوري وغيرهم، وهؤلاء هم أئمة من أئمة الصوفية، ومن سار على منهجهم فهو الصوفي الحق، فأولئك يدعون إلى التمسك بالكتاب والسنة وما دعا إليه رسول الله ﷺ قولًا وعملًا، وهذا هو أصل الطريق عند الصوفية.



الباب الثالث

إنكار المتشددين على الصوفية

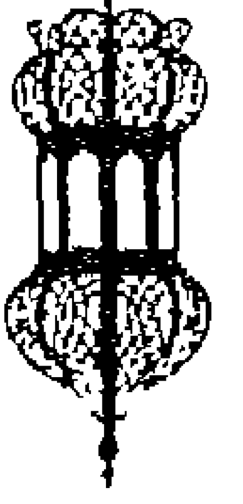
إنه لمن الجدير بالذكر أنه عندما يتحدث الشيخ (ابن تيمية) - رحمه الله - ليبدأ حملته الهجومية على سادة القوم من الصوفية فإنك تراه يتحدث عن أحوال لا يدرك مداها إلا من ذاق مشربها ونهل من كأسها.

فتراه يتحدث عن مقام الفناء عند الصوفية ويقسمه إلى ثلاث مراتب؛ فيسمي مرتبة بالفناء الأول، ويسمي أخرى الفناء الثاني، ويسمي ثالثة الفناء الثالث، ومرتبة الفناء عند الصوفية من مراتب الأحوال التي لا يصل إليها السالك منهم حتى يتخطى مراتب الطريق التي سنتحدث عنها لاحقًا، والتي ربما تكون سببًا في تربية السالك لحصول ترقيه في الأحوال.

لكن الشيخ - رحمه الله - لم يعترض على شيء مما أسموه مراتب الطريق عند الصوفية؛ إذ إنها هي التوبة والاستقامة والتهذيب والتقريب، وهذه كلها أمور سلوكية شرعية ينبغي لكل مسلم الدخول في مراتبها.

تكلم الشيخ عن أحوال يدرك القارئ أن الشيخ - رحمة الله عليه - كان وكأنه عالم بهذه الأحوال مدركٌ بها، وعليه لا تستطيع أن تقر بأن الشيخ مهاجم فإنك أمام رجل؛ إما أن يكون سالكًا مسلكهم أو قارئًا لما أفاضوا به من أحوالهم ونطقت عنه ألسنتهم.

وإن كنت أرى أن الرأي الثاني هو أقرب إلى ابن تيمية من الرأي الأول، فما ينسب إلى ابن تيمية - رحمه الله - من أقوال لا يصح عنه ولا ينبئ عن قول عالم بلغ في العلم ذروة كالشيخ ابن تيمية - رحمه الله.



ولعل القارئ يجدني فيما أكتب أقول «قال ابن تيمية أو نقلًا عن ابن تيمية أو الناقل عن ابن تيمية»؛ وذلك لأنني لا أريد أن أجزم بأن القول لابن تيمية - رحمه الله - إيمانًا مني بأنني أستبعد أن ينكر عالم على وجه الأرض فضل رسول الله ﷺ وآل البيت الصالحين وخاصة إذا كان هذا العالم هو الإمام ابن تيمية.

لكنني في الرد على أمثال هؤلاء لا يعنيني في الرد عليهم من يكون هذا العالم؛ ذلك لأنني أعتقد عن يقين أن أي عالم من علماء الشريعة مهما بلغ من منزلة في علمه ولا يحب أهل البيت ويقدرهم ويعتقد البركة والولاية فيهم فعلمه ناقص وإيمانه ناقص.

فلقد وجدت فيما نسب إلى الشيخ ابن تيمية في بعض فتاويه كثيرًا من إساءة الأدب والتطاول على النبي ﷺ وآل بيته الكرام والصالحين ممن عرفوا بالتقى والصلاح وشهد لهم أئمة زمانهم.

وقبل أن أتحدث عن هجوم الشيخ على سادة القوم من الصوفية، أود أن أبين للقارئ بعض فتاويه ليعلم من خلالها أسلوب الشيخ وطريقته في الهجوم على سادة القوم.

نورد بعضًا من فتاويه لنبين للقارئ إهاناته، تلميحًا أو تصريحًا، ومن المؤسف والغريب أن يجد له مناصرين يؤيدون رأيه ويأخذون بفتواه وكأن ابن تيمية جاء في القرن السابع الهجري ليدحض بفكره كل ما جاء به أساتذته والأئمة الذين سبقوه بقرون وكانوا أقرب إلى حياة الصحابة والتابعين منه.

يقول في مجموع الفتاوى لابن تيمية ينفي استجابة الدعاء عند قبره ﷺ: «ومع هذا لم يقل أحد منهم - يقصد أئمة السلف - إن الدعاء مستجاب عند قبره؛ ولا أنه يستحب أن يتحرى الدعاء متوجهًا إلى قبره بل نصوا على نقيض ذلك». والحقيقة لست أدري من أين أتى ابن تيمية أو الناقل عنه بهذا الافتراء على أئمة السلف وكأنه لم يقرأ للإمام أحمد أو الشافعي أو أبي حنيفة أو مالك - رضي الله عنهم أجمعين- وكان يجب على عالم مثله عندما يتحدث عن رسول الله ﷺ أن يقول مثلًا: (عند قبره ﷺ)، ولست أدري أيضًا ما هو نقيض ذلك الذي نصت عليه فتوى أئمة السلف.. ومن

هم أئمة السلف الذين يقصدهم غير الذين ذكرناهم؟ وهل عجز الشيخ أن يأتي لنا بأسماء من أفتوا؟؟».

ويقول في رده على البكري ما نصه:

«أن يظن أن الدعاء عند قبره مستجاب أو أنه أفضل من الدعاء في المساجد والبيوت فيقصد زيارته لذلك أو للصلاة عنده أو لأجل طلب حوائجه منه، فهذا أيضًا من المنكرات المبتدعة باتفاق أئمة المسلمين وهي محرمة، وما علمت في ذلك نزاعًا بين أئمة الدين..» ولنا أن نسأل سؤالًا أو أسئلة:

- أليس الدعاء عند قبره ﷺ أفضل من الدعاء في المساجد والبيوت؟

- أليس التيمن بالدعاء عند قبره ﷺ مدعاة لقصد زيارته ﷺ والدعاء عنده تيمنًا وتبركًا؟

- هل زيارة النبي ﷺ من المنكرات المبتدعة ؟

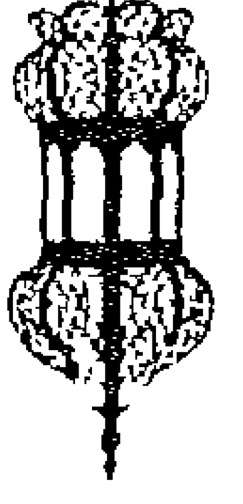
- من هم أئمة المسلمين الذين عدوا زيارة النبي ﷺ من المنكرات المبتدعة ؟

- هل عجز ابن تيمية أو الناقل عنه أن يأتي لنا بأسمائهم ؟

تُرى، من يتحدث عن رسول الله ﷺ بهذا الأسلوب الذي خلا من الأدب تمامًا، كيف يتحدث إذن عن الصوفية والصالحين من آل بيت النبي ﷺ ؟!

لكننا بفضل الله تعالى سنورد ردودًا مفصلة على ما جاء من أقواله من افتراءات إن كانت له أو نسبت إليه، ولكن بماذا هاجم الشيخ سادة القوم من الصوفية وبماذا أنصفهم؟

يقول الشيخ في كتابه «العبودية»: (بل قد آل الأمر بهؤلاء إلى أن سووا الله بكل موجود، وجعلوا ما يستحقه من العبادة والطاعة حقًّا لكل موجود؛ إذ جعلوه هو وجود المخلوقات، وهذا أعظم الكفر والإلحاد برب العالمين، وهؤلاء يصل بهم الكفر إلى أنهم لا يشهدون أنهم عباد الله، لا بمعنى أنهم معبّدون، ولا بمعنى أنهم عابدون إذ يشهدون أنفسهم هي الحق، كما صرح بذلك طواغيتهم كابن عربي صاحب الفصوص وأمثاله من الملحدين المفترين، كابن سبعين وأمثاله، ويشهدون



أنهم العابدون والمعبودون وهذا ليس بشهود للحقيقة، لا الكونية ولا الدينية بل هو ضلال وعمى عن شهود الحقيقة الكونية؛ حيث جعلوا وجود الخالق هو وجود المخلوق، وجعلوا كل وصف مذموم وممدوح نعتًا للخالق والمخلوق؛ إذ وجود هذا هو وجود هذا عندهم).

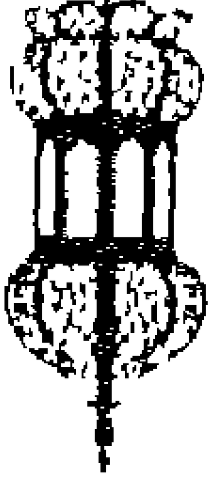
وهو بهذا يقصد ما يسمونه الحلول والاتحاد فتراه في مقالته أيضًا معترفًا بأن هناك شهودًا تسمى شهود الحقيقة ولكن في رأيه ليست هي ما قاله ابن عربي وابن الفارض وغيرهما والشيخ معذور في هذا فليس من شاهد كمن سمع.

ثم يستطرد الشيخ في الحديث عن هذه الطائفة أيضًا فيقول:

(ومنهم طائفة قد تترك المستحبات من الأعمال دون الواجبات بقدر ذلك ومنهم طائفة يغترون بما يحصل لهم من خرق عادة مثل مكاشفة أو استجابة دعوة مخالفة للعادة ونحو ذلك، فينشغل أحدهم بهذه الأمور عما أُمر به من العبادة والشكر ونحو ذلك، فهذه الأمور ونحوها كثيرًا ما تعرض لأهل السلوك والتوجه).

والشيخ في مقالته هذه يقر بجواز حصول المكاشفة وإجابة الدعوة المخالفة للعادة لكنه يأبى الاعتزاز بما يحصل لهم من هذه الأمور بل يقرر أن هذه الأمور ونحوها كثيرًا ما تعرض لأهل السلوك والتوجه، وكأنه يقرر أن الطائفة التي تحدث عنها باغترارها بما يحصل لهم من خرق العادة وغيرها هم أهل السلوك والتوجه، والقارئ فيما كتب الشيخ ابن تيمية في هجومه على هذه الطائفة من المتصوفة الحقة سيجد أن الشيخ لم ينكر على العارفين الصادقين منهم أحوالهم، ففي الكتاب نفسه كتب يقول:

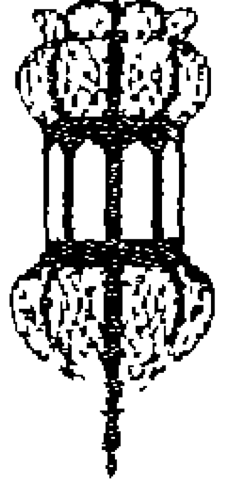
(وإنما وقع شيء من هذا بعد الصحابة وكذلك كل ما كان من هذا النمط مما فيه من غيبة العقل وعدم التمييز لما يرد على القلب من الأحوال فإن الصحابة رضي الله عنهم كانوا أكمل وأقوى عقولًا وأثبت في الأحوال الإيمانية من أن تغيب عقولهم أو يحصل لهم غشي أو صعق أو سُكْر أو فناء أو وَلَهٌ أو جنون وإنما كانت مبادئ هذه الأمور في التابعين من عباد البصرة فإنه كان فيهم من يُغشى عليه إذا سمع القرآن ومنهم من يموت «كأبي جهير الضرير» و«زرارة بن أبي أوفى» قاضي البصرة وكذلك صار في



شيوخ الصوفية من يعرض له من الفناء والسكر مما يضعف معه تمييزه، حتى يقول في تلك الحال من الأقوال ما إذا صح عرف أنه غالط فيه، كما يُحكى نحو ذلك عن مثل: (أبي يزيد البسطامي، وأبي الحسن الثوري، وأبي بكر الشبلي) وأمثالهم، بخلاف: أبي سليمان الداراني، ومعروف الكرخي، والفضيل بن عياض، بل وبخلاف الجنيد «وأمثالهم ممن كانت عقولهم وتمييزهم يصحبهم في أحوالهم فلا يقعون في مثل هذا الفناء والسكر ونحوه، بل الكمل من المؤمنين الذين لا يهتدون إلا بهدي الكتاب والسنة لا يكون في قلوبهم سوى محبة الله وإرادته وعبادته؛ لأن عندهم من سعة العلم والتمييز ما يشهدون به الأمور على ما هي عليه، بل يشهدون المخلوقات قائمة بأمر الله مدبرة بمشيئته بل مستجيبة له فيكون لهم فيها تبصرة وذكرى ويكون ما يشهدون من ذلك مؤيدًا وممدًّا لما في قلوبهم من إخلاص الدين وتجريد التوحيد لله والعبادة له وحده لا شريك له، وهذه هي الحقيقة التي دعا إليها القرآن وقام بها أهل تحقيق الإيمان والكمل من أهل العرفان ونبينا ﷺ إمام هؤلاء القوم وأكملهم».

- وكان هذا كلام الشيخ ابن تيمية شرحًا له على ما أسماه مقام الفناء الأول، وهو الفناء عن إرادة السوى أي عن إرادة ما سوى الله وترى الشيخ منصفًا عندما يتحدث عن بعضهم «كأبي سليمان الداراني - ومعروف الكرخي - والفضيل بن عياض والجنيد» ويصفهم بأنهم ممن كانت عقولهم وتمييزهم تصحبهم في أحوالهم وهؤلاء الذين يقدرهم ابن تيمية ويعرف فضلهم وقدرهم هم من أئمة الصوفية وأكابر أوليائها وعلمائها، كذلك لم ينكر الشيخ على غير هؤلاء أحوالهم من سُكر أو فناء أو وَلَه لكنه يعترض على ما يصدر عنهم في أحوالهم في حال غيبتهم حتى قال في نهاية حديثه عن هذا المقام: (وهذا المعنى إن سُمي فناء أو لم يُسمَّ هو أول الإسلام وآخره وباطن الدين وظاهره) وهو بذلك يؤيد ويتفق مع ما قاله المتصوفون أنفسهم في هذا المقام، سواء بعد صحوتهم أو في حال ثبوتهم، بل أجاد في قوله: هو أول الإسلام وآخره وباطن الدين وظاهره.

وقال - رحمه الله - في الفناء عن شهود السوى وهو النوع الثاني: «وهذا يحصل لكثير من السالكين فإنهم لفرط انجذاب قلوبهم إلى ذكر الله وعبادته ومحبته وضعف



قلوبهم عن أن تشهد غير ما تعبد وترى غير ما تقصد لا يخطر بقلوبهم غير الله، بل لا يشعرون».

ونحن كما ذكرنا إن أردت الشيخ مهاجمًا فستجد ذلك في مقالاته وإن أردته منصفًا فستجد ذلك في كتاباته ونحن لا نجد ردًّا على من قال بهجوم الشيخ على الصوفية غير رد الإمام ابن تيمية نفسه في حديثه عن الفناء عن شهود السِّوى.

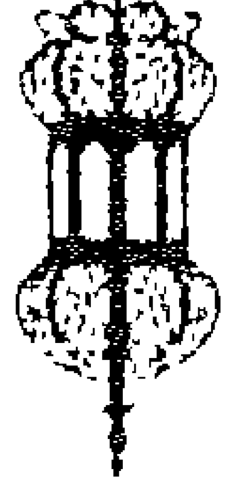
ثم يتحدث عن المقام الثالث من مقامات الفناء عن وجود السِّوَى فيقول:

(وأما النوع الثالث مما قد يسمى فناء فهو أن يشهد أن لا موجود إلا الله وأن وجود الخالق هو وجود المخلوق فلا فرق بين الرب والعبد فهذا فناء أهل الكفر والضلال والإلحاد الواقعين في الحلول والاتحاد وهذا يبرأ منه المشايخ المستقيمون على هدي الكتاب والسنة كالصحابة والأئمة المهتدين).

ولقد بالغ الناقل عن الشيخ ابن تيمية في هذا القول بأن قال: (بأن وجود الخالق هو وجود المخلوق فلا فرق بين العبد والرب).

لأنك لو سألت ملحدًا عن الله لقال لك: لأن العبد عبدٌ والرب رب. والحقيقة لسنا ندري من أين أتى ابن تيمية أو الناقل عن ابن تيمية هذا القول الذي يدحضه قول ابن تيمية نفسه عندما تحدث عما أسماه الفناء عن شهود السِّوَى لكن الناقل عن الشيخ بالغ في العداء لفكر أولئك القوم الذين عاشوا حياتهم جهادًا وزهدًا ومعرفة ولم نقرأ أو نسمع عن عالم من علماء الصوفية العارفين أتى بقول مثل هذا.

لقد نسبوا مثل هذا القول إلى عالم جليل القدر هو العارف بالله الإمام (محيي الدين بن عربي الحاتمي) وهو من أسرة عريقة في العلم والتقوى؛ فجده عبد الله الحاتمي قائد من قادة الفتوحات الإسلامية وجده محمد بن أحمد أحد قادة الأندلس وعلمائها وأبوه علي بن محمد كان من أئمة الفقه والحديث ومن أعلام رجال التصوف العاملين وخاله «أبو مسلم الخولاني» من كبار علماء الصوفية، وفوق ذلك كله أنه ينتسب إلى الأنصار الذين لا يسلكون فجًّا إلا وسلكه معهم رسول الله ﷺ ولنسمع لقول الإمام (محيي الدين بن عربي) الذي رموه بهذا الفكر؛ حيث يقول في عقيدته



الوسطى: (اعلم أن الله سبحانه واحد بإجماع، وقيام الواحد يتعالى أن يحل فيه شيء أو يحل هو في شيء أو يتحد بشيء).

ويقول أيضًا في الفتوحات المكية:

(لا حلول ولا اتحاد؛ فإن القول بالحلول مرض لا يزول وما قال بالاتحاد إلا أهل الإلحاد وكما أن القائل بالحلول من أهل الجهل والفضول ومن دينه معلول).

يقول أيضًا في باب الأسرار: (أنت أنت وهو هو فإياك أن تقول كما قال العاشق أنا من أهوى ومن أهوى أنا فهل قدر أن يرد العين واحدة لا والله والجهل لا يتعقل حقًّا).

ويقول في الباب نفسه: (لا يجوز للعارف أن يقول أنا الله ولو بلغ أقصى درجات القرب وحاشا للعارف من هذا حاشاه).

فهل يصح أن يتهم مثل هذا الرجل بالكفر والإلحاد ؟ ثم نعود لكلام الشيخ ابن تيمية والحقيقة لست أدري أهو كلام الشيخ أم أن الشيخ مفترى عليه كما سبق الافتراء على غيره من العلماء.

فلقد أسردنا ما قاله الشيخ أيضًا عندما تحدث عن المقام الثالث في الفناء حيث يقول: (المشايخ والصالحون -رضي الله عنهم- يذكرون شيئًا من تجريد التوحيد وتحقيق إخلاص الدين كله، بحيث لا يكون العبد ملتفتًا إلى غير الله، ولا ناظرًا إلى ما سواه، لا حبًّا له ولا خوفًا منه ولا رجاء له، بل يكون القلب فارغًا من المخلوقات خاليًا منها، لا ينظر إليها إلا بنور الله؛ فبالحق يسمع، وبالحق يبصر، وبالحق يبطش، وبالحق يمشي فيحب منها ما يحبه الله ويبغض منها ما يبغضه الله، ويوالي منها ما والاه الله ويعادي منها ما عاداه الله، ويخاف الله فيها ولا يخافها في الله، ويرجو الله فيها ولا يرجوها في الله؛ فهذا هو القلب السليم الحنيف المسلم المؤمن المحقق الموحد العارف بمعرفة الأنبياء والمرسلين وبحقيقتهم وتوحيدهم).

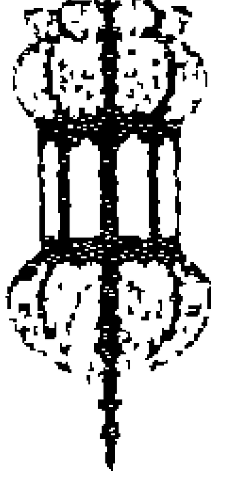
- فالشيخ يتحدث عن حقيقة التوحيد وتجريده وتحقيق الإخلاص كما ذكر الصالحون رضوان الله عليهم، فالعبد لا يكون ملتفتًا لغير الله ولا ناظرًا لسواه؛ فبه يسمع وبه يبصر وبه يبطش وبه يمشي، وهذا أمر يتفضل الله به على عبده عملاً بقوله تعالى في

الحديث القدسي: «**فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي عليها**» رواه البخاري وأحمد بن حنبل والبيهقي.

وأساس هذا الأمر هو تقرب العبد إلى الله بالعبادة والنوافل.

وبعد ذلك ينقلنا الشيخ - رحمه الله - إلى حديث ينفي به ما اتهم به هؤلاء السادة من الكفر والضلال؛ حيث يتحدث عن مقام آخر فيقول: (إن العبد إذا شهد التفرقة والكثرة في المخلوقات يبقى قلبه متعلقًا بها مشتتًا ناظرًا إليها، وتعلقه بها إما محبة وإما خوفٌ وإما رجـاء، فإذا انتقل إلى الجمع اجتمـع قلبـه على توحيد الله وعبادته وحده لا شريك له فالتفت قلبه إلى الله بعد التفاته إلى المخلوقين، فصارت محبته لربه وخوفه من ربه ورجاؤه لربه واستعانته بربه وهو في هذا الحال قد لا يسع قلبه النظر إلى المخلوق ليفرق بين الخالق فقد يكون مجتمعًا على الحق معرضًا عن الخلق نظرًا وقصدًا وهو نظير النوع الثاني من الفناء، ولكن بعد ذلك الفرق الثاني وهو أن يشهد أن المخلوقات قائمة لله مدبرة بأمره ويشهد كثرتها معدومة بوحدانية الله سبحانه وتعالى وأنه سبحانه رب المصنوعات وإلهها، وخالقها ومالكها فيكون مع اجتماع قلبه على الله إخلاصًا ومحبة وخوفًا ورجاء واستعانة وتوكلًا على الله وموالاة فيه ومعاداة فيه وأمثال ذلك ناظرًا إلى الفرق بين الخالق والمخلوق مميزًا بين هذا وهذا، يشهد في تفرق المخلوقات مع كثرتها شهادته أن الله رب كل شيء ومليكه وخالقه وأنه هو الله لا إله إلا هو وهذا هو الشهود الصحيح المستقيم).

ولسنا نجد في كلام العارفين بالله من الصوفية كلامًا أبعد مما قاله الشيخ ابن تيمية إلا في مذاقاتهم الخاصة، فالشيخ وافق ما قاله أكابر الصوفية العالمين العاملين؛ ولذلك ترى الشيخ يسجل لنا في كتاباته آراء لبعض الرجال من الصوفية كالإمام (الجنيد - وسيدي عبد القادر الجيلاني) وهم من كبار أئمة الصوفية في حديثهم عن الفرق الثاني الذي أشار إليه (ابن تيمية) في حديثه السابق حيث يقول في كتابه: (الحسنة والسيئة في مسألة إرادة الكائنات وخلق الأفعال):



(وهذه المسألة وقعت في زمن الجنيد كما ذكر ذلك في غير موضع وبين لهم الجنيد الفرق الثاني وهو أنهم مع مشاهدة المشيئة العامة لا بد لهم من مشاهدة الفرق بين ما يأمر الله به وما ينهى عنه وهو الفرق بين ما يحبه ويبغضه، وبين ذلك لهم الجنيد، كما قال في التوحيد هو إفراد الحدوث عن القدم فمن سلك مسلك الجنيد من أهل التصوف والمعرفة كان قد اهتدى ونجا وسعد).

فالشيخ ابن تيمية شهد لكل من سلك على طريقة الجنيد بالنجاة والفوز، والجنيد هو سيد هذه الطائفة وإمامها.

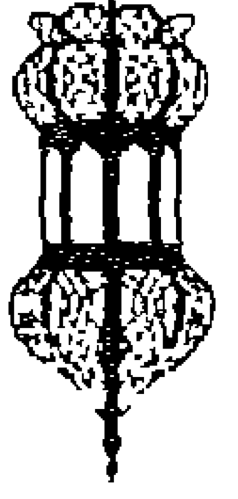
وفي كتابه «العبودية» يعرض لنا رأيًا لسيدي عبد القادر الجيلاني رضي الله عنه فيقول: «وإلى هذا أشار الشيخ عبد القادر- رحمه الله تعالى - فيما ذُكر عنه فبين أن كثيرًا من الرجال إذا وصلوا إلى القضاء والقدر أمسكوا، إلا أنا فإني انفتحت لي فيه روزنةٌ فنازعت أقدار الحق بالحق للحق والرجل من يكون منازعًا للقدر لا من يكون موافقًا للقدر».

كان هذا كلام سيدي عبد القادر الجيلاني وعلق عليه الشيخ ابن تيمية بقوله: «والذي ذكره الشيخ هو الذي أمر الله به ورسوله، لكنَّ كثيرًا من الرجال غلطوا فيه».

والشيخ ابن تيمية هنا يقرر ما قاله سيدي عبد القادر الجيلاني ولم يعترض عليه، على الرغم من أن كلام سيدي عبد القادر مشابهٌ بعض الشيء لكثير مما عارضه ابن تيمية بشدة وصلابة فالشيخ يقول: «إلا أنا فإني انفتحت لي فيه روزنة فنازعت أقدار الحق بالحق للحق والرجل من يكون منازعًا للقدر لا من يكون موافقًا للقدر».

ويبدو واضحًا جليًا أن الشيخ ابن تيمية كان يميل إلى ما نهج إليه الكمل من العارفين بالله أمثال «الجنيد بن محمد - وسيدي عبد القادر الجيلاني - والفضيل بن عياض - وإبراهيم بن أدهم - وأبي سليمان الداراني - والسَّري السقطي - وسهل بن عبد الله» وأمثال هؤلاء، فتراه يستدل برأي الفضيل بن عياض عن إخلاص العمل لله.. فيقول في كتابه «العبودية» أيضًا:

وقال الفضيل بن عياض في قوله تعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: 2] «قالوا يا أبا علي، ما أخلصه وأصوبه؟ قال: إن العمل إذا كان خالصًا ولم يكن صوابًا



لم يقبل وإذا كان صوابًا ولم يكن خالصًا لم يقبل حتى يكون خالصًا صوابًا، والخالص أن يكون لله، والصواب أن يكون على السنة».

فالشيخ يعلم قدر العلمـاء من الصوفيـة ويأخذ برأيهم ويستدل به ويميل إليه ولا عجب في ذلك فالشيخ كان عالمًا جليلًا ذواقًا؛ فهو إمام من أئمة المدرسة السلفية التي تنادي بضرورة العودة إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ الصحيحة.

ولقد ذكر عنه بعض المؤرخين أنه تتلمذ على يد أكثر من مائتين من العلماء الأجلاء وكان من بين هؤلاء الأفاضل الشيخ (محيي الدين النووي) فقد درس المذهب الشافعي على الشيخ النووي ومات النووي وابن تيمية لم تتجاوز سنه (ستة عشر عامًا) وعاصر ابن دقيق العيد والعز بن عبد السلام وأخذ عنهما.

وأريد أن أوضح للقارئ بهذه اللفتة أننا نعرف مكانة ابن تيمية بين العلماء ولكن ما نشر عنه ونسب إليه من هجوم على السادة والعارفين بالله يجعلني - كما ذكرت من قبل - أقول ربما يكون الشيخ المفْتَرَى عليه دُسَّ له كما دُس لغيره من العلماء. ومن الجدير بالذكر أن العز بن عبد السلام والشيخ ابن دقيق العيد كانا من المعارضين للفكر الصوفي في بداياتهما، وكلا الشيخين كان من أشد العلماء هجومًا على الصوفية خاصة على الشيخ العارف بالله الإمام «محيي الدين بن عربي» والجدير بالذكر أن الشيخ ابن دقيق العيد كان تلميذًا للشيخ العز بن عبد السلام ولكن العز بن عبد السلام أخذ يبحث في علوم القوم وفهم رموزها وإشاراتها وأدرك إيحاءاتها وعند ذلك أقر بأن محيي الدين بن عربي إمام من أئمة الإسلام.

واعتنق العز بن عبد السـلام المذهب الصوفي، وكان بعد ذلك يحضر على الشيخ أبي الحسن الشاذلي رضي الله عنه ويسمع كلامه في الحقيقة ويعظمه، وألف العز بن عبد السلام كتبًا عديدة في التصوف الإسلامي، منها مسائل الطريقة وحل الرموز المسمى زبدة خلاصة التصوف، ومؤلفات أخرى منها الفتاوى الموصلية وشجرة المعارف والتفسير الكبير والإلمام في أدلة الأحكام والفرق بين الإيمان والإسلام. ونهج ابن دقيق العيد نهج شيخه العز بن عبد السلام - رحمة الله عليهم أجمعين.

والشيخ ابن تيمية عاش في هذا العصر الذي تعددت فيه المذاهب وشاعت فيه الفتن والبدع والخروج على السنة ودخل في الصوفية قوم أساءوا لأهل التصوف أنفسهم.

جلس الشيخ يومًا يفتي الناس على حلقات الذكر التي يقيمها الصوفية فقال: (ليس كل الصوفية سواء، ولكنهم ثلاث طبقات متباينة حتى في ذكر الله؛ أولاها صوفية الحقائق وهم الذين اتخذوا الكتاب والسنة طريقًا إلى التصوف واتخذوا التصوف طريقًا في حب الله وطاعته هو ورسوله، ثم صوفية الأرزاق، أما الطبقة الثالثة من الصوفية فهم صوفية الرسوم وهم المقتصرون على التشبه بصوفية الحقائق في اللباس والآداب الوضعية؛ فهم بمنزلة الذي يقتصر على زي أهل العلم. وصوفية الحقائق يذكرون الله بالطريقة الشرعية بالتأمل والخشوع والتدبر، أما صوفية الأرزاق الذين يتركون العمل النافع وينقطعون للعبادة وهؤلاء تجري عليهم الأرزاق فهم كصوفية الرسوم الذين يقلدون آداب صوفية الحقائق فكلاهما صاحب حلقات لذكر الله، وهي حلقات رقص صوفي لا ذكر شرعي فهي بدعة لا علاقة لها بالذكر الشرعي فمن رقص معهم في حلقات الذكر مبتدع مثلهم).

واجتهاد الشيخ في هذا التقسيم هو ثمرة صراع في داخله لم يستطع معه إنكارًا لمنزلة التصوف الإسلامي للوصول إلى منزلة أسمى وأرفع وهي محبة الله ورسوله في ظل التمسك بالكتاب والسنة فهو يميل إلى ما أسماه صوفية الحقائق؛ حيث يقول عنهم: هم الذين اتخذوا الكتاب والسنة طريقًا إلى التصوف واتخذوا التصوف طريقًا في حب الله وطاعته هو ورسوله ونحن لا نطلب من الشيخ تصريحًا أجمل من هذا وإن كان الشيخ قد أشار إلى هذا في كثير من كتاباته، فلم يكن هجوم الشيخ إلا على المقلدين وهم الذين أسماهم صوفية الأرزاق وصوفية الرسوم، ونحن لا ننكر على الشيخ غيرته على الدين ودعوته إلى التمسك بالشريعة، الأمر الذي جعله يقرر فارقًا كبيرًا بين أصحاب الطريقة أنفسهم، فلم يكن إنكاره على الشيخ الجليل سيدي (محيي الدين بن عربي) إلا أنه رأى منه ظواهر أمور تخالف في فهمه هو ظواهر الشرع وكان مطالبًا بأن يقف على عبارات القوم فيفهم رموزها وإشاراتها وإيحاءاتها كما فعل غيره مثل العز بن عبد السلام، وأعتقد أن الشيخ على غزارة علمه وفقهه ومعرفته لم يفُته ذلك.

ولكنه كان صاحب فكر وإمام مذهب استوحى من فكره ومذهبه ما صرح به حيث قال:

(إن الصحابة - رضي الله عنهم - كانوا أكمل وأقوى عقولًا وأثبت في الأحوال الإيمانية من أن تغيب عقولهم أو يحصل لهم غشي أو صعق أو سُكر أو فناء أو وَلَه أو جنون).

ويبدو أن الشيخ - رحمه الله تعالى - غاب عنه أنهم صحابة رسول الله ﷺ فهم ينعمون برؤيته وصحبته ويتلذذون بطلعته ورفقته ويستمدون من أنواره ويفيض عليهم من أسراره، فأي ولَهٍ أو جنون أو صعق أو سُكر وهم في حضرةٍ علوية ربانية سماوية؟!

ثم أقر الشيخ في نفس حديثه عن حصول هذه الأحوال في التابعين، فمنهم من مات ومن صعق.. إلى غير ذلك وعهدهم بالصحابة قريب.

ولم يكن ابن تيمية وحده الذي نالت مقالاتهم اهتمامه وإعجابه، بل كان ابن قيم الجوزية، وهو من أكابر تلاميذ الشيخ ابن تيمية - رحمه الله - من الذين أعجبتهم أيضًا تلك الفيوضات التي كانوا يتحدثون بها من فتح الله عليهم وها هو ابن قيم الجوزية يستدل بآرائهم وأقوالهم في كتابه «مدارج السالكين» في جميع فصول كتابه، ولكنني أود أن أعرض ما جاء في باب الفراسة من هذا الكتاب لأمر تكشفه تلك السطور القادمة حيث يقول ابن القيم: (وهذه الفراسة على حسب قوة الإيمان فمن كان أقوى إيمانًا كان أحدَّ فراسة).

ثم راح يستشهد بأقوال أئمة الصوفية كأبي سعيد الخراز وأبي الفتح الواسطي والإمام الداراني وأبي حفص النيسابوري وابن عاصم الأنطاكي والإمام الجنيد - رضي الله عنهم أجمعين - ولكن ما أعجبني وأدهشني أن ابن قيم الجوزية يذكر في هذا الباب بالذات أمورًا عن شيخه ابن تيمية أعدها من فراسته تلك الأمور لو صادفت اسمًا لشيخ من مشايخ الصوفية لأنكرها تلاميذ الشيخ وربما أنكرها ابن القيم نفسه.

قال ابن قيم الجوزية : (ولقد شاهدت من فراسة شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - أمورًا عجيبة. وما لم أشاهده منها أعظم وأعظم. ووقائع فراسته تستدعي سِفرًا ضخمًا).

- ابن تيمية ينبئ عن غيب:

يقول ابن قيم الجوزية:

أخبر أصحابه بدخول التتار سنة تسع وتسعين وستمائة، وأن جيوش المسلمين تكسر، وأن دمشق لا يكون بها قتل عام ولا سبي عام، وأن كَلَبَ الجيش وحدته في الأموال وهذا قبل أن يهم التتار بالحركة.

- ابن تيمية ينظر في اللوح المحفوظ ويقرر ما كُتب فيه:

يقول ابن قيم الجوزية:

ثم أخبر الناس والأمراء سنة اثنتين وسبعمائة، لما تحرك التتار وقصدوا الشام، أن الدائرة والهزيمة عليهم، وأن الظفر والنصر للمسلمين. وأقسم على ذلك أكثر من سبعين يمينًا.

فيقال له: قل إن شاء الله. فيقول: إن شاء الله تحقيقًا لا تعليقًا. وسمعته يقول ذلك.

قال: فلما أكثروا عليَّ قلت: لا تكثروا، كتب الله تعالى في اللوح المحفوظ أنهم مهزومون في هذه الكرة، وأن النصر لجيوش الإسلام. قال: فأطعمت بعض الأمراء والعسكر حلاوة النصر قبل خروجهم إلى لقاء العدو.

وكانت فراسته الجزئية في خلال هاتين الواقعتين مثل المطر.

- ابن تيمية يخبر بزوال أمر العدو قبل وقوعه:

ويقول ابن قيم الجوزية:

ولما طلب إلى الديار المصرية وأريد قتله - بعدما أنضجت له القدور، وقلبت له الأمور - اجتمع أصحابه لوداعه وقالوا: قد تواترت الكتب بأن القوم عاملون على قتلك. فقال والله لا يصلون إلى ذلك أبدًا. قالوا: أفتحبس؟ قال: نعم، ويطول حبسي، ثم أخْرُج وأتكلم بالسُّنة على رءوس الناس. سمعته يقول ذلك.

- ولما تولى عدوه الملقب بالجاشنكير الملك أخبروه بذلك. وقالوا: الآن بلغ مراده منك فسجد لله شكرًا وأطال. فقيل له: ما سبب هذه السجدة؟ فقال: هذه بداية ذله ومفارقة عزه من الآن، وقرب زوال أمره، فقيل متى هذا؟ فقال: لا تربط خيول الجند على القرط حتى تغلب دولته. فوقع الأمر مثلما أخبر به.. سمعت ذلك منه.

- ابن تيمية يدري ما تنطوي عليه سرائر أصحابه:

يقول ابن قيم الجوزية:

وقال مرة: يدخل عليَّ أصحابي وغيرهم، فأرى في وجوههم وأعينهم أمورًا لا أذكرها لهم.

فقلت له - أو غيري - لو أخبرتهم؟ فقال: أتريدون أن أكون معرفًا كمعرف الولاة؟

- ابن القيم يطلب من شيخه أن يعاملهم بالكشف عن أسرارهم ليكون ذلك أدعى لاستقامتهم.

يقول ابن القيم:

وقلت له يومًا: لو عاملتنا بذلك لكان أدعى إلى الاستقامة والصلاح. فقال: لا تصبرون معي على ذلك جمعة، أو قال شهرًا (يعني أن ابن تيمية يقرر أن أصحابه لا يحتملون تصقيله إياهم أو تمحيصه لهم).

- ابن تيمية يخبر عن أمور باطنة ووقائع تجري في المستقبل:

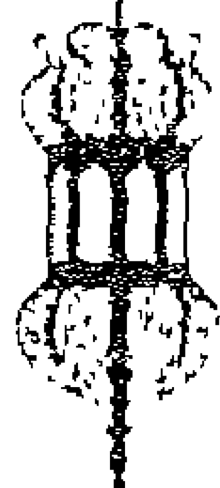
يقول ابن قيم الجوزية:

وأخبرني غير مرة بأمور باطنة تختص بي مما عزمت عليه، ولم ينطق به لساني وأخبرني ببعض حوادث كبار تجري في المستقبل. ولم يعين أوقاتها. وقد رأيت بعضها وأنا أنتظر بقيتها.

وما شاهده كبار أصحابه من ذلك أضعاف ما شاهدته. والله أعلم.

كان هذا ما جاء في باب الفراسة من كتاب «مدارج السالكين» للعلامة ابن قيم الجوزية وهو يشرح فراسة شيخه الإمام ابن تيمية، ونحن لا ننكر شيئًا مما أشار به ابن قيم الجوزية؛ ذلك لأن مثل هذه الأمور شاهدناها من أساتذتنا ومشايخنا، فنحن لا ننكر شيئًا منها.

فلماذا ينكر أتباع ابن تيمية أحوال الصالحين وكراماتهم.. فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.



الباب الرابع

التوسل وآراء المتشددين

معلوم أن الإسلام دين عقيدة وشريعة، فأما العقيدة فهي إيمان أو كفر، وأما الشريعة فهي ما يتعلق بالأحكام الشرعية من حلال وحرام ومكروه ومباح ومستحب.

أخرج البخاري عن ابن عباس «رضي الله عنهما» قال:

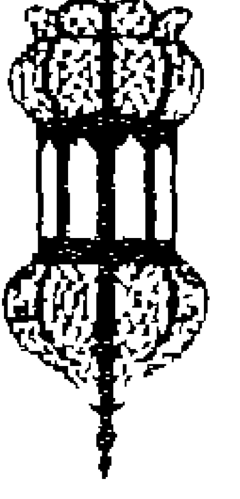
قال رسول الله ﷺ لمعاذ بن جبل رضي الله عنه حين بعثه إلى اليمن: «إنك ستأتي قومًا أهل كتاب فإذا جئتهم فادعهم أن يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله فإن هم أطاعوا لك بذلك فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم خمس صلوات كل يوم وليلة فإن هم أطاعوا لك بذلك فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم فإن هم أطاعوا لك بذلك فإياك وكرائم أموالهم واتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب»[1].

فانظر إلى قول النبي ﷺ لمعاذ: «فإذا جئتهم فادعهم أن يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله».

هذه هي العقيدة أما الشريعة في الحديث فهي فرائض الله عليهم التي يبينها لهم معاذ رضي الله عنه إن هم شهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، لكن الكثير من معارضي المذهب الصوفي راح يخلط بين العقيدة والشريعة، تراهم ينكرون التوسل حتى برسول الله ﷺ ويفرقون بين الوسيلة والشفاعة والاستغاثة ويحرمون زيارة الأولياء والصالحين وآل بيت النبي ﷺ بدعوى سد الذريعة إلى الشرك ويحرمون التبرك بآل بيت رسول الله ﷺ ويحرمون قراءة القرآن للأموات وغير ذلك.

---

(1) أخرجه البخاري.



فلنبدأ بالحديث عن التوسل وما جاء فيه من أقوالهم:

- أما عن التوسل فيقول الإمام ابن تيمية - أو نقلًا عنه - في معنى الاستنجاد بغير الله: «شرك صحيح يجب أن يستتاب صاحبه، فإن تاب وإلا قُتل، وإن قال إني أسأله لكونه أقرب إلى الله مني ليشفع لي في هذه الأمور؛ لأني أتوسل إلى الله به كما يتوسل إلى السلطان بخواصه وأعوانه، فهذا من أفعال المشركين والنصارى».

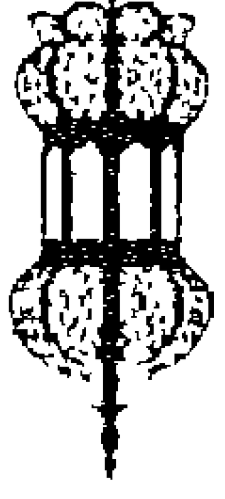
ونقول نعم، الاستنجاد بغير الله شرك إذا اعتقد المستنجِد أن المستنجَد به يملك ضررًا أو نفعًا من دون الله، ولا يطرأ على فهم عاقل أن مسلمًا يعلم أن النفع والضر بيد الله ثم تسوقه حاجته إلى الشرك بالله إلى الاستنجاد بغيره.

وأسلوب ابن تيمية لا يختلف كثيرًا عما عرضناه في الفصل السابق بشأن زيارة النبي ﷺ وما جاء في فتواه أو من يدعي نسبة القول إليه كمن يدس السم في العسل فانظر وهو يقول: «وإن قال إني أسأله لكونه أقرب إلى الله مني ليشفع لي في هذه الأمور».

ولا شك أن فضيلة الشيخ -رحمة الله عليه- يعلم قوله تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ﴾ [الإسراء: 57]

وقوله تعالى في كثير من الآيات: ﴿ قَالُواْ ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ ﴾ [البقرة: 70]، وكذلك آيات التفضيل في القرآن، ولكن كما أوضحنا أن للشيخ أسلوبًا خاصًّا في دعواه.

ويقول في كتابه «الاستغاثة» في رده على ابن السبكي: «أما قول القائل: إنما المتوسل هو سائل الله تعالى، راجٍ له، عالم أن النفع والضر بيده لا شريك له، وإنما أتوسل إليه بمن يحبه الله تعالى لشرف منزلته عنده ليكون أقرب إلى الإجابة وحصول المراد كطلب الدعاء من الرجل الصالح: فيقال: توسل العبد إلى الله بما يحب لفظ مجمل، فإن أريد بما يحب الله تعالى أن يتوسل به إليه فهذا حق، والله تعالى يحب أن يُتوسل إليه بالإيمان والعمل الصالح والصلاة والسلام على نبيه ﷺ ومحبته وطاعته وموالاته، فهذه الأمور ونحوها من الأمور التي يحب الله تعالى أن يتوسل بها إليه».



وكلام الشيخ – رحمه الله – في رده على ابن السبكي يناقض ما جاء في حديثه السابق فهو يقول: «إنما أتوسل إليه بمن يحبه الله تعالى لشرف منزلته عنده ليكون أقرب إلى الإجابة» إلى أن قال: «فهذا حق»، وكأنه ينفي ما جاء في قوله في معنى الاستنجاد، فالعبارة السابقة لا تختلف في المعنى عن سابقتها في قوله: «وإن قال إني أسأله لكونه أقرب إلى الله مني ليشفع لي في هذه الأمور».

ويقول في الكتاب نفسه: «ومن هذا الباب حديث الأعمى فإنه أتى النبي ﷺ فقال: ادع الله تعالى أن يعافيني، فقال له ﷺ: إن شئت دعوت وإن شئت صبرت فهو خير لك. قال: ادع الله تعالى. فأمره أن يتوضأ فيحسن وضوءه ويدعو بهذا الدعاء: (اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد نبي الرحمة.. يا محمد، إني أتوجه بك إلى ربي في حاجتي هذه لتُقضى، اللهم فشفعه فيَّ» أخرجه الإمام أحمد في مسنده، ورواه الترمذي والطبراني وابن ماجه والحاكم؛ فهذا أمره أن يطلب من الله تعالى أن يُشفَّع فيه النبي ﷺ وإنما يكون طلبًا لتشفيعه فيه إذا تشفع فيه، فدعا الله تعالى له، وكذلك في أول الحديث أنه طلب من النبي ﷺ أن يدعو له فدل الحديث على أن النبي ﷺ شفع له ودعا له، وأن النبي ﷺ أمره هو أن يدعو الله سبحانه وأن يسأله قبول شفاعة النبي ﷺ فيه، فهذا نظير توسلهم به ﷺ في الاستسقاء حيث طلبوا منه أن يدعو الله عز وجل لهم وهم دعوا الله أيضًا. وقوله: «يا محمد، إني أتوجه بك إلى ربي في حاجتي هذه لتُقضى». خطاب لحاضر في قلبه، كما نقول في صلاتنا: السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته. وكما يستحضر الإنسان من يحبه أو يبغضه في قلبه ويخاطبه، وهذا كثير، فهذا كله يبين معنى التوسل به والتوجه به وبالعباس وغيرهما في كلامهم هو التوسل والتوجه بالدعاء، وهذا مشروع بالاتفاق لا ريب فيه).

ولعل القارئ لكلام الشيخ ابن تيمية سيجد أنه يقول: «فدل الحديث على أن النبي ﷺ شفع له ودعا له» وهذا أمر لم يحدث أن دعا النبي ﷺ، ولم يرد في الحديث أن النبي ﷺ دعا للأعمى، بل أمره أن يدعو بالدعاء الذي أمره به في الحديث، وكأن ابن تيمية يريد أن ينفي التوسل بذاته ﷺ مطلقًا.

وليس ابن تيمية وحده هو الذي نهج هذا النهج في فهمه للتوسل أو الاستشفاع، بل حذا حذوه كثير من أتباعه ولم يخرجوا عن ذات الأسلوب وذات النهج.

فهذا الشيخ المحدث الألباني لم يزد كثيرًا عما قاله شيخه ابن تيمية على الرغم من أنهم لا ينكرون مجيء المتوسل إلى النبي ﷺ ولا ينكرون إقرار النبي رضاءه لمجيء المتوسل إليه ولم يعترض عليه، والنبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وهو أحرص من غيره على أمته.

فلو كان الأمر كما يفهم هؤلاء وغيرهم فيه شرك لما أمره النبي أن يدعو ويذكر في دعائه «يا محمد»، ولو كان الأمر مقصورًا على الدعاء لكان الدعاء مقصورًا على قوله: «اللهم اشفني اللهم عافني»، وليست هناك حاجة إلى ذكر اسمه ﷺ في الدعاء، ولو كان التوسل بدعاء النبي ﷺ للأعمى لكان على الأعمى أن يقول: «اللهم بدعاء النبي لي اشفني أو عافني»، ولم يرد في الحديث أن النبي توجه أو دعا له ولكنه أمره بالدعاء، والأعمى يعلم أنه يتوسل بالنبي ذاتًا وصفاتٍ وأفعالًا فيقول:

«يا محمد، إني أتوجه بك إلى ربي» (أخرجه أحمد في مسنده)، فقوله: «بك» تعني كلية محمدًا ذاتًا وصفاتٍ وأفعالًا، فلم يقل أتوجه بدعائك كما يقول ابن تيمية وغيره، ولم يكن تَوَجُّه الأعمى إلى النبي ﷺ بطلب الشفاء لنفسه إشراكًا بالله، ولم يكن توجيه النبي للأعمى بالدعاء بذكره ﷺ في دعائه حثًّا له على الإشراك، والآيات في القرآن دالة على ذلك.

قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: 64]

أما عن قول الشيخ: (فإن قال أسأله لأنه أقرب إلى الله مني ليشفع لي) فهو مردود على الشيخ ابن تيمية؛ لأن هذا ما فعله الأعمى.

فالتوسل يعني التقرب إلى المطلوب وهو من الألفاظ العربية الأصيلة، والوسيلة هي القربى والواسطة، أو هي الرغبة والطلب.. وقال الأصفهاني في المفردات: (الوسيلة هي التوصل إلى الشيء برغبة).

وهناك معنًى آخر للوسيلة بمعنى الدرجة والقربى.

ويقول الشيخ محمد ناصر الدين الألباني في بحوث كتبها حول موضوع الوسيلة ذكر منها أنواع التوسل المشروع، فقال في التوسل إلى الله تعالى:

(باسم من أسمائه قال مثله قول القائل: اللهم إني أسألك بحبك لمحمد ﷺ وقال إن الحب من صفاته تعالى).

وقال أيضًا في التوسل إلى الله تعالى بعمل صالح قام به الداعي يقول: «اللهم إني أسألك بحبي لمحمد ﷺ وإيماني به أن تفرِّج عني».

وقال في التوسل إلى الله تعالى بدعاء الرجل الصالح، كأن يقع المسلم في ضيق شديد فيذهب إلى رجل يعتقد فيه الصلاح والتقوى والفضل والعلم بالكتاب والسنة، فيطلب منه أن يدعو له ربه ليفرج عنه كربه ويزيل عنه همه، قال: هذا نوع آخر من التوسل.

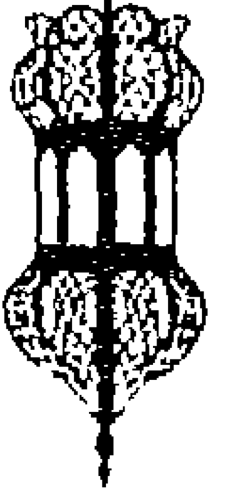
لكن الشيخ الألباني نهج على نهج شيخه ابن تيمية؛ فهو يحاول أن ينأى بالقارئ عن عقيدة التوسل بذات شخص بعينه حتى لو كان هذا الشخص هو النبي ﷺ.

وإنني أرى أن الحوار اللغوي في معنى الحديث مهما تعددت هذه المحاور فلن يخرج عن المعنى المراد منه الحديث؛ وهو أن الضرير دعا ربه برسول الله وبتوجيه رسول الله ﷺ.

أما مسألة هل هو دعا بذاته، أو دعا بجاهه، أو دعا بتوجيهه، أو دعا بإذنه.. فلن تخرج القصة في جملتها عن أن وسيلته في الدعاء كان رسول الله ﷺ فلماذا الإنكار؟!!

وإنني ليؤسفني - وإن كنت لا أرقى أن أكون تلميذًا لهؤلاء الأفاضل من العلماء - أن يقول الشيخ المحدث الألباني في كتابه الوسيلة أو الناقل عنه متطاولًا حتى لو كان في المعنى اللغوي فيما قال:

«كما أنه لو كان السر في شفاء الأعمى أنه توسل بجاه النبي ﷺ وقدره وحقه كما يفهم عامة المتأخرين لكان من المفترض أن يحصل هذا الشفاء لغيره من العميان



الذين يتوسلون بجاهه ﷺ، بل يضمون إليه أحيانًا جاه جميع الأنبياء والمرسلين وكل الأولياء والشهداء والصالحين، وجاه كل من له جاه عند الله من الملائكة والإنس والجن أجمعين، ولم نعلم ولا نظن أحدًا قد علم حصول مثل هذا خلال هذه القرون الطويلة بعد وفاته ﷺ إلى اليوم».

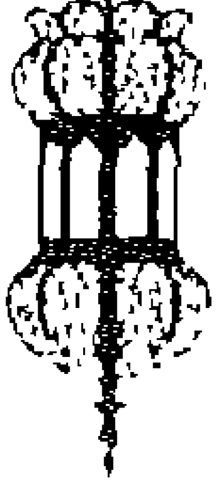
كان هذا كلام الشيخ الألباني لكنني أقول لفضيلة الشيخ نعم والله الذي لا إله غيره إن السر في شفاء الأعمى توسله بجاه النبي ﷺ وقدره وحقه.

وكان من الممكن أن يحصل ذلك لكل أعمى لو شابه قلب كل أعمى قلب الأعمى الذي دعا بجاه النبي وقدره وحقه.

وكان من الممكن أيضًا أن يحدث هذا لو طلب النبي ﷺ من ربه أو دعا بشفائهم جميعًا، وكان من الممكن أيضًا أن يحدث هذا لو اجتمع العميان في زمانه ﷺ (كما يريد فضيلة الشيخ) وطلبوا منه شفاءهم كما طلب هذا الأعمى، ومن الممكن أيضًا لو كانت كل قلوب العميان وعقيدتهم كعقيدة الأعمى الذي توسل بالنبي في كل زمن لأجاب الله دعاءهم جميعًا ببركة توسلهم بالنبي ﷺ، ولعل هذا يكون قد حدث ولم تصل أخباره إلى الشيخ في دنياه وكان يجب على الشيخ ألا يزيد في تطاوله بالعبارة التي يقول فيها كأنه مستهينٌ بجاه جميع الأنبياء والمرسلين وكل الأولياء والشهداء والصالحين فيقول: «بل يضمون إليه؛ أي يضمون إلى جاه النبي جاه جميع الأنبياء والمرسلين وكل الأولياء والشهداء والصالحين»، وليته اكتفى بذلك بل أضاف: «وكل من له جاه عند الله من الملائكة والإنس والجن أجمعين».

هل يا ترى، لم يجد الشيخ في أساليب اللغة العربية ما كان يجب التعبير به بعيدًا عن هذا الأسلوب الذي لا نرضاه لأساتذتنا وعلمائنا؟!

فالنبي ﷺ لا يستحق منكم وأنتم السادة والعلماء أن تتحدثوا عن منزلته بهذا الأسلوب، ولست أدري أهو إنكار لقدرة الله على شفاء العميان إذا دعوا بجاه النبي وقدره وحقه وأضافوا في دعائهم جاه المرسلين والأولياء والصالحين وكل من له جاه عند الله كما قال الشيخ، أم هو استهانة بجاه هؤلاء عند الله؟



وفضيلة الشيخ هو الذي ذكر في كتابه قوله: «فهذه الأحاديث وأمثالها مما وقع في زمن النبي ﷺ وزمن أصحابه الكرام رضوان الله عليهم تبين بها لا يقبل الجدل أو المماراة أن التوسل بالنبي أو بالصالحين الذي كان عليه السلف الصالح ومجيء المتوسل إلى المتوسل به وعرضه حاله وطلبه منه أن يدعو الله سبحانه أن يحقق طلبه فيستجيب هذا له ويستجيب من ثم الله سبحانه وتعالى».

هذا كلام الشيخ فلماذا أنكره بعد ذلك بكلامه السابق ذكره؟

لقد أجاز الشيخ الألباني في كتابه «التوسل» توسل المسلم بأن يقول: «أسألك بحبي لمحمد ﷺ، أو بحبك لمحمد ﷺ».

فإذا كان الشيخ قد أجاز ذلك فما المانع بأن نقول بحبك لآل بيت النبي أو بحبي لآل بيت النبي، وما المانع إذن أن نقول بحبك لأوليائك الصالحين أو بحبي لأوليائك الصالحين، أوليس حب آل بيته ﷺ من حبه ﷺ؟

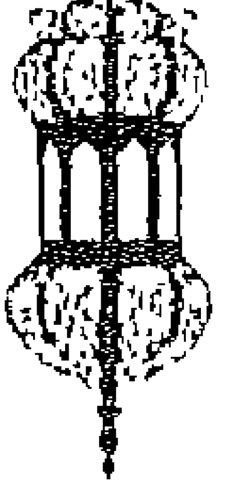
أوليس حب أولياء الله من حبه سبحانه وتعالى وحب نبيه ﷺ؟

فلا داعي إذنْ لهذا الجدل وتصيد المعاني الظاهرة في الأحاديث أو تضعيفها ليبني عليها إبعاد فكر المسلمين عن التوسل بالنبي والأولياء وآل البيت سدًّا للذريعة إلى الشرك، فكل مسلم يعلم أنه يدعو الله وأن النافع والضار هو الله.

ويفسر لنا الشيخ الألباني قول عمر رضي الله عنه (كنا نتوسل بنبينا) يقول الشيخ: أي بدعاء نبينا، ويفسر استسقوا به يقول أي بدعائه أيضًا.

هذا في حديث الاستسقاء عندما قال عمر رضي الله عنه: «اللهم إنا كنا إذا قحطنا توسلنا بنبينا محمد ﷺ فتسقينا»[1]. وأمير المؤمنين خليفة رسول الله لو أراد أن يبين أن التوسل كان بدعاء النبي وليس بذاته وجاهه لكان وهو أحرص من غيره لإبعاد الشك عن المسلمين لقال ذلك؛ أي لقال كنا نتوسل إليك بدعاء نبينا، لكن عندما يقول كنا نتوسل إليك بنبينا تعني أن التوسل بالنبي ذاتًا وصفاتٍ وأقوالًا وأفعالًا وكل ما

(1) رواه البخاري.



تحمله كلمة النبي من معنى، فلا يلزم أن يكتب الشيخ الألباني أو غيره كتابًا يدور محوره حول كلمة ذات أو جاه أو حق أو دعاء بدعوى أننا نخرج المسلم من دائرة إدخاله في شك أو شرك.

والأمر الذي يثير العجب أن الشيخ في كتابه «التوسل» يقر بصحة الأحاديث التي أوردها في كتابه، ثم تراه بعد ذلك يضعفها أو يجعلها من جملة الموضوع ولم يكفه ذلك، بل راح ينقل آراء غيره في تجريح الرواة، فتراه تارة يقول: هذا صدوق له أوهام، وهذا ليس بحجة، وذاك رمي بالاختلاط، ويتهم البعض بالتدليس والبعض بالجهل، وإنني وإن كنت أقدر للشيخ جهده وبحثه لكنني عاتب عليه عما جاء بكتابه من هجوم صريح جدًّا به هذا التعصب أن ينكر أن رسول الله ﷺ هو أفضل الخلائق على الإطلاق، وحتى نكون منصفين فلننقل للقارئ نص حديثه ولا زيادة.

يقول بعد أن فرغ من حديثه على ما أسماه الشبهات وعدها سبعًا قال: «ولنا على هذا الكلام مؤاخذات كثيرة نورد أهمها فيما يلي ذكر منها قاصدًا ما جاء في كتاب الدكتور البوطي قال: وأما الباطل الذي تضمنه كلامه - وفيه الخلاف العريض - وذكر أشياء قال منها: (ادعاؤه أن محمدًا أفضل الخلائق على الإطلاق) فهل يصح لعالم جليل مثل هذا الرجل المحدث أن يسمي: ادعاء الدكتور البوطي أن محمدًا ﷺ أفضل الخلائق على الإطلاق - باطلًا تضمنه كلامه وفيه خلاف عريض ؟».

ثم عاد يقول: (وأمر ثالث وأخير وهو أن الدكتور البوطي قد ادعى أن النبي ﷺ أفضل الخلائق عند الله على الإطلاق، وهذه عقيدة وهي لا تثبت عنده إلا بنص قطعي الثبوت قطعي الدلالة، أي بآية قطعية الدلالة أو حديث متواتر قطعي الدلالة، فأين هذا النص الذي يثبت كونه ﷺ أفضل الخلائق عند الله على الإطلاق ؟) كان هذا كلام الشيخ الألباني في كتابه «التوسل».

وواضح أن الشيخ الألباني ينكر كونه ﷺ أفضل الخلائق عند الله على الإطلاق ويريد من الدكتور البوطي أن يأتي له بما يدل على ذلك.

ولكن ترى من يريد الشيخ الألباني أن يكون أفضل الخلائق عند الله على الإطلاق إن لم يكن النبي محمد ﷺ؟

هل وجد في الدنيا أفضل منه ﷺ ؟ لا والله.

هل وجد في السنة من سيكون أفضل منه في الآخرة ؟ لا والله.

والحقيقة أنني لا أصدق أن يكون فى اعتقاد الشيخ الألباني من هو أفضل من النبي ﷺ في الدنيا والآخرة، والشيخ عالم محدِّث محقِّق أحاديث.

جاء في صحيح مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال:

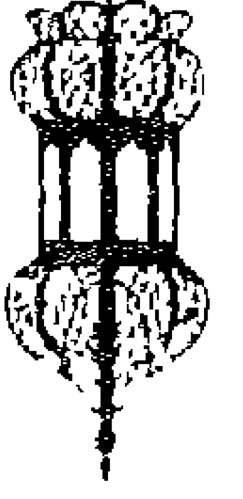
«أنا سيد ولد آدم يوم القيامة وأول من ينشق عنه القبر وأول شافع وأول مشفع» صدق رسول الله ﷺ. وإن لم يكن في كتب السيرة جميعها غير هذا الحديث لكفى الاستدلال به على أنه أفضل الخلائق على الإطلاق.

جاء في شرح النووي قال الهروي: «السيد هو الذي يفوق قومه في الخير».

وقال غيره هو الذي يفزع إليه الناس في النوائب والشدائد فيقوم بأمرهم ويتحمل عنهم مكارههم ويدفعها عنهم.

أما قوله ﷺ يوم القيامة مع أنه سيدهم في الدنيا والآخرة فسبب التقيد أن في يوم القيامة سؤدده لكل أحد ولا يبقى منازع ولا معاند ونحوه بخلاف الدنيا، فقد نازعه ذلك فيها ملوك الكفار وزعماء المشركين. وأضاف قوله: (قال العلماء) وقوله: (أنا سيد ولد آدم)[1] لم يقله فخرًا، بل صرح بنفي الفخر في حديث في غير مسلم في الحديث المشهور: (أنا سيد ولد آدم ولا فخر) إنما قاله لوجهين أحدهما امتثال قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾﴾ [الضحى: 11]، والثاني أنه من البيان الذي يجب تبليغه إلى أمته ليعرفوه ويعتقدوه ويعملوا بمقتضاه، ويوقروه ﷺ بما تقتضي مرتبته كما أمرهم الله تعالى.

(1) رواه مسلم.



وهذا الحديث دليل لتفضيله ﷺ على الخلق كلهم؛ لأن مذهب أهل السنة أن الآدميين أفضل من الملائكة وهو ﷺ أفضل الآدميين وغيرهم، والأمر الآخر أن النبي ﷺ له الشفاعة العظمى أي أنه يشفع في جميع الخلائق يوم القيامة كما جاء في الصحاح.

أليس يا فضيلة الشيخ من يشفع في جميع الخلائق وجب أن يكون هو أفضلهم؟

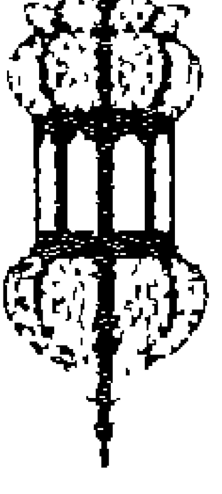
معذرة يا سيدي يا رسول الله فلا يعرف قدرك غير ربك ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: 4] فسماحة خلقك جعلت مثل هؤلاء يحومون على بشريتك فيتكلمون بها تتسع عقولهم في فهم بشريات الآخرين فلَيْتهم علموا أن الله تعالى أقسم بكثير من مخلوقاته لكنه لم يقسم ببشر غيرك، قال تعالى: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الحجر: 72] وليتهم يقفون وقفة عند قول الله تعالى: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾﴾ [النجم: 8 - 10] قبلها يقول لك الأمين جبريل تقدم يا محمد فإنك إذا تقدمت اخترقت وأنا إذا تقدمت احترقت ﴿وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾ [الصافات: 164] جاء بها القرآن الكريم ليعلم مثل هؤلاء مقامك وليتهم علموا، هؤلاء جهلوا قدرك ومقامك ويتكلمون بأحاديثك ولسانك.

إن قلمي سيقف عند هذا المعنى وأقول لهم قول البوصيري:-

إنما مثلوا صفاتك للنا   س كما مثل النجوم الماء

ثم نعود للحديث فيما بدأناه عن التوسل وقد ناقض المعارضون حججهم بأنفسهم وقد أجمع العلماء والأئمة المجتهدون والسلف الصالح على جواز التوسل بالنبي ﷺ وآل بيته وأولياء الله الصالحين، وخالفهم ابن تيمية وأتباعه في جواز التوسل به بعد انتقاله إلى الرفيق الأعلى، وعليه فهم لا يجيزون التوسل بالأولياء والصالحين بعد انتقالهم إلى الحياة الآخرة.

لكننا نريد أن نقول لهم: هل معنى انتقالهم إلى الحياة الأخرى ينفي كرامتهم على الله؟ أو هل انتقالهم إلى الحياة الأخرى يعني فناء الروح كفناء الجسد في حياتهم الدنيا؟ فإن قالوا: إن الروح باقية لا تفنى. وجب عليهم التسليم بجواز التوسل بعد الانتقال إلى الحياة الأخرى؛ لأن الروح في الحياة الأخرى ليست مقيدة، بل هي طليقة تتحرك



وتسمع وترى وتحس وتدرك ما يجري بالدنيا، والقرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة والآثار دالة على ذلك بإجماع العلماء والأئمة.

فليس الموت فناء الجسد والروح لكن الموت هو الانتقال من حياة فانية إلى حياة أخرى باقية، فإن فني الجسد بالموت فالروح باقية في جسد أبدي.

ولقد ورد عن رسول الله ﷺ (أنه كان يزور أهل البقيع ويكلمهم أو يخاطبهم فيقولون: يا رسول الله، أتخاطبهم وقد أرموا؟ فيقول: والله ما أنتم بأسمع لي منهم).

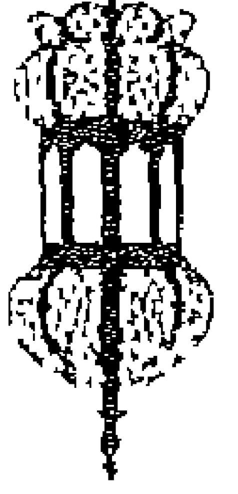
فسؤال الصحابة لرسول الله ﷺ مبني على ظنهم أن الكلام للهيكل الجسدي الذي أصبح فاقدًا الحس والحركة، فأرشدهم وبين لهم أن الموجه إليهم الخطاب أرواحهم حافة بين قبورهم فهي تخاطب وتسمع.

وفي صحيح مسلم أنه ﷺ قال: «إن الميت ليسمع قرع نعالهم إذا انصرفوا» فتعلق الأرواح بالأبدان تعلق دائم.

وورد أيضًا عن الإمام علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كما جاء في نهج البلاغة باب المختار من حكم أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وكذلك كتاب ميزان الحكمة لمحمد الريشهري جزء 4 صفحة 2969 أنه لما رجع رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من صِفِّين وأشرف على القبور قال: «يا أهل الديار الموحشة، أما الدور فقد سكنت وأما الأزواج فقد نكحت وأما الأموال فقد قُسِّمت، هذا خبر ما عندنا فما خبر ما عندكم؟ ثم التفت إلى أصحابه وقال: أما لو أذن لهم في الكلام لأخبروكم أن خير الزاد التقوى».

والله تعالى يقول في كتابه العزيز: ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت:64]

وكلمة الحيوان في الآية الكريمة يقول عنها صاحب تفسير الجلالين أي هي الحياة الخالدة الدائمة وقال مثله ابن كثير، أما صاحب الكشاف العلامة الزمخشري فقد قال في تفسيره ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: 64]: أي ليس فيها إلا حياة مستمرة دائمة خالدة لا موت فيها فكأنها في ذاتها حياة،

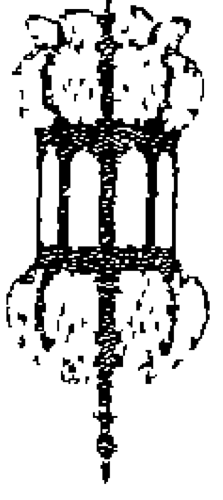


والحيوان مصدر حيي وقياسه حييان، فقلبت الياء الثانية واوًا كما قالوا حيواه في اسم رجل، وبه سمي ما فيه حياة حيوانًا، ولذا قالوا: اشْتَرِي من الموتان ولا تشْترِي من الحيوان، وفي بناء الحيوان زيادة معنى إلى أن قال: إن المعنى هنا مبالغة في معنى الحياة؛ ولذلك اختيرت على الحياة في هذا الموضع للمبالغة، فالقول بأن التوسل بالأنبياء والصالحين المنتقلين إلى الحياة الآخرة لم يفعله أحد من السلف قول غير صحيح؛ لأنه جاز أن يكون قد حدث ولم ينقل إلينا إلا الشيء اليسير منه لحديث بلال والعتبي وغيرهما.على أن المتفكر في حديث العباس سيجد أن المتوسل به هو النبي ﷺ فعمر رضي الله عنه يقول: (فإنا نتوسل إليك بعم نبينا) - من حديث البخاري - والعباس يقول: (إن القوم توسلوا بي لقرابتي من رسول الله ﷺ) من حديث البخاري.

فالمقصود هو توسل بالعباس لقرابته من النبي ﷺ فأصبح الأصل في توسلهم بالعباس هو النبي ﷺ.

فالاستسقاء عبادة خاصة تقتضي وجود المستسقى به ليدعو ويؤمن الناس على دعائه فوجب أن يكون المستسقى به حيًّا؛ ولذا صار الأمر إلى يومنا هذا أن يختار الناس أحد الصلحاء المشهود لهم بالتقوى والورع ليدعو ويؤمن الناس على دعائه، وفعل ذلك معاوية رضي الله عنه عندما دعا يزيد بن الأسود ليستسقي الناس به فقال: اللهم إنا نستسقي بخيرنا وأفضلنا اللهم إنا نستسقي بيزيد بن الأسود.. يا يزيد، ارفع يديك إلى السماء. فرفع يزيد يديه إلى السماء ورفع الناس أيديهم فنشأت سحابة من القرب كأنها ترس وهب لها ريح فسقوا حتى كاد الناس لا يبلغون منازلهم.

فتوسُّل معاوية بيزيد بن الأسود كان لصلاحه وتقواه، فهل تنتهي كرامة الله له عند موته؟ ولم يكن بلال بن الحارث وهو صحابي من أجلاء الصحابة حين أتى قبر النبي ﷺ وقال: «يا رسول الله، استسق لأمتك فإنهم قد هلكوا» غير عالم بما يفعل، وليست العبرة هنا بما اعترض عليه المتشددون من أن النبي ﷺ جاء إلى بلال بن الحارث في منامه وقال له: اذهب إلى عمر وأخبره أنهم يسقون - أخرجه التقي السبكي في شفا السقام - لكن العبرة بمجيء بلال رضي الله عنه وهو صحابي جليل إلى قبر النبي ﷺ، فهو يجيز التوسل



برسول الله ﷺ حال وفاته، ولست في حاجة إلى إثبات ذلك؛ فحياته ﷺ كمماته خير فيهما وهو القائل: «**حياتي خير لكم ومماتي خير لكم**» رواه الديلمي عن أنس، وعزاه في الجامع الصغير للحارث عن أنس - فقدره ومنزلته عند الله يجب على هؤلاء ألا يجعلوها كحياتهم ومماتهم، فجاهه عند الله عظيم، يتوسل به في حياته وفي مماته، والنبي ﷺ أعلى قدرًا ومنزلة من الشهداء وغيرهم .. قال تعالى: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ [آل عمران: 169] فإذا كان هؤلاء أحياء في قبورهم بنص القرآن الكريم فما شأنكم برسول الله ﷺ؟ والحديث في الصحاح يقول ﷺ: «ما من مسلم يسلم عليَّ إلا رد الله إليَّ روحي فأرد عليه السلام» صدق رسول الله ﷺ، رواه البخاري ومسلم.. وحياته ﷺ أبدية مدركة تسمع وتبصر وتتحرك.

وهو القائل: «تعرض عليَّ أعمالكم فإن خيرًا حمدت الله وإن رأيت غير ذلك استغفرت الله لكم» رواه الديلمي عن أنس رضي الله عنه.

ولقد ذكر الألوسي في تفسير قوله تعالى: ﴿وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ﴾ [البقرة: 89] إنها نزلت في بني قريظة والنضير، كانوا يستفتحون على الأوس والخزرج برسول الله ﷺ قبل مبعثه كما قال ابن عباس وقتادة إنهم كانوا يطلبون من الله أن ينصرهم بتوسلهم به ﷺ وكانوا إذا اشتد الحرب بينهم أخرجوا التوراة ووضعوا أيديهم على موضع ذكر النبي ﷺ «وقالوا: اللهم بحق نبيك الذي وعدتنا أن تبعثه في آخر الزمان أن تنصرنا اليوم على عدونا فينصرون» وكان بنو قريظة والنضير من أهل الكتاب، والأوس والخزرج من المشركين في ذلك الوقت قبل بعثه ﷺ.

وفي تفسير الكشاف للعلامة الزمخشري في قوله تعالى: ﴿يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ﴾ [البقرة: 89] أي يستنصرون على المشركين إذا قاتلوهم قالوا: اللهم انصرنا بالنبي المبعوث في آخر الزمان الذي نجد نعته وصفته في التوراة. ويقولون لأعدائهم من المشركين (الأوس والخزرج): قد أطل علينا زمان بنبي يخرج بتصديق ما قلنا فنقاتلكم معه قتل عاد وإرم. وفي تفسير ابن كثير في قوله تعالى: ﴿يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى



﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [البقرة: 89] أي وقد كانوا من قبل مجيء هذا الرسول بهذا الكتاب يستنصرون بمجيئه على أعدائهم من المشركين إذا قاتلوهم.

ولقد ورد في أحاديث كثيرة توسل آدم عليه السلام برسول الله ﷺ عند معصيته في الجنة.

روى أبو نعيم في دلائل النبوة عن عمر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

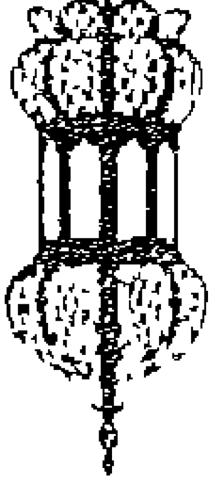
«لما أصاب آدم الخطيئة رفع رأسه فقال: يا رب، بحق محمد إلا غفرت لي فأوحى إليه وما محمد؟ ومن محمد؟ فقال: يارب، لما أتممت خلقي رفعت رأسي إلى عرشك فإذا عليه، فعلمت أنه أكرم خلقك عليك إذ قرنت اسمه مع اسمك. فقال: نعم قد غفرت لك وهو آخر الأنبياء من ذريتك ولولاه ما خلقتك».

جاء أيضًا في كتاب «الشفاء» للقاضي عياض نقلًا عن أبي محمد المكي وأبي الليث السمرقندي وغيرهما، أحاديث كثيرة تؤيد ما جاء بالحديث السابق.. فآدم عليه السلام توسل به ﷺ في الجنة، قال: «اللهم بحق محمد اغفر لي واقبل توبتي، فقال الله تعالى: ومن أين عرفت محمدًا؟ قال: رأيت في كل موضع في الجنة مكتوبًا لا إله إلا الله محمد رسول الله فعلمت أنه أكرم خلقك عليك، تاب الله عليه وغفر له» وأحاديث كثيرة تؤيد ما جاء بالحديث السابق فآدم عليه السلام توسل به ﷺ في عالم الذر فأجيب توسله به، وبنو قريظة والنضير توسلوا به قبل ظهور بعثته فأجابهم الله ونصرهم على عدوهم.

فإذا كان التوسل به ثابتًا قبل ظهوره، وإجابة دعاء المتوسلين به ثابتًا قبل ظهوره، فالتوسل والإجابة به بعد ظهوره أولى وأجدر، سواء كان ذلك في حياته ﷺ أو بعد مماته.

وذكر الإمام النووي في المجموع قوله:

ومن أحسن ما حكاه الماوردي والقاضي وأبو الطيب وسائر أصحابنا عن العتبي، والعتبي من الصالحين والأتقياء شيخ للإمام الشافعي عالم من العلماء الأئمة يقول: «كنت جالسًا عند قبر رسول الله ﷺ فجاء أعرابي فقال: السلام عليك يا رسول الله، سمعت الله تعالى يقول - وفي رواية أخرى -: يا خير الرسل، إن الله أنزل عليك كتابًا صادقًا يقول فيه ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: 64]. وقد جئتك مستغفرًا من ذنبي بك إلى ربي ثم بكى وأنشد يقول:



يا خير من دفنت بالقاع أعظمه *** فطاب من طيبهن القاع والأكم
نفسي الفداء لقبر أنت ساكنه *** فيه العفاف وفيه الجود والكرم

قال العتبي: ثم استغفر الأعرابي وانصرف، فغلبتني عيناي فنمت فرأيت النبي ﷺ في المنام يقول لي: يا عتبي، الْحَقِ الأعرابيَّ فبشره أن الله غفر له، فخرجت خلفه فلم أجده.

والواقعة مروية من طريق آخر عن سفيان بن عيينة وسفيان من رواة الحديث من صلحاء الأمة الأوائل - رضي الله عنهم أجمعين -.

فيجب على العلماء المتشددين ألاَّ يدحضوا ما رواه وليكن احتجاجهم على أنه رؤيا منامية، والاحتجاج باطل أيضًا لحديث النبي ﷺ: «من رآني فقد رآني فإن الشيطان لا يتمثل بي» (متفق عليه من حديث أبي هريرة).

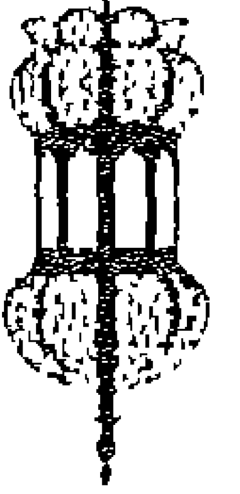
وأخرج البخاري ومسلم وأبو داود عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «من رآني فقد رآني فإن الشيطان لا يتمثل بي».

والأئمة المالكية والشافعية والحنفية والحنابلة أجمعوا على جواز التوسل به ﷺ حيًّا وميّتًا وأجازوا التوسل بالأنبياء والأولياء والصالحين وكذلك المجتهدون من علمائهم العاملين.

وأجاز ذلك أيضًا كثير من المحدثين والحفاظ كأبي زرعة الرازي والبيهقي وابن عساكر والطبراني وابن حبان وابن حجر العسقلاني والخطيب البغدادي وابن الجوزي والنووي وغيرهم كثير.

وقد جاء في كتاب (الشفاء) للقاضي عياض أن أبا جعفر المنصور أمير المؤمنين دخل مسجد النبي ﷺ فرفع صوته وكان الإمام مالك بن أنس رضي الله عنه موجودًا بالمسجد فقال له: لا ترفع صوتك في هذا المسجد، فإن الله قد أدب قومًا فقال: ﴿لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾ [الحجرات: 2].

ومدح قومًا فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [الحجرات: 3].



وذم أقوامًا فقال: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ [الحجرات: 4] وحرمته ميتًا كحرمته حيًّا؛ فاستكان أبو جعفر وقال: يا أبا عبد الله، أستقبل القبلة وأدعو الله أم أستقبل رسول الله ﷺ وأدعو الله؟ فقال الإمام: لِمَ تصرف وجهك عنه وهو وسيلتك ووسيلة أبيك آدم إلى الله يوم القيامة؟ بل استقبله واستشفع به إلى الله فيشفعه الله تعالى فيك، ثم تلا قول الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴾ [النساء: 64].

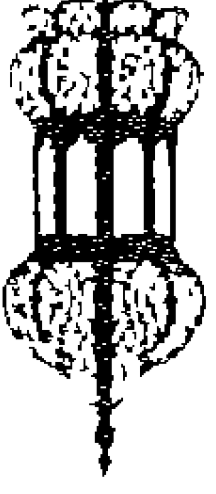
وكان الشافعي رضي الله عنه يزور قبر أبي حنيفة ويستشفع به ويدعو عنده، ويقول الدعاء عند قبر أبي حنيفة يستجاب.

وكان الإمام أحمد بن حنبل يزور قبر معروف الكرخي ويقول: قبر معروف يجاب عنده الدعاء، وقال صاحب الإمام أحمد بن حنبل: قبر معروف الكرخي ترياق مجرب.

وإبراهيم الحربي من كبار الأئمة وهو الذي قام على تربية عبد الله بن أحمد بن حنبل لتوصية أبيه الإمام أحمد - رضي الله عنهم أجمعين -.

ويقول الحسن بن إبراهيم الخلال: «ما همني أمر فقصدت قبر موسى بن جعفر فتوسلته إلاَّ سهل الله لي ما أحب» - ذكره ابن الجوزي في المنتظم.

وأمثال ذلك كثير فولاية العبد وكرامته عند الله لا تنقطع بموته ورحيله عن الدنيا.



الباب الخامس

آراء المتشددين في شد الرحال

والمسألة الأخرى في شد الرحال التي قال فيها ابن تيمية:

إن السفر إلى أضرحة الأولياء غير مشروع بل فيه معصية اتباعًا لما جاء في حديث رسول الله ﷺ القائل:

«**لا تشد الرحال إلا لثلاثة مساجد: المسجد الحرام والمسجد الأقصى ومسجدي هذا**» (يعنى المسجد النبوي الشريف)[1].

وقوله عليه الصلاة والسلام: «**لا تتخذوا قبري عيدًا وصلوا عليَّ أينما كنتم فإن صلاتكم تبلغني**»[2].

هذا ما استدل به ابن تيمية في عدم مشروعية شد الرحال، لكن القول بأن فيه معصية فهذه مغالاة في فتوى الشيخ - رحمه الله - والاستدلال بالحديثين يبطل فتوى الشيخ - رحمة الله عليه - في عدم المشروعية؛ لأنه لو كان الأمر بالنهي عن شد الرحال مطلقًا - كما أشار الشيخ - لما وجب على طالب علم أن يشد رحاله لتلقي العلم في وطن غير وطنه أو بلاد غير بلاده، وطلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة؛ أي أنه من الأمور الشرعية التي يجب على المسلم السعي إلى طلبها.

وقد كان الإمام البخاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يشد رحاله ويسافر أقاصي البلاد، ويمكث في سفره أشهرًا ليجد حديث رسول الله ﷺ عند قاصده، وكتب السيرة والتاريخ تكشف لنا عن

(1) رواه البخاري ومسلم.

(2) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف وعنه أبو يعلى الموصلي في مسنده.



جهاد كثير من العلماء في تنقلهم بين أقطار البلاد لتلقي العلم، فتارة من مصر إلى العراق وتارة من العراق إلى بلاد الشام، وتارة من مصر إلى بلاد الأندلس، إلى غير ذلك.

ولما وجب أيضًا شد الرحال إلى نشر الدعوة إلى دين الله في غير بلاد الداعي، وهذه أيضًا من الأمور الشرعية، ولما وجب شد الرحال للجهاد في سبيل الله أيما كانت نوعية هذا الجهاد، وبناء على ما تقدم فالنهي في الحديث الشريف لا يعني النهي مطلقًا عن شد الرحال ولم يُشِر الحديث بتلميح أو تصريح عن النهي عن الزيارة للأضرحة أو القبور.

فاستدلال الشيخ بقوله ﷺ: «لا تشد الرحال إلا لثلاثة»(1) على عدم مشروعية السفر إلى أضرحة الأولياء وآل البيت لا علاقة له بمشروعيتها أو عدم مشروعيتها، إنما ينهى الحديث عن السفر للعبادة في مسجد غير هذه المساجد الثلاثة؛ فالحديث يدل على تعظيم هذه المساجد دون غيرها، فلا ينبغي شد الرحال لمسجد يرغب المسلم التعبد فيه غير هذه المساجد الثلاثة: المسجد الحرام والمسجد الأقصى والمسجد النبوي.

أما استدلاله بالحديث الثاني وهو قوله ﷺ: «لا تتخذوا قبري عيدًا وصلوا عليَّ أينما كنتم فإن صلاتكم تبلغني»(2) فلا علاقة له مطلقًا بشد الرحال ولم يشر إليه ولا كان يجب عليه وضعه للاستدلال.

وقال القسطلاني في المواهب اللدنية: «قد أجمع المسلمون على استحباب زيارة القبور كما حكاه الإمام النووي وأوجبها الظاهرية، ومحل الإجماع للرجال فقط، فعلم من هذا استحباب زيارة مشاهد الصالحين الأولياء وغيرهم، وأما شد الرحال لزيارة القبور والمشاهد فهو مباح لا كراهية فيه في معتمد مذهب الإمام أحمد».

وقال في المنتهى والإقناع وشرحيهما في صلاة القصر: «إن السفر يكون واجبًا كالسفر لحج وجهاد متعين، ومسنونًا كالسفر لزيارة الإخوان وعيادة المريض وزيارة الوالدين، ومباحًا كالسفر لنزهة وفرجة وتجارة أو قصد مشهد أو قبر نبي أو مسجد غير الثلاثة».

(1) رواه البخاري ومسلم.

(2) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف.

فمنه يعلم أن شد الرحال لغير الثلاثة مباح لا كراهية فيه.

وما ذهب إليه الشيخ ابن تيمية من منعه شد الرحال لزيارة الأضرحة والقبور والمشاهد مطلقًا ليس بمذهب الإمام أحمد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ولم يصح عن الإمام أحمد رواية في هذا الشأن.

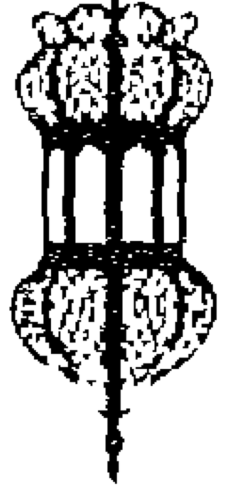
ومن الغريب أن تجد لابن تيمية قولاً آخر يناقض قوله السابق: «إن السفر إلى أضرحة الأولياء غير مشروع بل فيه معصية» فيقول ابن تيمية في كتابه (الجواب الباهر في زوار المقابر): «وإذا كانت زيارة قبور المؤمنين مشروعة فزيارة قبور الأولياء والصالحين أولى».

وهنا يقرر الشيخ بصريح القول أن زيارة قبور الأنبياء والصالحين أولى من زيارة قبور المؤمنين التي أمر الشرع باستحباب زيارتها لقوله ﷺ: «**ألا قد نهيتكم عن زيارة القبور ألا فزوروها فإنها تذكر بالآخرة**» رواه ابن ماجه وابن مسعود - وفي سنن الترمذي من حديث بريدة عن أبيه، وأخرجه ابن ماجه بلفظ: «كنت نهيتكم عن زيارة القبور» - وأخرجه أبو داود والنسائي ولفظ الحاكم.

وأخرج مسلم بلفظه قال: زار النبي ﷺ قبر أمه فبكى وأبكى من حوله فقال: «**استأذنت ربي في أن أستغفر لها فلم يؤذن لي واستأذنته في أن أزور قبرها فأذن لي فزوروا القبور فإنها تذكر بالموت**».

وأخرج الطبراني بسند حسن بلفظ: «نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها فإن لكم فيها عبرة».

وأخرج الطبراني في الأوسط عن عمر والحاكم والبيهقي عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ على مصعب بن عمير حين رجع من أحد ووقف عليه وعلى أصحابه: «**أشهدكم أنكم أحياء عند الله فزوروهم وسلموا عليهم فوالذي نفسي بيده لا يسلم عليهم أحد إلا ردوا عليه إلى يوم القيامة**».



وروى البيهقي أن حمزة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ رد سلام فاطمة بنت الخزاعية في قبره لما قالت: «السلام عليك يا عم رسول الله»، فقال: «علينا وعليكم السلام ورحمة الله».

ثم أضاف الشيخ في الكتاب نفسه قوله: «وإنما يشرع أن يزار قبره ﷺ كما شرعت زيارة القبور وأما هو ﷺ فيشرع السفر إلى مسجده، وينهى عما يوهم أنه سفر إلى غير المساجد الثلاثة ويجب الفرق بين الزيارة الشرعية التي سنها رسول الله ﷺ وبين الزيارة البدعية التي لم يشرعها، بل نهى عنها مثل اتخاذ قبور الأنبياء والصالحين مساجد والصلاة إلى القبر واتخاذه وثنًا».

وهنا يشرع ابن تيمية زيارة قبر رسول الله ﷺ كما شرعت زيارة القبور بعد أن أفتى بغير ذلك كما بيناه.

ومن غير اللائق أن تقول عبارته: «يشرع أن يزار قبره ﷺ كما شرعت زيارته»، وكأنه يلمح بأن قبره ﷺ كغيره من سائر القبور.

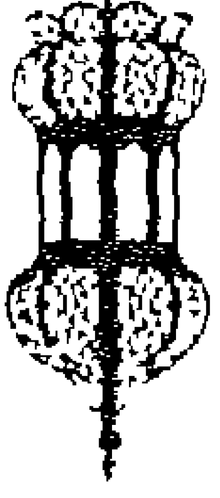
نقول إنه لا يصح أن تكون درجة أحد من الأمة أو رتبته أعلى من درجته أو رتبته ﷺ حتى تساوي قبره بغيره من القبور، بل إنما حصل لهم هذا الفضل وتلك المراتب ببركته ﷺ.

ولقد روى سفيان الثوري في الجامع عن سعيد بن المسيب قال: «ما مكث نبي في قبره أكثر من أربعين ليلة حتى يرفع».

وأخرج البيهقي عن أنس عن النبي ﷺ قال: «الأنبياء لا يتركون في قبورهم بعد أربعين ليلة ولكنهم يصلون بين يدي الله تعالى حتى ينفخ في الصور».

وأخرج ابن حبان والطبراني وأبو نعيم عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ : **«ما من نبي يموت فيقيم في قبره إلا أربعين صباحًا».**

فهل يصح أن يسوَّى قبره ﷺ ببقية القبور من المؤمنين يا فضيلة الشيخ ؟



ويقول ابن تيمية: «إنه يجب الفرق بين الزيارة الشرعية والزيارة البدعية»، فالزيارة الشرعية معلومة وسنوضحها، لكن الزيارة البدعية التي أشار إليها الشيخ لم يوضحها، وإنما أوضح ما أسماه مثليتها كاتخاذ قبور الأنبياء والصالحين مساجد والصلاة إلى القبر واتخاذه وثنًا.

نقول لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

أما حديث رسول الله ﷺ عن عائشة، قالت: قال رسول الله ﷺ: «**لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد**» [أخرجه البخاري من حديث عائشة وعبد الله بن عباس وأخرجه مسلم من حديث أبي هريرة].

فمعناه أن اليهود والنصارى كانوا يصلون فوق قبور صالحيهم ، وابن تيمية يعلم معناه ونحن لا نوضحه لفضيلته، ولكننا نقول له أو الناقل عنه إن هذا لم يحدث في أمة النبي ﷺ أو أننا سمعنا أو علمنا أن أحدًا صلى فوق قبر الرسول ﷺ أو حتى صلى فوق أي قبر من قبور الصالحين أو المؤمنين؛ فهذا منهي عنه في سنته ﷺ حتى لو كان الجلوس على قبر.

روى مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لأن يجلس أحدكم على جمرة فتحرق ثيابه فتخلص إلى جلده خير له من أن يجلس على قبر».

وكذلك لم نسمع أو نقرأ أو نعلم عن أحد من المسلمين حتى لو جاهلًا أنه اتخذ قبر النبي قبلة فصلى إليه أو إلى قبر غيره.

وجميع العلماء العاملين والأئمة المجتهدين أجمعوا على صحة الصلاة على جميع بقاع الأرض فيما عدا القبر أو أماكن قضاء الحاجة أو المزابل لحديث النبي ﷺ: «**جُعلت لي الأرض مسجدًا وطهورًا**»[1].

(1) أخرجه البخاري ورواه مسلم من حديث أبي هريرة من حديث جابر بن عبد الله.

لكنَّ المتشددين من أتباع الشيخ ابن تيمية حرموا الصلاة في المساجد التي بها قبور حتى ولو كانت القبور بعيدة عن صحن المسجد.

ولست أدري من أين جاءوا بفتواهم هذه ولم أجد عند كتابتي هذا البحث كتابًا فيه سطر واحد أو كلمة تقرر صحة فتواهم، بل قد أجاز فقهاء المالكية والأحناف جواز الصلاة في المساجد التي بها قبور مادام القبر ليس في قبلة المصلين أو أن هناك حائلًا (كحائط مثلًا) بين القبر وبين المصلي إن كان القبر في القبلة، أما إذا كان القبر بعيدًا عن القبلة وليس في مواجهة المصلي كأن يكون خلفه مثلًا فالصلاة صحيحة لا كراهة فيها، ولست أرى هذا إلا تشديدًا وتفريقًا بين صفوف المسلمين ومدعاة لإيجاد الجدل بين المسلمين وبعضهم البعض.

وأقول لذوي الألباب منهم: لقد صلى عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في كنيسة النصارى والأمر لا يحتاج إلى إيضاح أو تفسير.

أما عن قول الشيخ اتخاذ القبر وثنًا أي يعبد من دون الله، فلست أرى اليوم من لا يعلم أن النافع والضار هو الله، وقد أشرنا عند حديثنا عن الوسيلة ما يكفي للرد على هذا القول.

لكن ابن الألوسي أراد أن يدافع عن ابن تيمية، ويكفيه حجة الرد عليه، فقال في كتابه «جلاء العينين» ما نصه: «إن شيخ الإسلام رحمه الله (يقصد ابن تيمية) لم يحرم زيارة القبور على الوجه المشروع في شيء من كتبه، ولم ينه عنها ولم يكرهها بل استحبها وحض عليها، ومصنفاته وكتبه ومناسكه طافحة بذكر استحباب زيارة قبر النبي ﷺ وسائر القبور».

وابن الألوسي يرد بذلك القول على من قال إن الإمام ابن تيمية أفتى بأن من يزور قبر النبي بقصد التشفع به فهو ضال مبتدع.

وإنني أتفق مع الشيخ العلامة ابن الألوسي في هذا الدفاع عن إمام عالم جليل محدث فقيه مؤرخ باحث هو الإمام ابن تيمية، ولا أظن مطلقًا أن تصدر منه فتوى كهذه.

ولا أستبعد أن تكون هذه مدسوسة عليه في مصنفاته كما حدث مع كثير غيره من العلماء.

لكن كثيرًا ممن يدعون اتباع الشيخ أو الأخذ بمذهبه يحجون أو يعتمرون ولا يزورون قبر النبي ﷺ وهؤلاء غير باحثين في مذهب شيخهم الذي يقول عنه ابن الألوسي إن مناسكه طافحة بذكر استحباب زيارة قبر النبي ﷺ، ولا أظن غير أن هؤلاء جهلاء محرومو الفضل ومحرومو شرف الوقوف قبالة وجهه ﷺ لأنه حي في قبره كما أوضحنا ذلك.

أما قول الشيخ في الزيارة الشرعية عند زيارة قبور المؤمنين:

فإن العلماء يرون أن الزائر يقف قبالة القبر ويقول: «السلام عليكم دار قوم مؤمنين أنتم السابقون وإنا إن شاء الله بكم للاحقون، اللهم اغفر لهم وارحمهم، نسأل الله لنا ولكم العافية».

وهم يستدلون بما رواه مسلم عن عائشة - رضي الله عنها - قالت: «كان رسول الله ﷺ كلما كانت ليلتها من رسول الله ﷺ يخرج من آخر الليل إلى البقيع فيقول: السلام عليكم دار قوم مؤمنين وآتاكم ما توعدون، غدًا مؤجلون وإنا إن شاء الله بكم لاحقون، اللهم اغفر لأهل بقيع الغرقد».

وفي حديث آخر لمسلم من حديث سليمان بن بريدة عن أبيه قال: كان رسول الله ﷺ يعلمهم إذا خرجوا إلى المقابر، فكان قائلهم يقول (في رواية أبي بكر): السلام على أهل الديار (وفي رواية زهير): السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين والمسلمين وإنا إن شاء الله للاحقون، أسأل الله لنا ولكم العافية.

وسبق أن أشرنا في حديثنا عن التوسل أن فناء الجسد لا يعني فناء الروح، ولا يستطيع عالم أن يقول بفنائها، فروح العبد باقية في الدنيا باقية في الآخرة لا تفنى بفناء الجسد، بل تنتقل من جسد دنيوي إلى جسد أخروي وهي في كلا الجسدين بحسب طبيعة الحياة التي تحياها.



فالنبي ﷺ لم يخاطب أجسادًا بليت، بل خاطب أرواحًا بقيت غير مأذون لها بالكلام؛ لكنهم يسمعون كما قال ﷺ:«**ما أنتم بأسمع لي منهم**»، فهم يسمعون التسليم عليهم ويعلمون من الذي يلقي السلام عليهم، ويردون السلام عليه، وهم يتأثرون كما يتأثر الحي تمامًا، ويتأذون ويسرون بفعل أهليهم في الدنيا، كما ورد في الأحاديث الشريفة «**لا تحزنوا موتاكم بعمل السيئات**».

واتصال الأرواح ببعضها لا ينكره الأئمة والعلماء المجتهدون، وكتب السيرة جاء بها كثير مما يدل على ذلك:

يقول الشيخ محمد حسنين مخلوف: «وقد تواترت الروايات الصحيحة والرؤى من أصناف بني آدم على فعل الأرواح بعد الموت، وأنها تقرأ القرآن وتصلي وتخبر أرواح الأحياء عند لقائها وتقضي حوائج الناس، وأنها تقدر على ما لا تقدر على مثله حال اتصالها بالبدن في الدنيا من هزيمة الجيوش الكبيرة بالعدد القليل متمثلة وغير متمثلة، وظاهر أن هذا هو لبعض الأرواح التي يؤذن لها بذلك».

ويقول أيضًا: «إن الروح تبقى في البرزخ مدركة تسمع وتبصر وتسبح في ملك الله حيث أراد الله وقدر، وتتصل بالأرواح الأخرى وتأنس بها وتناجيها سواء أكانت أرواح أحياء أم أرواح أموات».

لا يعنينا من يأخذ به ومن لا يأخذ به؛ لأن أحاديث أخبار الموتى وتلاقي الأرواح من الأمور التي لا ينكرها العلماء والأئمة، وسنورد بعضًا مما رووه في هذا الشأن، بعضها من العلماء والأئمة كابن كثير وابن قيم الجوزية والإمام ابن سيرين، وإن كنا لا نريد الإطالة في كثرة الرواة أو كثرة المروي، ولكننا نريد أن نأخذ من كل راوٍ ما تفيد روايته وتدل عليه.

روى ابن كثير في كتابه «البداية والنهاية» أن الحسن بن على رَضِوَلِلَّهُعَنهُ كان له على معاوية في كل عام جائزة وكان يفد إليه، فربما أجازه بأربعمائة ألف درهم وراتبه في كل سنة مائة ألف، فانقطع سنة عن الجائزة، وجاء وقت الجائزة فاحتاج إليها



الحسن رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وكان من أكرم الناس، فأراد أن يكتب إلى معاوية ليبعث بها إليه، فلما نام تلك الليلة رأى جده رسول الله ﷺ في المنام فقال له: «يا بني، أتكتب إلى مخلوق بحاجتك». وعلَّمه دعاء يدعو به، فترك الحسن ما كان هم به من الكتابة، فذكره معاوية وافتقده وقال ابعثوا إليه مائتي ألف، فلعل له ضرورة في تركه القدوم علينا فحملت إليه من غير سؤال.

وها هو طلحة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يخبر عائشة بعد موته بأن تحوله من موضع دفنه.

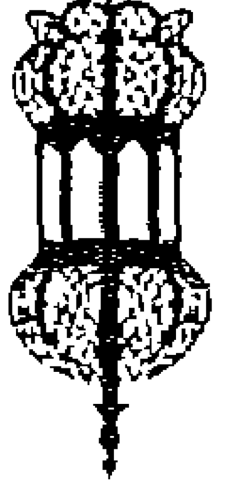
روى الإمام الفقيه أبو محمد عبد الله بن مسلم المعروف بابن قتيبة ت 270هـ في كتابه «الإمامة والسياسة» أنه لما قتل طلحة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في موقعة الجمل ودفن في ساحة البصرة فأتى عائشة - رضي الله عنها - في المنام فقال لها: (حوليني من مكاني فإن البرد قد آذاني فحولته عائشة - رضي الله عنها).

وروى الإمام الفقيه ابن قتيبة في الكتاب نفسه:

أن عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال للمغيرة بن شعبة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إني رأيت أبا بكر وعمر أتياني فقالا لي صم فإنك مفطر عندنا الليلة وإني أصبحت صائمًا فاستشهد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وهو صائم كما أخبر».

وأخرج الحارث بن أبي أسامة في مسنده عن عبد الله بن سلام قال: «أتيت عثمان لأسلم عليه - وهو محصور - فقال: مرحبًا يا أخي، رأيت رسول الله ﷺ في هذه الكوخة فقال لي عثمان حصروك؟ قلت: نعم، قال: عطشوك؟ قلت: نعم، قال: فناولني دلوًا فيه ماء فشربته حتى رويت، حتى إني أجد برده بين يدي وبين كتفي، فقال: إن شئت نصرت عليهم أو أفطرت عندنا فاخترت أن أفطر عنده.

وروي الإمام ابن سيرين أن أبا إسحاق الخواص قال: «كان رجل يخدم داود الطائي ويكنى بأبي عبد الله فقال له داود: إن مت فاغسلني ولا تخبر بي أحدًا، قال: فلما مات رأيته في المنام، فقلت: يا داود، ادع الله أن يلحقني بك. فقال: احفظ عني



ثلاثًا: داو قروح بطنك بالجوع، واقطع مفاوز الدنيا بالأحزان، وآثر حب الله على هواك ولا تبال متى تلقى».

وكان محمد بن الحجاج قد درس فقه الشافعي ومالك وأحمد بن حنبل، قال: فاختلفت عليَّ أقاويلهم واختلافاتهم في المسائل فأحببت أن آخذ بأصح أقوالهم فسألت الله تعالى أن يريني النبي ﷺ في المنام فوقع في روعي أنك سترى ليلة الجمعة، فلما كانت ليلة الجمعة في السحر وقد فرغت من وردي وجلست على طهر أنتظر المؤذن فغلبتني عيناي فوقع في روعي أن النبي ﷺ قادم عليَّ، فدخل أولًا رجل نجراني عليه طيلسان وثياب بيض فسلم وجلس، ثم قدم النبي ﷺ فسلمت عليه وقبلت بين عينيه ورأيته على النعت الذي كان معي وعلى الصفة التي كانت معي ومعه جماعة من أصحابه فجلس وجلست بين يديه، فسألته عن مسائل ثم انتهيت إلى ما كان في نفسي من الفقه فسألته عن مسألة، فقال: إني على ما يقول هذا، وأومأ إلى الداخل قبله، ثم سألته عن أخرى فقال على ما يقول هذا، ثم سألته عن مسائل الاختلاف فكان يومئ بيده ويقول على ما يقول هذا؛ فوقع في روعي أنه أحمد بن حنبل رضي الله عنه. فقلت: يا رسول الله، إنه ابتلى فيك فصبر. فقال لي: «انظر ما فعل الله به».

ثم التفت إليَّ فقال: «تصلي معنا الغداة» فقلت: يا رسول الله، ما أحوجني إلى ذلك. فأقيمت الصلاة وتقدم رسول الله ﷺ فصلى بنا وهو يقول: «سلام عليكم ورحمة الله» فسلمت عن يميني ثم انتهيت وأنا مستقبل القبلة.

وروى ابن سيرين أن صالحًا البراد قال:

رأيت زرارة بن أبي أوفى بعد موته في منامي فقلت: يرحمك الله ماذا قيل لك؟ وماذا قلت ؟ فأعرض عني.

فقلت: ما صنع الله بك؟ فأقبل عليَّ.

فقال: تفضل عليَّ بجوده وكرمه.

قلت : وأبو العلاء يزيد أخو مطرف ؟

قال: بخٍ بخٍ صار إلى رضوان الله.

قلت: وأخوه مطرف ؟

قال: ذاك في الدرجات العلى.

قلت: فأي الأعمال أنفع عندكم ؟

قال: التوكل وقصر الأمل.

وروي عن سفيان بن عيينة قال: رأيت سفيان الثوري في النوم.

فقلت : ما صنع الله بك؟

قال: فذكر شيئًا قلت: بم نجاك الله ؟

قال: بقلة معرفتي بالناس.

قال : فقلت له: أوصني. قال : أَقِلَّ من معرفة الناس.

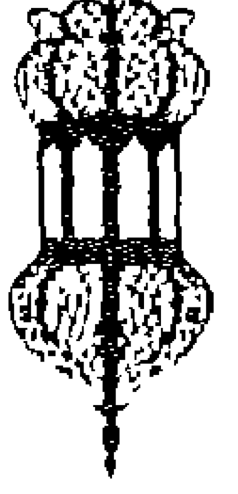
وروى ابن سيرين عن عوف بن مالك الأشجعي:

أنه كان مؤاخيًا لرجل من قيس يقال له محلم، فحضره الموت فأقبل عليه عوف فقال يا محلم إذا أنت وردت فارجع إلينا وأخبر بالذي صنع بك، فقال إن كان ذلك يكون لمثلي فعلت، فقبض محلم وبعد عام من وفاته رآه عوف في منامه، فقال: يا محلم ما صنعت وما صنع بكم؟ قال: وفينا أجورنا كلنا إلا خواص قد هلكوا في الشر الذين يشار إليهم بالأصابع. والله قد وفيت أجري كله حتى أجر هرة ضلت في أهلي قبل وفاتي بليلة.

وأصبح عوف فغدا على امرأة محلم، فلما دخل رحبت به زائرًا.

فقال لها عوف: هل رأيت محلمًا بعد وفاته؟

قالت: نعم رأيته وقد نازعني ابنتي ليذهب بها معه، فأخبرها عوف بالذي رأى وما ذكره من الهرة التي قد ضلت.



قالت: لا علم لي بذلك ولكن خدمي يعرفون، فدعت خدمها فسألتهم عن الخبر فأخبروها أن الهرة ضلت لهم قبل موته بليلة.

وروى ابن سيرين رواية سعيد بن خالد بن زيد الأنصاري :

أن رجلًا من البصرة ممن يحضر القبور (أي يجهزها للدفن) قال: حضرت قبرًا ذات يوم فوضعت رأسي قريبًا منه، فأتتني امرأتان في منامي فقالت إحداهما: يا أبا عبد الله، نشدتك الله إلا صرفت عنا هذه المرأة ولم تجاورنا بها، قال: فاستيقظت فزعًا فإذا بجنازة امرأة قد جيء بها، فقلت: القبر وراءكم فصرفتهم إلى ذلك القبر فلما كان الليل إذا بالمرأتين في منامي تقول إحداهما: جزاك الله عنا خيرًا فلقد صرفت عنا شرًّا طويلًا، قلت: ما بال صاحبتك لا تكلمني كما كلمتني، قالت: إن هذه ماتت عن غير وصية، وحق لمن مات عن غير وصية ألا يتكلم إلى يوم القيامة.

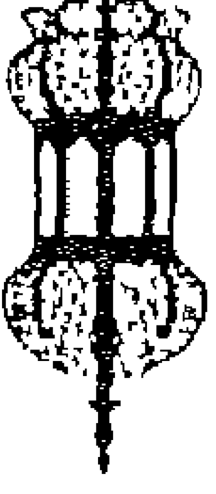
وذكر ابن قيم الجوزية في كتابه مدارج السالكين بعضًا من هذه الرؤى فقال:

ذكر أبو القاسم القشيرى في الرسالة القشيرية أن أبا سليمان الداراني رئي بعد موته فقيل له ما فعل الله بك ؟ فقال غفر لي وما كان شيء أضر عليّ من إشارات القوم.

وقال أيضًا (أبو القاسم القشيري): «سمعت أبا سعيد يقول: رأيت أبا سهل الصعلوكي في المنام، فقلت أيها الشيخ! فقال: دع التشييخ، فقلت وتلك الأحوال ؟ فقال لم تغن عنك شيئًا، فقلت ما فعل الله بك ؟ قال غفر الله لي بمسائل كانت تسأل عنها العجائز».

وذكر الجريري أنه رأى الجنيد في المنام بعد موته، فقال له: كيف حالك يا أبا القاسم؟ فقال: طاحت تلك الإشارات وفنيت تلك العبارات، وما نفعنا إلا تسبيحات نقولها بالغدوات.

وبعد أن عرضنا ما عرضناه من رؤى ومنامات لصالحين صادقين وأولياء عاملين عارفين لنوضح لذوي الألباب من المريدين الصادقين اتصال أرواح الأموات بأرواح الأحياء فهي تخبر وتنبئ وتنصح وتحذر وتعظ.



أما عن اعتراض أتباع الشيخ ابن تيمية على ما يفعله بعض المتصوفة وليس كل المتصوفة من تقبيل الأضرحة وأعتاب آل البيت تعبيرًا عن فرط حبهم لآل بيته ﷺ، فليس هذا معناه تقبيل أحجار أو تقبيل أوثان كما يدعون، إنما يزيد الحب عند هؤلاء فلا يدرون ما يفعلون ففاعل هذا لا يستطيع الوصول إلى ساكن القبر فيقبله فيعبر عن ذلك بتقبيل ما يحيط بساكنه.

وليتهم قرءوا لمجنون ليلى العامرية وهو يقول:

أمـــر علـــى الديـــار ديار ليلـــى * أقبـــل ذا الجـــدار وذا الجـــدارا**

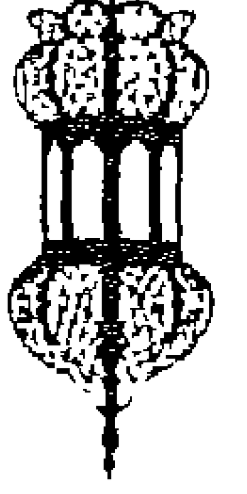
ومـــا حب الديـــار شغفن قلبـــي * ولكن حب من سكن الديـــارا**

نعم هذا الأمر خروج عن آداب الزيارة الشرعية ولا نرضاه لإخواننا وأحبابنا، فالالتزام بآداب الزيارة لا يحرم الزائر التعبير عن حبه للمزور ويقطع هذا الالتزام حجج المعترضين على زائري آل البيت.

أما عن عدم زيارة المعترضين أنفسهم لآل بيت النبي فهذا لا نفسره إلا بجهل في فهم حبهم لآل بيت رسول الله ﷺ، فإذا سألت أحدهم فسيقول لك إننا نحب أهل بيت رسول الله وحب أهل بيته من محبته فإن سألته عن عدم زيارته لأهل البيت فستراه يسرد لك حججًا واهية لا تستند إلى دليل واحد من الكتاب والسنة.

حتى إن بعضهم يوصله سوء فهمه ويوهمه بأن زيارة قبر وليّ من آل البيت أو أحد الأولياء فكأنما يزور وثنًا، وكأنه نسي أن ساكن القبر يرد السلام على من سلم عليه ويعرفه بنص حديث رسول الله ﷺ في الصحاح كما أوردنا وأشرنا في أبواب سابقة.

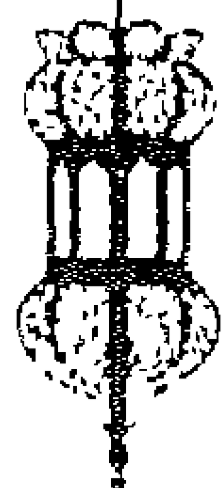
وأعجب ما يدعونه عن المتصوفة الطواف حول القبور وهذا ادعاء باطل لا دليل لهم عليه، فليس في الزيارة طواف حول القبر ولكن الزائر يفعل ما أوردناه عند زيارته كما أوضحنا، غير أنه يزيد في قراءة القرآن والصلاة على رسول الله ﷺ وكل زائر حسب ما تمليه عليه محبته للمزور يعبر ما أراد أن يعبر.



وأريد ألا أزيد في حديثي عن زيارة الصوفية لآل البيت؛ لأن زيارة آل البيت واجبة على كل مسلم من باب محبته لرسول الله ﷺ فليست لطائفة دون أخرى.

أما عن الطواف فلا بد أن يفهم المجادلون أن الطواف عبادة من شعائر الحج له نية وشروط، وتحرك الزائر حول المقام أو بجوار جهة منه ليس معناه طوافًا؛ فلا طواف بغير الكعبة. وهذا يعلمه كل صوفي ومتصوف.

وزيارة آل البيت محبة في رسول الله ﷺ وتقربًا إليه وإلى الله تعالى بحبهم وتبركًا بهم رضوان الله عليهم أجمعين والتبرك بهم مشروع وجائز كما جاء في السنة الشريفة وكما سنورده إن شاء الله تعالى.



الباب السادس

التبرك في الكتاب والسُّنَّة

لقد ورد لفظ التبرك في القرآن الكريم في أكثر من ثلاثين موضعًا، ولقد ورد لفظ «تبارك» في كتاب الله تعالى في مواضع:

قال تعالى: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: 54].

قال تعالى: ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون: 14].

قال تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ﴾ [الفرقان: 1].

قال تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي إِن شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ﴾ [الفرقان: 10].

قال تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا﴾ [الفرقان: 61].

قال تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [غافر: 64].

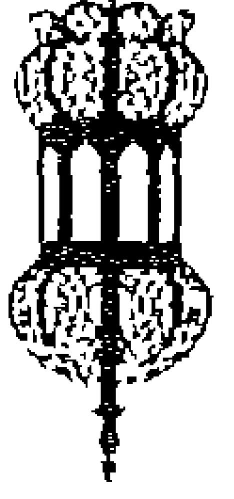
قال تعالى: ﴿وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الزخرف: 85].

قال تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾ [الملك: 1].

ومعنى تبارك الله أي تقدس وتعاظم، أي اتصف بكل كمال ولا يوصف بهذا الوصف غيره سبحانه فلا يقال مثلًا تبارك النبي، أو تبارك الولي، أو تبارك السلطان وهي فعل ماضٍ غير متصرف، فلا يأتي منه مضارع ولا مصدر ولا اسم فاعل، وهي ترد في آيات القرآن حسب ما يناسب الآية من معنى.

وورد لفظ مبارك في كتاب الله تعالى في اثني عشر موضعًا:

قال تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا﴾ [آل عمران: 96].



قال تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ﴾ [الأنعام: 92].

قال تعالى: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا﴾ [مريم: 31].

قال تعالى: ﴿وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ﴾ [الأنبياء :50].

قال تعالى: ﴿يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾ [النور: 35].

قال تعالى: ﴿فَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُبَٰرَكَةً﴾ [النور: 61].

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا أَتَىٰهَا نُودِيَ مِن شَٰطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَٰرَكَةِ﴾ [القصص: 30].

قال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ﴾ [ص: 29].

قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَٰهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾ [الدخان: 3].

قال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَٰرَكًا﴾ [ق: 9].

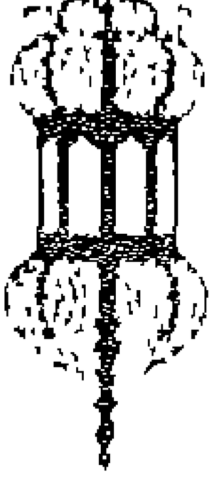
فقوله تعالى: «ذكر مبارك، ليلة مباركة، البقعة المباركة، شجرة مباركة، ماءً مباركًا، مُنْزَلاً مباركًا، كتاب أنزلناه إليك مبارك» كل هذه المعاني تعني البركة في ذات الشيء الذي جاء موصوفًا بالبركة.

جاء في تفسير مفاتيح الغيب للعلامة فخر الدين محمد بن عمر الرازي - رحمه الله - في قوله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ﴾ [ص: 29] قال أهل المعاني: « كتاب مبارك » أي كثير خيره، دائم بركته ومنفعته يبشر بالثواب والمغفرة، ويزجر عن القبيح والمعصية.

وقال رحمه الله:

والعلوم إما نظرية وإما عملية؛ أما العلوم النظرية فأشرفها وأكملها معرفة ذات الله وصفاته وأفعاله وأحكامه وأسمائه، ولا ترى هذه العلوم أكمل ولا أشرف مما تجده في هذا الكتاب يعني كتاب الله.

وأما العلوم العملية؛ فالمطلوب إما أعمال الجوارح وإما أعمال القلوب، وهو المسمى طهارة الأخلاق وتزكية النفس، ولا تجد هذين العملين مثلما تجده في كتاب الله.



ثم جرت سُنَّة الله تعالى بأن الباحث عنه والمتمسك به يحصل له عز الدنيا وسعادة الآخرة.

قال الشيخ العلامة أحمد الصاوي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في حاشيته على تفسير الجلالين: « كتاب مبارك»؛ أي كله خير لمن آمن به وشر على من كفر به.

ومن بركته بقاء الدنيا وإنبات الأرض وأمطار السماء؛ ولذا إذا رفع القرآن تأتي ريح لينة فيموت بها كل مؤمن ويبقى الكفار، فبقاء الخير في الأرض بقاء القرآن فيها.

وقال أيضًا: كثير الخير والمنافع في الدنيا بالشفاء به والأمن من الخسف والمسخ والضلال، وفي الآخرة بتلقي السؤال عن صاحبه، وشهادته له كونه ظلة على رأسه في حر الموقف والرقي به إلى الدرجات العلى.

وفي قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا﴾ [مريم: 31] . قال الشيخ - رحمه الله - أي نافعًا للناس؛ لأنه كان يبرئ الأكمه والأبرص ويحيي الموتى بإذن الله ويهدي الضال.

وبهذا القول قال الزمخشري أيضًا.

وفي قوله تعالى :﴿ شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ﴾ [النور: 25] « أي كثيرة النفع كثيرة المنافع، أو لأنها تنبت في الأرض التي بارك الله فيها للعالمين، وقيل: بارك فيه سبعون نبيًّا منهم إبراهيم عليه السلام، وعن النبي ﷺ: «**عليكم بهذه الشجرة زيت الزيتون فتداووا به فإنه مصحة من الباسور**» رواه الطبراني وأبو نعيم وذكره العلامة الزمخشري في تفسيره.

وروى ابن ماجه والحاكم: «ائتدموا بالزيت وادهنوا به؛ فإنه من شجرة مباركة». وأخرج الطبراني في الأوسط: «ائتدموا من هذه الشجرة (يعني الزيت) ومن عرض عليه طيب فليصب منه».

هكذا ذكر الإمام الزمخشري في تفسيره. وعلى هذا يصير لفظ مبارك في الآيات معناه كثير المنافع.

وورد لفظ «باركنا» في كتاب الله سبع مرات:

قال تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ﴾ [الإسراء: 1].

قال تعالى: ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا﴾ [الأنبياء: 71].

قال تعالى: ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا﴾ [الأنبياء: 81].

قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَٰهِرَةً﴾ [سبأ: 18].

قال تعالى: ﴿وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ﴾ [الصافات: 113].

قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا﴾ [فصلت: 10].

قال الزمخشري في قوله تعالى: ﴿بَٰرَكْنَا فِيهَا﴾ [الأنبياء: 81]، أي الأرض التي باركنا فيها بالخصب والنماء وسعة الأرزاق.

وقال الصاوي في تفسير الجلالين ﴿إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا﴾ [الأنبياء: 81]، «بكثرة الأنهار والأشجار». أشار الشيخ إلى البركة الدنيوية، وعليه يحمل ما ورد.

عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال لكعب: ألا تتحول إلى المدينة مهاجرا فيها رسول الله وقبره فقال كعب: إني وجدت في كتاب الله المنزل يا أمير المؤمنين أن الشام كنز الله من أرضه وبها كنزه من عباده وإلا فالمدينة ومكة أفضل من الشام باتفاق. وعليه تحمل البركة في الأرض على الخصب والنماء وسعة الأرزاق.

وفي قوله تعالى: ﴿وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ﴾ [الصافات: 113].

قال صاحب الجلالين: باركنا عليه بكثير من ذريته وعلى إسحاق ولده بجعلنا أكثر الأنبياء من نسله.. وإلى هذا أشار الزمخشري رحمه الله.

وورد لفظ «بركات» في كتاب الله ثلاث مرات:

قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأعراف: 96].

وقوله تعالى: ﴿قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ﴾ [هود: 48].

قال ابن كثير في تفسيره ﴿لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأعراف: 96].

أي قطر السماء ونبات الأرض، وقال صاحب الجلالين في تفسيره: «بركات جمع بركة وهي زيادة الخير في الشيء، ومن السماء يعني بالمطر، والأرض يعني بالنبات». وقال العلامة الزمخشري في تفسيره: ﴿بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأعراف: 96].

أي لآتيناهم بالخير من كل وجه، وقيل: أراد المطر والنبات. وأضاف: «فإن قلت ما معنى فتح البركات عليهم قلت تيسيرها عليهم كما ييسر أمر الأبواب المستغلقة بفتحها ومنه قولهم فتحت على القارئ إذا تعذرت عليه القراءة فيسَّرتَّها بالتلقين».

فالبركات التي أرادها المفسرون على ظاهرها مطر السماء ونبات الأرض وما يأتيان به من خير.

وفي قوله تعالى: ﴿رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾ [هود: 73] إنما أنكرت الملائكة تعجبها عليها لأنها كانت في بيت الآيات ومهبط المعجزات والأمور الخارقة للعادة، فكان عليها أن تتوافر ولا يزدهيها ما يزدهي سائر النساء الناشئات في غير بيت النبوة، وأن تسبح لله وتمجده مكان التعجب وإلى ذلك أشارت الملائكة صلوات الله عليهم في قولهم ﴿رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾ [هود: 73] «أرادوا أن هذه وأمثالها مما يكرمكم به رب العزة ويخصكم بالإنعام به يا أهل بيت النبوة فليست بمكان عجب فقوله: ﴿رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾ [هود: 73] كلام مستأنف علل به إنكار التعجب كأنه قيل إياك والتعجب فإن أمثال هذه الرحمة والبركة متكاثرة من الله عليكم وقيل الرحمة (النبوة) والبركات (الأسباط) من بني

إسرائيل لأن الأنبياء منهم وكلهم من ولد إبراهيم. هكذا قال الإمام الزمخشري في تفسيره.

وقال العلامة الصاوي في شرحه على تفسير الجلالين هو دعاء من الملائكة لهم بالرحمة والبركة.

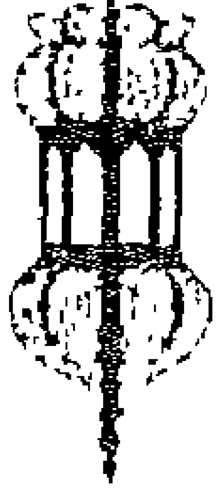
وورد لفظ «بورك» في كتاب الله تعالى مرة واحدة:

في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [النمل: 8].

قال الزمخشري: ومعنى بورك من في النار ومن حولها «بورك من في مكان النار ومن حول مكانها، ومكانها في البقعة التي حصلت فيها وهي البقعة المباركة المذكورة» في قوله تعالى: ﴿نُودِىَ مِن شَٰطِىِٕ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ﴾ [القصص: 30] وتدل عليه قراءة أبي «تبارك الأرض ومن حولها» «الإتقان في علوم القرآن» وعنه بوركت النار والذي بوركت له البقعة، وبورك من فيها ومن حواليها حدوث أمر ديني فيها وهو تكليم الله موسى واستنباؤه له، وإظهار المعجزات عليه، ورب خير يتجدد في بعض البقاع فينشر الله بركة ذلك الخير في أقصاها، ويبث آثار يمنه في إبعادها فكيف بمثل ذلك الأمر العظيم الذي جرى في تلك البقعة، وقيل المراد بالمبارك فيهم موسى والملائكة الحاضرون، والظاهر أنه عام في كل من كان في تلك الأرض وفي ذلك الوادي وحواليهما من أرض الشام.

فمن جملة ما أوردنا تفسيره للعلامة الزمخشري والشيخ الصاوي المالكي والجلالين وابن كثير - رحمة الله عليهم أجمعين - يتبين لنا أن التبرك لغةً معناه التيمن وطلب الخير، وتبارك أي تفاءل وتيمن، والبركة هي النماء وزيادة الخير وجمعها بركات أي زيادة الخيرات، والبركة منة من الله تعالى على من يشاء من عباده، فإن شاء سبحانه وضع البركة في الإنسان أو يضعها في المكان أو يضعها في الماء أو يضعها في أي شيء من مخلوقاته ليمنح الخير فيها وبها ومنها لعباده.

ونورد لأحبابنا بعض ما جاء في السُّنَّة المطهرة ما يدل على أن التبرك ثابت بالكتاب كما أوردنا، وثابت بالسُّنَّة.



ففي صحيح البخاري من حديث ابن عباس - رضي الله عنهما- قال إنه سمع عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: سمعت النبي ﷺ بوادي العقيق يقول: «أتاني الليلة آت من ربي فقال صل في هذا الوادي المبارك وقل: عمرة في حجة».

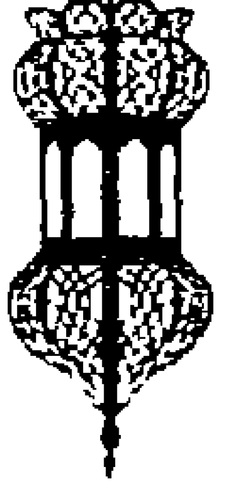
وفي حديث البخاري عن أنس أن رسول الله ﷺ قال: «**اللهم بارك لهم في مكيالهم وبارك لهم في صاعهم ومدهم**» يعني أهل المدينة. دعا لهم النبي ﷺ بالبركة في مكيالهم وصاعهم ومدهم.

ولقد أقر النبي ﷺ التبرك به، يدل عليه ما جاء في صحيح البخاري ومسلم - رضي الله عنهما -.

ففي صحيح مسلم عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كان النبي ﷺ يدخل بيت أم سليم فينام على فراشها وليست فيه. قال: فجاء ذات يوم فنام على فراشها فأتت فقيل لها هذا النبي ﷺ نام في بيتك على فراشك قال: فجاءت وقد عرق «استنقع» عرقه على قطعة أديم على الفراش ففتحت عتيدها فجعلت تنشف ذلك العرق فتعصره في قواريرها ففزع النبي فقال: «ما تصنعين يا أم سليم؟» فقالت: يا رسول الله، نرجو بركته لصبياننا، قال: «أصبتِ».

وراوي الحديث هو أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يبين لنا فعل صحابية جليلة هي أم سليم «وهي محرم له ﷺ ومنه يجوز الدخول على المحارم والنوم عندهن في بيوتهن» وأم سيلم هذه بنت ملحان بن خالد وهي أم أنس بن مالك خادم الحبيب المصطفى ﷺ وهي أخت أم حرام بنت ملحان وهي إحدى المرأتين اللتين بايعتا النبي ﷺ وهي الصحابية التي كفنها النبي ﷺ عند موتها رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا وهي محرم للنبي ﷺ؛ لأنها كانت أخت آمنة بنت وهب أم النبي ﷺ من الرضاعة، وكانت تدعى بالرميضاء بنت ملحان بن خالد بن زيد بن حرام بن جندب الأنصارية».

والنبي لم يعترض على صنيعها وما فعلته، بل أقره وقال لها: «أصبتِ»؛ أي فعلت حسنًا وصوابًا.



وروى مسلم عن أنس قال: لقد رأيت رسول الله ﷺ والحلاق يحلقه وأطاف به أصحابه فما يريدون أن تقع شعرة إلا في يد رجل.

وروى مسلم أيضًا من حديث عائشة أن رسول الله ﷺ كان يؤتى بالصبيان فيبرك عليهم ويُحَنّكهم (يبرك بضم الياء وفتح الباء، ويحنكهم بضم الياء وفتح الحاء).

وروى مسلم عن أنس قال: كان رسول الله ﷺ إذا صلى الغداة جاء خدم المدينة بآنيتهم فيها الماء فما يؤتى بإناء إلا غمس فيه يده فيها، فربما جاءوا في الغداة الباردة فيغمس يده فيها.

قال النووي في شرحه على صحيح مسلم وفيه التبرك بآثار الصالحين وبيان ما كان عليه الصحابة من التبرك بآثاره ﷺ وتبركهم بإدخال يده الكريمة في الآنية وتبركهم بشعره الكريم، وإكرامهم إياه أن يقع شيء منه إلا في يد رجل سبق إليه.

وروى مسلم عن جابر أن أم مالك كانت تهدي للنبي ﷺ في عكة لها سمنًا، فيأتيها بنوها فيسألون الأدم، وليس عندهم شيء فتعمد إلى الذي كانت تهدي فيه للنبي ﷺ فتجد فيه سمنًا، فما زال يقيم لها أدم بيتها حتى عصرته، فأتت النبي ﷺ فقال «عصرتِها» قالت: نعم. قال: «لو تركتِها ما زال قائمًا».

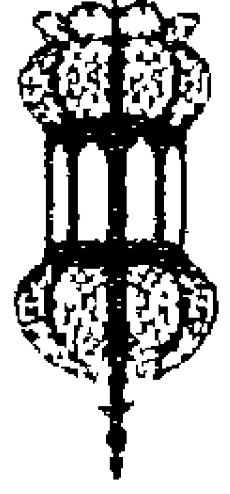
وروى البخاري عن ابن سيرين قال: قلت لعبيدة: عندنا من شعر النبي ﷺ لما أصبناه من قبل أنس أو من قبل أهل أنس فقال: لأن تكون عندي شعرة منه أحب إليَّ من الدنيا وما فيها.

وروى أيضًا عن ابن سيرين عن أنس أن رسول الله ﷺ لما حلق رأسه كان أبو طلحة أول من أخذ من شعره.

وروى البخاري عن الحكم قال: سمعت أبا جحيفة يقول: خرج علينا رسول الله ﷺ بالهاجرة فأتي بوضوء فتوضأ فجعل الناس يأخذون من فضل وضوئه فيتمسحونه.

وروى البخاري أيضًا قال: قال أبو موسى: دعا النبي ﷺ بقدح فيه ماء فغسل يديه ووجهه فيه ومج فيه ثم قال لهما: إشربا وأفرغا على وجوهكما ونحوركما.

وهذا إقرار صريح من النبي ﷺ أيضًا بجواز التبرك به، بل أمر بالتبرك به.



وروى البخاري أيضًا عن ابن شهاب قال: أخبرني محمود بن الربيع قال وهو الذي مج رسول الله ﷺ في وجهه وهو غلام من بئرهم.

وقال عروة عن المسور وغيره يصدق كل واحد منهما صاحبه: وإذا توضأ النبي ﷺ كادوا يقتتلون على وضوئه.

وفي البخاري أيضًا عن الجعد قال: سمعت السائب بن يزيد يقول: ذهبت بي خالتي إلى النبي ﷺ فقالت: يا رسول الله، إن ابن أختي وجع. فمسح رأسي ودعا لي بالبركة ثم توضأ فشربت من وضوئه ثم قمت خلف ظهره فنظرت إلى خاتم النبوة بين كتفيه مثل زر الحجلة.

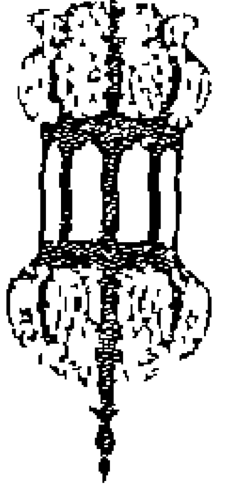
وروى البخاري أيضًا عن محمد بن المنكدر قال: سمعت جابرًا يقول: جاء رسول الله ﷺ يعودني وأنا مريض لا أعقل فتوضأ وصب عليَّ من وضوئه فعقلت فقلت: يا رسول الله، لمن الميراث؟ إنما يرثني كلالة. فنزلت آية الفرائض.

وفي البخاري أيضًا من حديث أنس قال: حضرت الصلاة فقام من كان قريب الدار إلى أهله وبقي قوم فأتى رسول الله ﷺ بمخضب من حجارة فيه ماء فصغر المخضب أن يبسط فيه كفه فتوضأ القوم كلهم قلنا: كم كنتم؟ قال: ثمانين وزيادة.

وفي البخاري من حديث سالم بن أبي الجعد عن جابر بن عبد الله قال: قد رأيتني مع النبي ﷺ وقد حضرت العصر وليس معنا ماء غير فضلة فجعل في إناء فأتى النبي ﷺ به فأدخل يده فيه وفرج أصابعه ثم قال: «حي على أهل الوضوء، البركة من الله» فلقد رأيت الماء يتفجر من بين أصابعه فتوضأ الناس وشربوا فجعلت لا آلو ما جعلت في بطني منه فعلمت أنه بركة. قلت لجابر: كم كنتم يومئذ؟ قال: ألفًا وأربعمائة.

وبعد أن أوردنا قليلًا من كثير من الأحاديث الدالة على جواز التبرك وبيَّنت الأحاديث تبرك صحابة الرسول ببقايا وضوئه، وتبركهم بشعره ﷺ وعرقه ﷺ وتبركهم بوجوده في بيوتهم وبين أظهرهم.

فليس هناك مجال لإنكار جواز التبرك بالصالحين من آل بيته ﷺ فإنه إذا كان الإقرار بالتبرك بآثاره ثابتًا، فالتبرك بعترته من صلبه أولى؛ لأننا قلما نحصل على شيء



من آثاره ﷺ أو قد يكون صعب الحصول عليها في زماننا فلم يبق غير ذريته ﷺ نسعى للتبرك بهم والتماس البركة في زيارتنا لهم لأنهم عترته وأريجته وريحانته وبضعة منه.

روى الإمام مسلم في صحيحه عن يزيد بن حيان قال زيد بن أرقم: قام رسول الله ﷺ فينا خطيبًا بماء يدعى خمًّا بين مكة والمدينة فحمد الله وأثنى عليه ووعظ وذكر ثم قال: «أما بعد ألا أيها الناس فإنما أنا بشر يوشك أن يأتي رسول ربي فأجيب وأنا تارك فيكم ثقلين، أولهما كتاب الله فيه الهدى والنور فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به». فحث على كتاب الله ورغَّب فيه ثم قال: «وأهل بيتي أذكركم الله في أهل بيتي أذكركم الله في أهل بيتي أذكركم الله في أهل بيتي».

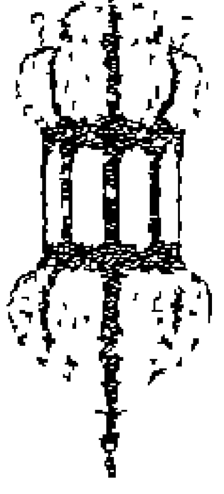
وقوله ﷺ أذكركم الله في أهل بيتي ثلاث مرات يدل على حرصه على المسلمين في مراعاتهم ود أهل بيته والتماس البركة في صحبتهم والاستفادة من علمهم والاقتداء بسيرهم وسيرتهم.

وبين ﷺ فضلهم عندما نزل قوله تعالى: ﴿فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾ [آل عمران: 61].

قال العلامة الزمخشري في تفسيره: فأتوا رسول الله ﷺ وقد غدا محتضنًا الحسين آخذًا بيد الحسن، وفاطمة، تمشي خلفه، وعلي خلفها وهو يقول: إذا أنا دعوت فأمنوا. فقال أسقف نجران:

يا معشر النصارى إني لأرى وجُوهًا لو شاء الله أن يزيل جبلاً من مكانه لأزاله بها فلا تباهلوا فتهلكوا ولا يبقى على وجه الأرض نصراني.

وجاء أيضًا في تفسير الزمخشري عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ خرج وعليه مرط مرجل من شعر أسود فجاء الحسن فأدخله ثم جاء الحسين فأدخله ثم فاطمة ثم عليًّا ثم قال: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب: 33].



وأخرج الطبراني بسند حسن عن أم سلمة رضي الله عنها عن رسول الله ﷺ قال: «من أحب عليًا فقد أحبني، ومن أحبني فقد أحب الله، ومن أبغض عليًا فقد أبغضني، ومن أبغضني فقد أبغض الله».

وورد عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «كل سبب ونسب تنقطع يوم القيامة إلا سببي ونسبي»[1].

وورد أيضًا: « كل سبب ونسب منقطع يوم القيامة ما خلا سببي ونسبي، كل ولد أب آب فإن عصبتهم لأبيهم ما خلا ولد فاطمة فإني أبوهم وعصبتهم»[2].

وأخرج الطبراني مثله في الكبير عن المسور بن مخرمة أن رسول الله ﷺ قال:«**وأنه تنقطع يوم القيامة الأنساب والأسباب إلا نسبي وسببي**».

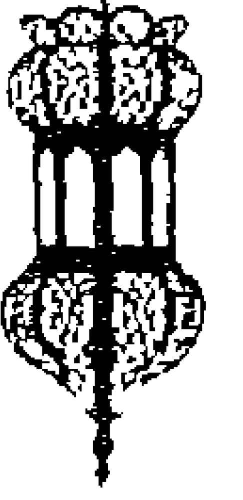
والفرق بين التوسل وبين التبرك ليس بعيدًا؛ لأن التوسل كما بيناه هو طلب حصول النفع على يد المتوسل به، والتبرك هو طلب حصول النفع بالمتبرك به.

فإذا كان المتبرك به شخصًا جاز أن يصبح التبرك في هذه الحالة توسلًا، أما إذا كان المتبرك به أثرًا أصبح التبرك في هذه الحالة قائمًا لطلب حصول النفع ببركة هذا الأثر كما تبين في سابق الأحاديث الشريفة والصحيحة التي أوردناها من الصحيحين.

وأود أن أعرض نقل ما أفاد به الشيخ الألباني رحمه الله في كتابه «التوسل»، وإن كان الحديث يتضمن ردًّا على ما قاله الدكتور البوطي في كتابه «فقه السيرة» يقول الشيخ الألباني: «إن التبرك هو التماس من حاز أثرًا من آثار النبي ﷺ في حصول خير به خصوصية له ﷺ، أما التوسل فهو إرفاق دعاء الله تعالى بشيء من الوسائل التي شرعها الله لعباده كأن يقول: اللهم إني أسألك بحبي لنبيك ﷺ أن تغفر لي ونحو ذلك، ويتبدى هذا الفرق في أمرين :

(1) فضائل الصحابة لأحمد بن حنبل 1069925 أحمد بن حنبل 241، زوائد المسانيد الثمانية لابن حجر العسقلاني 42114357 ابن حجر 852.

(2) فضائل الصحابة لأحمد بن حنبل 1070926 أحمد بن حنبل 241.



- أولهما: أن التبرك يرجى به شيء من الخير الدنيوي بخلاف التوسل الذي يرجى به أي شيء من الخير الدنيوي والأخروي.
- ثانيهما: أن التبرك هو التماس الخير العاجل بخلاف التوسل الذي هو مصاحب للدعاء ولا يستعمل إلا معه.

والشيخ هنا لم ينكر التبرك ولم ينكر التوسل أيضًا لكن بشروطه هو، حيث إنه لم يجز التوسل بالجاه والذات، بل أجاز التوسل بالدعاء كما تم إيضاحه، والشيخ رحمة الله عليه له رأيه واجتهاده وقد بينا في حديثنا عن الوسيلة أن التوسل في حديث الأعمى كان بالنبي ذاتًا وجاهًا وكل ما تحمل كلمة النبي في التوسل به من معنى بدليل أنه لم يرد في الحديث دعاء النبي للأعمى.

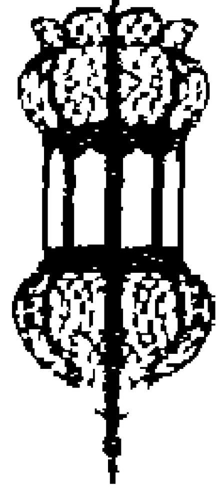
ورأي الشيخ أيضًا في التبرك يخالف فيه كثيرًا من العلماء فهو يرى أن التبرك يرجى به شيء من الخير الدنيوي أو على حد قوله هو التماس الخير العاجل، ويرى الكثير جواز التبرك لحصول خير دنيوي أو أخروي، فليس هناك ما يمنع؛ لأن المعطي والنافع هو الله فلا يكون عطاؤه قاصرًا على نفع دنيوي، وليس لعالم مهما كان علمه له أن يحدد عطاء الله لعبده دنيا أو أخرى.

ويقول فضيلة الشيخ المحدث الألباني:

«إننا نرى أن التوسل بآثار النبي ﷺ غير مشروع البتة، وأن من الافتراء على الصحابة - رضوان الله عليهم- الادعاء بأنهم كانوا يتوسلون بتلك الآثار ومن ادعى خلاف رأينا فعليه الدليل بأن يثبت أن الصحابة كانوا يقولون في دعائهم مثلًا:

اللهم ببصاق نبيك اشف مرضانا أو ببول نبيك أو غائطه أجرنا من النار. إن أحدًا من العقلاء لا يستسيغ رواية ذلك مجرد رواية فكيف باستعماله؟!

هذا ما قاله الشيخ الألباني في رده على الدكتور البوطي وهو يعلم تمامًا أن الدكتور البوطي لم يذكر هذا في كتابه «فقه السيرة» ولم يتلفظ به كما تلفظ به الشيخ الألباني وكان يجب ألا يكون الخلاف في الرأي مدعاة لأن يتلفظ عالم جليل كالشيخ الألباني بألفاظ يقول فيها بول النبي وغائطه وبصاقه ويخرجه غضبه وحدته عن أدب العلماء في التحدث عن رسول الله ﷺ بمثل ما قال. أسأل الله له المغفرة والرحمة.



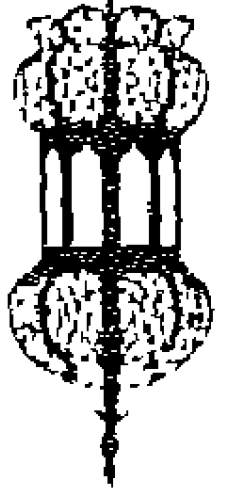
ولكن أعجب عندما يقول: «هذا ولابد من الإشارة إلى أننا نؤمن بجواز التبرك بآثاره ﷺ ولا ننكره خلافًا لما يوهمه صنيع خصومنا، لكن ثمة أمر يجب تبيانه وهو أن النبي ﷺ وإن أقر الصحابة في غزوة الحديبية وغيرها على التبرك بآثاره والتمسح بها وذلك لغرض مهم وخاصة في تلك المناسبة وذلك الغرض هو إرهاب كفار قريش وإظهار مدى تعلق المسلمين بنبيهم وحبهم له وتفانيهم في خدمته».

والغرض الذي علل الشيخ عليه استدلاله باطل لا يحتاج من المسلمين أن يظهروا للمشركين محبتهم له وتفانيهم في حبه وهم قادمون معه بأرواحهم وأنفسهم للقتال في سبيل إعلاء كلمة الله وما ساقه الشيخ بأن التبرك والتمسح بآثاره ﷺ كان في غزوة الحديبية باطل وغير صحيح، فلم يكن النبي ﷺ في غزوة الحديبية عندما كان نائمًا في بيت أم سليم ولم يكن كذلك عندما يحلق شعره أو غير ذلك كثير. ولم تكن أم مالك - رضي الله عنها- في غزوة الحديبية عندما ذهبت إليه لتعلمه خبر عصر عكتها، ولم يكن السائب بن يزيد في غزوة الحديبية عندما ذهبت به خالته إلى النبي ﷺ ولم تشك له وجعًا بابن أختها، ولم يكن جابر في غزوة الحديبية عندما زاره رسول الله ﷺ في مرضه، ولم تكن الغلمان أو الصبيان في غزوة الحديبية عندما كان النبي ﷺ يحنكهم ويُبَرِّكهم.

ثم ساق الشيخ رحمة الله عليه حديثًا رواه عن عبد الرحمن بن أبي قراد رضي الله عنه أن النبي ﷺ توضأ يومًا فجعل أصحابه يتمسحون بوضوئه، فقال لهم النبي ﷺ: «ما يحملكم على هذا ؟» قالوا: حبُّ الله ورسوله. فقال النبي ﷺ : «من سَرَّه أن يحب الله ورسوله أو يحبه الله ورسوله فليصدق إذا حدث وليؤد أمانته إذا اؤتمن وليحسن جوار من جاوره».

وقال رحمه الله: إن هذا الحديث له طرق وشواهد في معجمي الطبراني وغيرهما. وقد أشار المنذري في «الترغيب» إلى تحسينه وقد خرجه رحمة الله عليه.

وعلى الرغم من أن هذا الحديث لم يرد لا في صحيح البخاري ولا في صحيح مسلم ولا في سنن الترمذي أو النسائي أو ابن ماجه أو مستدرك الحاكم فإن هذا الحديث لا يعارض مطلقًا ما جاء في الأحاديث التي أوردناها والدالة على التبرك بآثاره ﷺ



وفي الحديث المذكور لم ينههم النبي ﷺ عما فعلوا فلم يقل لهم لا تفعلوا أو لمَ فعلتم أو أنهاكم أن تفعلوا بل قال لهم: «ما الذي حملكم على ما صنعتم؟» فسؤاله لهم من باب الود والملاطفة فزاد لهم أن من حبه أيضًا صدق الحديث وأداء الأمانة وحسن الجوار حتى إنه في نهاية الحديث لم يصدر عنه ﷺ نهي عما فعله الصحابة رضوان الله عليهم. ولم يكن التبرك بآثاره مقتصرًا على حياته ﷺ، بل كان التبرك بآثاره موجودًا بعد وفاته أيضًا..

يدل عليه ما رواه الإمام مسلم عن عبد الله مولى أسماء بنت أبي بكر قالت : هذه جُبَّة رسول الله ﷺ فأخرجت إليَّ جبة طيالسة كسروانية لها لبنة ديباج وفرجيها مكفوفين بالديباج فقالت: هذه كانت عند عائشة حتى قبضت، فلما قبضت قبضتها وكان النبي ﷺ يلبسها فنحن نغسلها للمرضى يُستشفى بها.

لها لبنة: أي رقعة في جيب القميص.

فرجيها مكفوفين: هو ما يكف به الجوانب ويعطف عليها ويكون ذلك في الذيل وفي الفرجين وفي الكمين.

كسروانية: نسبة إلى كسرى ملك الفرس.

وكان لعبد القاسم بن المأمون قصعة من قصاع النبي ﷺ يجعلون الماء فيها للمرضى فيشفون بها. هكذا في صحيح مسلم أيضًا.

وروى ابن كثير في كتابه «البداية والنهاية» عن علقمة بن أبي علقمة عن أمه قالت: قدم معاوية بن أبي سفيان المدينة فأرسل إلى عائشة أن أرسلي بأنبجانية رسول الله ﷺ وشعره، فأرسلت به معي أحمله حتى دخلت به عليه فأخذ الأنبجانية فلبسها وأخذ شعره ودعا بماء فغسله وشربه وأفضى على جلده.

وروى ابن كثير أيضًا في كتابه «البداية والنهاية» أن آخر خطبة خطبها معاوية أوصى بها ابنه فقال:

«إذا دنا أجلي فولِّ غسلي رجلًا لبيبًا، فإن اللبيب من الله بمكان، فلينعم الغسل وليجهر بالتكبير، ثم اعمد إلى منديل في الخزانة فيه ثوب من ثياب رسول الله ﷺ

وقرادة من شعره وأظفاره، فاستودع القرادة أنفي وفمي، وأذني وعيني، واجعل ذلك الثوب مما يلي جلدي دون لفافي».

كان هذا كلام الصحابي الجليل معاوية بن أبي سفيان في آخر خطبة خطبها في الناس أقر فيها تبركه بشعر وأظافر وثوب رسول الله ﷺ بعد وفاة النبي ﷺ بسنين كثيرة.

ونرد على من أنكروا التبرك من أتباع ابن تيمية بما جاء في كتاب «العقود الدرية» لابن عبد الهادي المقدسي، وهو أحد تلاميذ الشيخ ابن تيمية وأيضًا ما أكده العلامة ابن كثير في كتابه «البداية والنهاية» وهو نفس حديث المقدسي نقول: لقد زادوا في الإطراء بشيخهم حتى بعد وفاته وبالغوا في تعظيمه ما لم يعظم به الصوفية أشياخهم وما لم يفعله أصحاب رسول الله ﷺ عند وفاته وغسله ﷺ.

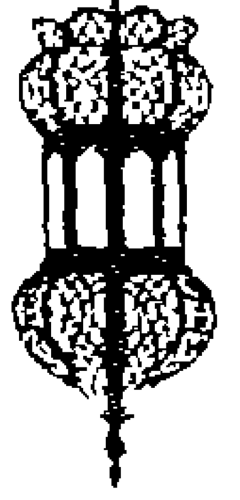
يقول ابن عبد الهادي المقدسي في كتابه «العقود الدرية» يصف غسل ابن تيمية وجنازته: وشرب جماعة الماء الذي فضل من غسله واقتسم جماعة بقية السدر الذي غسل به، وقيل: إن الطاقية التي كانت على رأسه دفع فيها خمسمائة درهم وقيل: إن الخيط الذي فيه الزئبق الذي كان في عنقه بسبب القمل دفع فيه مائة وخمسون درهمًا، وحصل في الجنازة ضجيج وبكاء، وخُتِمَ له خِتَمٌ كثيرة بالصالحية والبلد وتردد الناس على قبره أيامًا كثيرة ليلاً ونهارًا ورئيت له منامات كثيرة صالحة.

وزاد ابن كثير في قوله: «تردد الناس على قبره أيامًا كثيرة ليلاً ونهارًا يبيتون ويصبحون ورئيت له منامات كثيرة ورثاه جماعة بقصائد جمة».

وقال أيضًا: وحضر نساء كثيرات بحيث حُزرن بخمسة عشر ألف امرأة غير اللاتي كن على الأسطح وغيرها، وأما الرجال فحُزروا بستين ألفًا إلى مائة ألف إلى أكثر من ذلك إلى مائتى ألف.

وقال ابن كثير بعد وفاة الشيخ ابن تيمية أيضًا:

«وحضر جمع كثير إلى القلعة وأذن لهم في الدخول عليه - يعني في الدخول على جثمان ابن تيمية - وحبس جماعة عنده قبل الغسل وقرءوا القرآن وتبركوا برؤيته وتقبيله، ثم حضر جماعة من النساء ففعلن مثل ذلك ثم انصرفن».



وعلينا أن نورد عديدًا من الأسئلة ليجيب عنها أتباع ابن تيمية فنقول:

لماذا شرب جماعة الماء الذي فضل من غسله ؟ ولماذا اقتسم جماعة بقية السدر الذي غُسِّل به؟

فإن حاصل جوابكم «ولا يوجد غيره» هو التبرك بماء غسله فلماذا أنكر شيخكم وأنكرتم من بعده التبرك بالصالحين وأهل بيت رسول الله ﷺ رضوان الله عليهم أجمعين؟

وسؤال آخر: لماذا دفع في طاقية الشيخ خمسمائة درهم ودفع في الخيط الذي فيه الزئبق مائة وخمسون درهمًا؟

أليس ذلك لحيازتها للتبرك كأثر من آثار الشيخ رحمه الله؟

ولماذا خُتِمَت له خِتَمٌ كثيرة بالصالحية والبلد ؟

ولماذا قرءوا القرآن قبل غسله وتبركوا برؤيته وتقبيله؟ ألم ينكر ابن تيمية ومن بعده وصول ثواب القراءة للأموات؟

ولماذا تردد الناس على قبره أيامًا كثيرة ليلاً ونهارًا يبيتون ويصبحون ؟

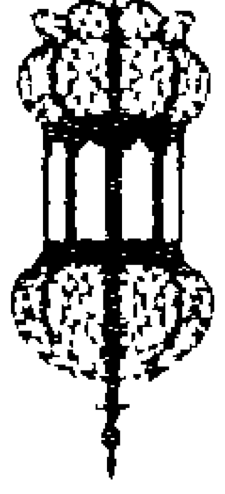
ألم ينكر ابن تيمية التردد على قبور الصالحين بقصد التبرك وأنكرتم ذلك من بعده حتى أنكم أنكرتم زيارة النبي ﷺ بقصد التوسل به.

لكن هؤلاء العاشقين لأستاذهم وشيخهم ابن تيمية فعلوا ما فعلوه حبًّا في شيخهم وتبركًا به، حتى نساؤهم - كما روى ابن كثير - فعلن مثلما فعل الرجال ولم نقرأ أن أحدهم عارضهن أو منعهن.

هؤلاء لن يجدوا مناصرين لهم ومؤيدين لفعلهم غير الصوفية الذين أنكروا عليهم حبهم لأشياخهم وتبركهم بهم؛ لأن من ذاق عرف.

هل يا ترى لقي هؤلاء الأتباع للشيخ ابن تيمية من يقول لهم هذا شرك وتلك بدعة؟

أم أن هذا حلال عند قبر ابن تيمية وحرام عند غيره من الصوفية الذين شاء الله لهم أن يدفن ابن تيمية بين مقابرهم؟!



الباب السابع

بين الصوفيِّ والفقيه

ونعرض بين هذه السطور حوارًا طريفًا بين الصوفي الكبير ابن عطاء الله السكندري والشيخ الفقيه ابن تيمية عندما قدم إلى القاهرة وحضر إلى الجامع الأزهر ليؤدي صلاة المغرب، فصلى مأمومًا خلف ابن عطاء الله وبعد صلاة المغرب فوجئ به ابن عطاء الله السكندري يصلي خلفه ففرح به واستقبله فرحًا بوصوله إلى القاهرة ودار بينهما حوارٌ ننقله لقارئنا ليقف على فقه كل منهما في معنى الاستغاثة أو الوسيلة أو الشفاعة.

قال له ابن عطاء الله: «ألفت أن أصلي المغرب في جامع مولانا الحسين، وأصلي العشاء هنا، فانظر تقدير الله؛ قدر لي أن أكون أول من يلقاك..أعاتب أنت عليَّ يا فقيه؟».

فقال ابن تيمية: «أعرف أنك ما تعمدت إيذائي، ولكنه الخلاف في الرأي، على أن من آذاني فهو منذ اليوم في حِلٍّ مني».

قال ابن عطاء الله: «ماذا تعرف عني يا شيخ ابن تيمية ؟».

قال: «أعرف عنك الورع، وغزارة العلم، وحدة الذهن، وصدق القول، وأشهد أني ما رأيت مثلك في مصر ولا في الشام حبًّا لله أو فناء فيه أو انصياعًا لأوامره ونواهيه. ولكنه الخلاف في الرأي. فماذا تعرف عني أنت لتدعي عليَّ بالضلال إذ أنكر استغاثة غير الله؟».

قال ابن عطاء الله: «إني أعجب لك يا فقيه، فأنت نصير للسُّنَّة تستوعب الآثار حفظًا وفهمًا، كامل الفكر، سريع الإدراك، ولكنك تطلق عبارات أحجم عنها الأولون والآخرون، وتخرج فيها عن مذهب إمامك أحمد، ومذاهب سائر الأئمة».



فقال ابن تيمية: «من تعصب لمذهب بعينه، فقد أشبه أهل الأهواء، وغاية المتعصب لواحد من أئمة المذاهب أن يكون جاهلًا بقدره في العلم والدين وقدر الآخرين. فيكون ظالمًا، والله ينهى الإنسان عن الجهل والظلم ويأمر بالعلم والعدل. قال تعالى: ﴿وَحَمَلَهَا ٱلۡإِنسَٰنُۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومٗا جَهُولٗا ﴾ [الأحزاب: 72] وهذان - أبو يوسف ومحمد - كانا أتبع الناس لأبي حنيفة وأعلمهم بقوله، خالفاه في مسائل تكاد تَعُدُّ المائتين لهما من السُّنَّة والحجة ما أوجب عليهما اتباعه. وهما في ذلك يعظمان إمامهما. وأنا أقول بما قام عليه الدليل عندي لا أداهن ولا أحابي، وما أظن أن أحدًا من فقهاء هذا الزمان أشد حبًّا لرسول الله ﷺ مني، ولا أكثر اتباعًا له مني، فإذا صح عندي الحديث تركت أقوال الأئمة، وأخذت به، وبهذا نصحوا هم أنفسهم».

قال ابن عطاء الله: «أما آن لك يا فقيه أن تعرف أن الاستغاثة هي الوسيلة والشفاعة، وأن الرسول ﷺ يستغاث، ويتوسل به، ويستشفع به ؟».

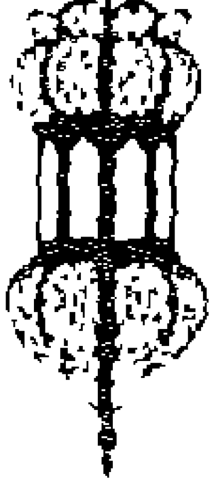
قال ابن تيمية: «أنا في هذه أتبع السُّنَّة الشريفة؛ فقد جاء في الحديث الصحيح: «أعطيت الشفاعة»[1]. وقد أجمعت الآثار في تفسير الآية الكريمة: ﴿ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا﴾ [الإسراء: 79]، على أن المقام المحمود هو الشفاعة. والرسول ﷺ لما ماتت أم أمير المؤمنين علي - رضي الله عنهما - دعا لها الله على قبرها: «الله الذي يحيي ويميت، وهو حي لا يموت، اغفر لأمي فاطمة ابنة أسد، ووسِّع عليها مدخلها، بحق نبيك والأنبياء الذين من قبلي، فإنك أرحم الراحمين». فهذه هي الشفاعة. أما الاستغاثة ففيها شبهة الشرك بالله تعالى، ولهذا منعها سدًّا للذرائع، قال تعالى: ﴿فَلَا تَدۡعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدٗا ﴾ [الجن: 18].

وقد أمر الرسول ابن عمه عبد الله بن عباس ألا يستعين بغير الله.

قال ابن عطاء الله:

«أصلحك الله يا فقيه؛ أمَّا نصيحة رسول الله ﷺ لابن عباس فقد أراد أن يتقرب إلى الله بعمله لا بقرابته من الرسول، وأما فهمك أن الاستغاثة استغاثة بغير الله فهي شرك، فَمَنْ مِنَ المسلمين الذين يؤمنون بالله ورسوله يحسب أن غيره تعالى يقضي

(1) رواه البخاري.



ويقدر ويثيب ويعاقب ؟!.. إنما هي ألفاظ لا تؤخذ على ظاهرها، ولا خوف من الشرك لنسد إليه الذريعة ! فكل من استغاث الرسول، فهو إنما يستشفع به عند الله مثلما تقول أنت، أشبعني هذا الطعام فهل الطعام هو الذي أشبعك أم أن الله تعالى هو الذي أشبعك بالطعام ؟ أما قولك إن الله نهانا أن ندعو غيره، فهل رأيت من المسلمين أحدًا يدعو غير الله ؟ إنما أنزلت هذه الآية في المشركين الذين كانوا يدعون آلهتهم من دون الله! إنما يستغيث المسلمون محمدًا ﷺ، بمعنى التوسل بحقه عند الله، والتشفع بما رزقه الله من شفاعة، أما تحريمك الاستغاثة لأنها ذريعة إلى الشرك؛ فإنك كمن أفتى بتحريم العنب لأنه ذريعة إلى الخمر، وبخصي الذكور غير المتزوجين سدًّا للذريعة إلى الزنا..!).. وضحك الشيخان.

واستطرد ابن عطاء الله: «وأنا أعلم ما في مذهب شيخكم الإمام أحمد من سعة، وما لنظرك الفقهي من إحاطة، فسد الذرائع عندكم مشروط بظروفه، فيمنع المباح إذا أدى إلى ضرر يغلب وقوعه، كتحريم بيع السلاح في زمن الفتنة، أو تحريم زيادة السعر في البيع إذا كان الثمن يدفع على فترات، سدًّا للذريعة إلى الربا.

إن الأخذ بظاهر المعنى يوقع في الغلط أحيانًا يا فقيه، ومن هذا رأيك في ابن عربي، وهو إمام ورع من أئمة الدين. فقد فهمت ما كتبه على ظاهره، والصوفية أصحاب إشارات وشطحات روحية، ولكلماتهم أسرار، فكان يتعين على من هو في مثل حذقك، وحدة ذهنك، وعلمك باللغة أن يبحث عن المعاني المكنونة الخفية وراء ظاهر الكلمات. فالمعنى الصوفي روح، والكلمة جسد، فاستقص ما وراء الجسد لتدرك حقيقة الروح.

ثم إنك اعتمدت في حكمك على ابن عربي، على نصوص قد دسها عليه خصومه! أما شيخ الإسلام عز الدين بن عبد السلام، فإنه لما فهم كتابات الشيخ، وحل رموزها وأسرارها، وأدرك إيحاءاتها، استغفر الله عما سلف منه، وأقر بأن محيي الدين ابن عربي إمام من أئمة الإسلام.

وأما كلام الشيخ الشاذلي، فليس أبو الحسن الشاذلي هو الذي قاله، بل أحد تلاميذه من الشاذلية، وهو ما قاله في الشيخ ابن عربي، بل في بعض المريدين الذين فهموا كلامه على غير وجهه».

وسكت ابن عطاء الله قليلًا ثم سأل: «ما رأيك في شيخك الإمام أحمد بن حنبل رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ؟».

قال: «أحمد كان أعلم من غيره بالكتاب والسُّنَّة وأقوال الصحابة والتابعين لهم بإحسان؛ ولهذا لا يكاد يوجد له قول يخالف نصًّا، كما يوجد لغيره، ولا يوجد له قول ضعيف، إلا وفي مذهبه في الغالب قول يوافق القول الأقوى، وأكثر ما انفرد به مخالفًا مذهب غيره، يكون قوله راجحًا، كقبول شهادة أهل الذمة على المسلمين عند الحاجة، وكالوصية في السفر وغير ذلك من المسائل».

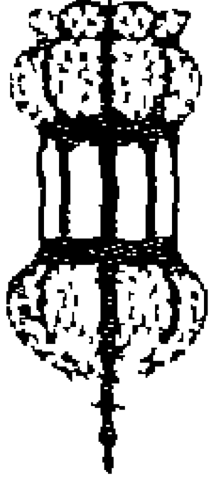
سأل ابن عطاء الله: «وما رأيك في أمير المؤمنين الإمام علي بن أبي طالب؟».

أجاب ابن تيمية: رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وأرضاه في الحديث الصحيح أن الرسول ﷺ قال: «أنا مدينة العلم وعليّ بابها» (رواه الشوكاني في الفوائد المجموعة وقال: حسن لغيره في روايات عن الأعمش عن مجاهد عن ابن عباس، ورواه المحدِّث السخاوي في «المقاصد الحسنة» عن عبد الله بن عباس 123 وزاد فيه: «فمن أتى العلم فليأت الباب»، ورواه ابن حجر العسقلاني في اللآلئ المصنوعة 1/ 234). وهو المجاهد الذي لم يبارز أحدًا إلا غلبه. فسن للعلماء والفقهاء من بعده أن يجاهدوا في سبيل الله باللسان والقلم والسيف جميعًا. وكان كرم الله وجهه أقضى الصحابة، وكلماته سراج منير أستضيء به في حياتي، بعد الكتاب والسُّنَّة، وآه من قلة الزاد وطول السفر !).

فقال ابن عطاء الله: «فهل يسأل أمير المؤمنين علي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وكرم الله وجهه، من شايعوه، فغالوا، وزعموا أن جبريل أخطأ، فجاء بالرسول محمد ﷺ بدلًا من علي؟! أو عن الذين زعموا أن الله حل في جسده، فصار الإمام إلهًا؟ ! ألم يقاتلهم وقتلهم؟! أما أفتى بقتلهم أينما ثقفوا؟!).

فقال ابن تيمية: «وبهذه الفتوى خرجت لقتالهم في الجبال بالشام منذ أكثر من عشرة أعوام».

استمر ابن عطاء الله: «والإمام أحمد رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، أيسأل عما فعله بعض أتباعه، من كبس الدور، وإراقة الخمور، وضرب المغنيات والراقصات، واعتراض الناس في الطرقات باسم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ؟ !! أما أفتى رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بتعزير هؤلاء،



فجلدوا وسجنوا، وطيف بهم مقلوبين على ظهور الحمير؟! أم هل الإمام أحمد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مسئول عن تلك الأعمال التي ما زال أراذل الحنابلة يأتونها حتى يومنا هذا باسم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؟!».

قال ابن تيمية: «فالشيخ محيي الدين ابن عربي، بريء مما يصنعه أتباعه من إسقاط التكاليف الدينية، واقتراف المحرمات؟!.. أترى هذا ؟ ولكن أين تذهبون من الله وفيكم من يزعم أنه ﷺ بشَّر الفقراء بأنهم يدخلون الجنة قبل الأغنياء، فسقط الفقراء منجذبين، ومزقوا ملابسهم وعندئذ نزل جبريل وقال للنبي إن الله تعالى يطلب قطعة من هذه المزق، فحمل جبريل واحدة منها وعلقها على عرشه تعالى!!.. ولهذا يلبس الصوفية المرقعات ويسمون أنفسهم الفقراء !!».

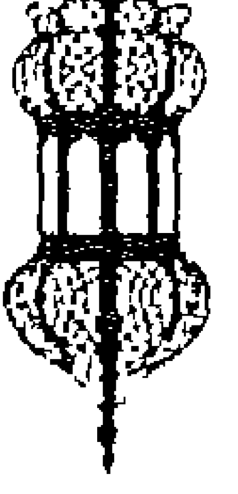
قال ابن عطاء الله: «ما كان الصوفية يلبسون الخرق، وهاأنا أمامك، فما تنكر من هيئتي؟!».

قال ابن تيمية: «أنت من رجال الشريعة وصاحب حلقة في الأزهر».

قال ابن عطاء الله: «والغزالي كان إمامًا في الشريعة والتصوف على السواء. وقد عالج الأحكام والسُّنَن الشرعية بروح المتصوف، وبهذا المنهج استطاع إحياء علوم الدين. نحن نُعَلِّم الصوفية أن القذارة ليست من الدين، وأن النظافة من الإيمان، وأن الصوفي الصادق يجب أن يعمر قلبه بالإيمان الذي يعرفه أهل السُّنَّة.

لقد ظهر بين الصوفية منذ قرنين من الزمان، أشياء كالتي تنكرها الآن، استخفوا بأداء العبادات واستعانوا بالصوم والصلاة وركضوا في ميدان الغفلات.... وادعوا أنهم تحرروا من رق الأغلال ثم لم يرضوا بما تعاطوه من سوء هذه الأفعال، حتى أشاروا إلى أعلى الحقائق والأحوال، كما وصفهم القشيري الإمام الصوفي العظيم فوجَّه إليهم الرسالة القشيرية، ترسم طريق الصوفي إلى الله وهي تمسكه بالكتاب والسُّنَّة.

إن أئمة الصوفية يريدون الوصول إلى الحقيقة، لا بالأدلة العقلية التي تقبل العقل، بل بصفاء القلب ورياضة النفس، وطرح الهموم الدنيوية، فلا ينشغل العبد بغير حب الله ورسوله، وهذا الانشغال السامي يجعله عبدًا صالحًا، جديرًا بعمارة الأرض، وإصلاح ما أفسده حب المال، والحرص على الجاه، والجهاد في سبيل الله»..

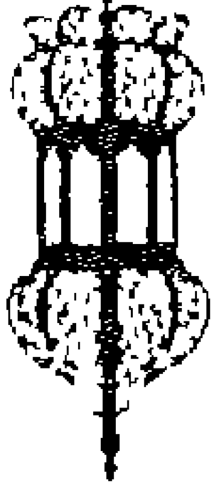


قال ابن تيمية: «هذا الكلام عليك لا لك، فالقشيري لما رأى أتباعه يضلون الطريق، قام عليهم ليصلحهم، فماذا فعل شيوخ الصوفية في زماننا؟ إنما أريد من الصوفية أن يسيروا على سُنَّة هذا السلف العظيم من زهاد الصحابة والتابعين وتابعيهم بإحسان. إني أقدر منهم من يفعل ذلك وأراه من أئمة الدين. أما الابتداع وإدخال أفكار الوثنيين من متفلسفة اليونان وبوذية الهند، كادعاء الحلول والاتحاد ووحدة الوجود، ونحو ذلك مما يدعو إليه صاحبك فهذا هو الكفر المبين».

قال ابن عطاء الله: «ابن عربي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كان أكبر فقهاء الظاهر بعد ابن حزم الفقيه الأندلسي المقرب إليكم يا معشر الحنابلة. كان ابن عربي ظاهريًّا في الشريعة، ولكنه يسلك إلى الحقيقة طريق الباطن، أي تطهير الباطن!.. وليس كل أهل الباطن سواء!.. ولكيلا تضل أو تنسى، أعد قراءة ابن عربي بفهم جديد لرموزه وإيحاءاته، تجده مثل القشيري، قد اتخذ طريقه إلى التصوف في ظل ظليل من الكتاب والسُّنَّة. إنه مثل حجة الإسلام الشيخ الغزالي، يحمل على الخلافات المذهبية في العقائد والعبادات، ويعتبرها انشغالًا بما لا جدوى منه، ويدعو إلى أن تكون محبة الله هي طريقة العبد في الإيمان. فماذا تنكر من هذا يا فقيه ؟ أم أنك تحب الجدل الذي يمزق أهل الفقه؟ لقد كان الإمام مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يحذر من الجدل في العقائد ويقول: كلما جاء رجل أجدل من رجل، نقص الدين».

قال ابن تيمية: «اعلم أن الساعي إلى الله تعالى لينال قربه هو القلب دون البدن، ولست أعني بالقلب اللحم المحسوس، بل هو سر من أسرار الله عز وجل لا يدركه الحس). إن أهل السُّنَّة هم الذين لقبوا الغزالي – شيخ المتصوفة- بحجة الإسلام، ولا معقب على آرائه، فقد غالى بعضهم في تقدير كتابه «إحياء علوم الدين» فقال: كاد الإحياء أن يكون قرآنًا..».

قال ابن عطاء الله السكندري: «إن أداء التكاليف الشرعية في رأي ابن عربي وابن الفارض، عبادة محرابها الباطن، لا شعائر ظاهرية. فما جدوى قيامك وقعودك في الصلاة إذا كنت مشغول القلب بغير الله ؟! مدح الله تعالى أقوامًا بقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي صَلَاتِهِمۡ خَٰشِعُونَ﴾ [المؤمنون: 2]، وذم أقوامًا بقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ هُمۡ



عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴾ [الماعون: 5]. وهذا هو الذي يعنيه ابن عربي بقوله: «إن التعبد محرابه القلب أي الباطن، لا الظاهر !.. إن المسلم لا يستطيع أن يصل إلى إدراك علم اليقين وعين اليقين إلا إذا أفرغ قلبه مما يشوش عليه من أطماع الحياة الدنيا، وركز في التأمل الباطني، فغمرته فيوض الحقيقة. ومن هنا تنبع قوته. فالصوفي الحق ليس هو الذي يستجدي قوته، ويتكفف الناس، إنما هو الصادق الذي يهب روحه وقلبه، ويفنى في الله بطاعة الله، ومن هنا تنبع قوته، فلا يخاف غير الله..

ولعل ابن عربي قد أثار عليه بعض الفقهاء؛ لأنه أزرى على اهتمامهم بالجدل في العقائد، مما يشوش على صفاء القلب، ثم في فروع الفقه وافتراضاته فأسماهم فقهاء الحيض وأعيذك بالله أن تكون منهم..

ألم تقرأ قول ابن عربي: «من يبني إيمانه بالبراهين والاستدلالات، لا يمكن الوثوق بإيمانه، فهو يتأثر بالاعتراضات. فاليقين لا يستنبط بأدلة العقل إنما يغترف من أعماق القلب. ألم تقرأ هذا الكلام الصافي العذب قط ؟».

قال ابن تيمية: «أحسنت والله، إن كان صاحبك كما تقول فهو أبعد الناس عن الكفر، ولكن كلامه لا يحمل هذه المعاني».

قال ابن عطاء الله: «إن له لغة خاصة، وهي مليئة بالإشارات والرموز والإيحاءات والأسرار والشطحات... ولكن فلنشتغل بما هو أجدى.. بما يحقق مصلحة الأمة».

كان هذا فهم ابن عطاء الله وكان ذاك فهم ابن تيمية، فابن عطاء يرى أن الشيخ ابن عربي له لغة خاصة يدركها أصحاب هذه الأحوال ويرى ابن تيمية بعد أن استوضح عبارات الشيخ ابن عربي أن الرجل أبعد الناس عن الكفر ولكنه عندما أشار إلى أن كلامه لا يحمل هذه المعاني فعليها كانت إجابة ابن عطاء بأن الشيخ له لغة خاصة.

وحديث ابن عطاء الله السكندري يبين أن الشيخ ابن تيمية قد أطلق عبارات في اتهام الصوفية بالزيغ والضلال وأحيانًا بالشرك أو الكفر، عبارات أحجم عنها الأولون والآخرون، وبيَّن لابن تيمية أن الاستغاثة هي الوسيلة وهي الشفاعة، وأن الرسول ﷺ يُستغاث به ويُستشفع به، وأوضح له أن نصيحة رسول الله ﷺ لابن عباس في الحديث الذي قال له فيه: «احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا



سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لن ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولَئِن اجتمعت على أن يضروك بشيء لن يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف»[1].
إنما أراد له أن يتقرب إلى الله بعمله لا بقرابته من رسول الله ﷺ.

ويجب أن تؤخذ الألفاظ على ظواهرها، فالأخذ بظاهر المعنى كما يقول ابن عطاء يوقع في الخطأ كما فهم ابن تيمية ما كتبه محيي الدين ابن عربي على ظاهره.

وفي هذا الحوار الشيق أراد ابن عطاء الله أن ينقل ابن تيمية من دعوى اتهامه للصوفية بالزيغ والضلال إلى البحث في مذاهبهم وتدارس أفكارهم وإشاراتهم كما فعل غيره من أكابر العلماء كالعز بن عبد السلام وابن دقيق العيد والإمام الغزالي وغيرهم رحمة الله عليهم أجمعين.

ولنا لفتة طريفة على قول الحبيب المصطفى لابن عباس: «احفظ الله يحفظك. احفظ الله تجده تجاهك».. فمن الذي يكون الله قِبْلته ويسأل غيره؟!

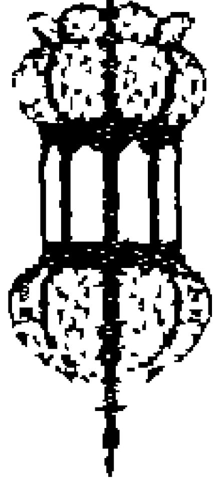
فكان طبيعيًّا أن يكون أمر الرسول ﷺ له إذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله.

وبعد أن نترك لقارئ منصف هذا الحوار بين شيخنا ابن عطاء الله السكندري والإمام الفقيه أحمد تقي الدين بن شهاب الدين عبد الحليم ابن عبد السلام بن تيمية ليقف على ما ذهب إليه الشيخان في حوارهما، تعالوا نسمع ما قاله شيخنا العارف بالله محيي الدين ابن عربي:

قال رضي الله عنه : «إن الأمر الإلهي التشريعي انتهى بانتهاء الأنبياء وختم بخير الرسل فما بقي للولي العابد العالم إلا المناجاة الإلهية التي لا أمر فيها وإنما سمرًا وحديثًا ومحبة ورضًا فكل من قال من أهل الكشف إنه مأمور بأمر إلهي في حركاته وسكناته مخالف لأمر شرعي محمدي تكليفي فقد التبس عليه أو زج بنفسه بيننا وليس منا».

---

(1) أخرجه الترمذي من رواية حنش الصنعاني، وأخرجه الإمام أحمد.



هذا هو محيي الدين ابن عربي وهذا فهمه أنه نداء لكل صوفي. إن الطريق إلى الله هو التمسك بالكتاب والسُّنَّة ثم يرسم لنا فهمًا في الطريق إلى الله فيقول رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «اعلم أن الطريق إلى الله تعالى الذي سلكت عليه الخاصة من المؤمنين الطالبين نجاتهم دون العامة الذين شغلوا أنفسهم بغير ما خلقت له على أربع شعب: بواعث، ودواعي، وأخلاق، وحقائق، والذي دعاهم إلى هذه الدواعي والبواعث والأخلاق والحقائق ثلاثة حقوق فرضت عليهم: حق لله سبحانه وتعالى وحق للخلق وحق لأنفسهم. فالحق الذي لله سبحانه وتعالى عليهم أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا، والحق الذي للخلق عليهم كف الأذى كله عنهم ما لم يأمر به شرع من إقامة حد وصنائع المعروف معهم على الاستطاعة والإيثار ما لم ينه عنه شرع فإنه لا سبيل إلى موافقة الغرض إلا بلسان الشرع».

وقبل أن نستكمل هذا الفيض الشيق من ثمر حديقة هذا الإمام العارف لنقف عند قوله: «ما لم يأمر به شرع من إقامة حد وصنائع المعروف معهم على الاستطاعة والإيثار ما لم ينه عنه شرع فإنه لا سبيل إلى موافقة الغرض إلا بلسان الشرع».

فهل يصح اتهام مثل هذا الرجل بعدول عن شرع الله أو رميه بالزندقة أو الكفر؟

ثم يستطرد شيخنا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في حديثه فيقول:

«والحق الذي لأنفسهم عليهم ألا يسلكوا بها من الطرق إلا الطريق الذي فيه سعادتها ونجاتها وهو طريق الفطرة فإن أبت فلجهل قام بها أو سوء طبع، فإن النفس الأبية إنما يحملها على إتيان الأخلاق الفاضلة دين أو مروءة فالجهل يضاد الدين وسوء الطبع يضاد المروءة».

هذا كلام الشيخ ابن عربي لنرد به على معارضيه والحقيقة أنه لا ينبغي إنكار المذاق على من ذاق.

يقول ابن الفارض:

دع عنك تعنيفي وذق طعم الهوى ... فإذا عشقت فبعد ذلك عنِّفِ

وهذا علي بن أبي طالب يقول: «إن بين جنبي علمًا لو قلته لخضبتم هذه من هذه».
(أي لحيته من دم رقبته).

وإليه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ينسب هذان البيتان حيث يقول:

إني لأعلم علمًا لو أبوح بـــــه   لقيل لي أنت ممن يعبد الوثنا

ولاستباح رجال مسلمون دمي   وكان أقبح ما يأتونه حســـنا

ويحضرني قول ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ﴾ [الطلاق: 12] : لو ذكرت لكم تفسيره لرجمتموني وفي رواية: لقلتم إنى كافر، أو كفرتموني.

وكذلك قول الصحابي الجليل أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «حفظت عن رسول الله ﷺ وعاءين من علم؛ أما أحدهما فبثثته، وأما الآخر فلو بثثته لَقُطع مني هذا الحلقوم». وفي رواية: «آتاني رسول الله ﷺ وعاءين من العلم؛ بثثت أحدهما، وكتمت الآخر»[1].

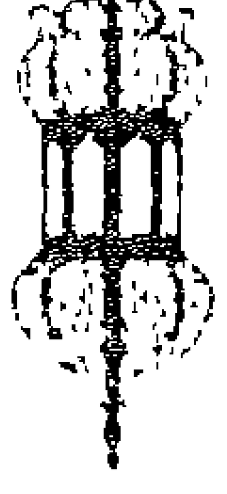
نعم لقد روى أبو هريرة عن رسول الله ﷺ خمسة آلاف وثلاثمائة وأربعة وستين حديثًا؛ وعاء أمر ببثه ولكن حلقوم أبي هريرة لم يُقطع لأنه لم يبث الوعاء الثاني الذي تحدث منه الحلاج فصلب، وعندما رآه أحد محبيه على خشبة الصلب قال له: يا إمام، ما هو التصوف؟ فقال له: «أهونه ما ترى».

الوعاء الثاني تحدث منه ابن عربي فرموه بالكفر والزندقة وتحدث منه ابن الفارض فرموه بما رموا به شيخه.

ولم يكن ابن تيمية رحمه الله وحده هو الذي هاجم بفكره هؤلاء القوم أو من نقلوا عنه أو الذين لم يفهموا ما أراد الشيخ وأقصد ما أراد به ابن تيمية، فإن الشيخ ابن تيمية عالم جليل يعلم تمامًا مذاقات القوم ومشاربهم كما أوضحنا ذلك في كتاباته عنهم ولكنه وجد في حقبة من الزمن ألزمته الدفاع بشدة للتمسك بظاهر الشرع.

فقد كان الإمام الغزالي أيضًا منكرًا لأحوال القوم معترضًا على أقوالهم وأفعالهم، فقد كانت الفرق كثيرة كلها تزعم أنها تنشد الحق فهناك من تدعي أنها صاحبة الرأي والنظر وهم المتكلمون، ومن يزعمون أنهم أصحاب التعليم والمخصوصون بالاقتباس من الإمام المعصوم وهم الباطنية ومن يزعمون أنهم أهل المنطق والبرهان

(1) رواه الترمذي والحاكم وجاء في مسند إسحاق بن راهويه.



وهم الفلاسفة وأولئك الذين يدّعون المعرفة والمكاشفة والمشاهدة، ويدّعون أنهم هم أصحاب الفيض وخواص الحضرة.

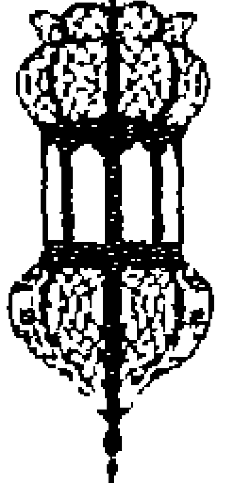
يحدثنا الغزالي عن نفسه فيقول: «ولم أزل في عنفوان شبابي منذ راهقت البلوغ، قبل بلوغ سن العشرين إلى الآن وقد أناف السن على الخمسين أقتحم لجة هذا البحر العميق أخوض غمرته خوض الجسور لا خوض الجبان الحذور وأتوغل في كل مظلمة، وأتهم على كل مشكلة، وأقتحم كل ورطة،وأتفحص عن عقيدة كل فرقة، وأستكشف أسرار مذهب كل طائفة لأميز بين محق ومبطل، ومتسَنٍّ ومبتدع. لا أغادر باطنيًّا إلا وأحب أن أطلع على بطانته ولا ظاهريًّا إلا وأريد أن أعلم حاصل ظهارته، ولا فلسفيًّا إلا وأقصد الوقوف على كنه فلسفته، ولا متكلمًا إلا وأجتهد في الاطلاع على غاية كلامه ومجادلته، ولا صوفيًّا إلا وأحرص على العثور على سر صوفيته، ولا متعبدًا إلا وأترصد ما يرجع إليه حاصل عبادته، ولا زنديقًا معطلًا إلا وأتحسس وراءه للتنبه لأسباب جرأته في تعطيله وزندقته».

لقد حار فكر الإمام الغزالي بين هذه الفرق فصار يبحث ويتحسس ويترصد حتى أحس بعجزه وفقره إلى الله فيقول: «ثم لما أحسست بعجزي وسقط بالكلية اختياري التجأت إلى الله تعالى التجاء المضطر الذي لا حيلة له فأجابني الذي يجيب المضطر إذا دعاه وسهل على قلبي الإعراض عن الجاه والمال والأولاد والأصحاب».

راح الغزالي يبحث ليجد الحقيقة في شيخه يوسف النساج فيقوم الشيخ على تربية ذلك العالم الجليل تربية روحية.

يقول الإمام الغزالي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ **ورحمه:** «كنت في مبدأ أمري منكرًا لأحوال الصالحين ومقامات العارفين حتى صحبت شيخي يوسف النساج، فلم يزل يصقلني بالمجاهدة حتى حظيت بالواردات».

ولنقف عند ما قدمنا من عرض لبعض أقوال أحوال إمامين جليلين أحدهما هو العالم الجليل حجة الإسلام أبو حامد الغزالي ورأينا أنه في بداياته معترضًا مهاجمًا لتلك الطائفة الصوفية، وفي نهاياته صوفيًّا عالمًا مقرًّا بفضلهم معترفًا بولايتهم فلا يصف



طعم الشيء إلا من ذاقه، ولا يعرف الألم إلا من تجرع مرارته، ولا يصف الشوق إلى المحبوب غير المحب ولم ير سارية غير عمر بن الخطاب، ولم يسمع عمر رضي الله عنه غير سارية، وعمر بين المصلين وسارية بين المحاربين.

وشواهد كثيرة، مثل مرأى عمر وسماع سارية بين الصحابة رضوان الله عليهم لم تلق اعتراضًا ولا هجومًا من الذين تمت لهم فائدة الفتح من الله تعالى.

أما أولئك المعترضون فلو فتح الله لهم لما سمعنا أو قرأنا لهم هذا الهجوم على هؤلاء الأتقياء العارفين بالله ولسلموا لهم هذا الفضل كما سلم لهم الإمام الحجة أبو حامد الغزالي وغيره الكثير وليس هناك بعد قول الحق سبحانه وتعالى حين يقول: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ [إبراهيم: 11] ﴿وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾﴾ [الحديد: 29] ﴿ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ﴾ [الشورى: 13] ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ﴾ [الشورى: 52].

حتى تلك المناظرة بين الصوفي ابن عطاء الله السكندري والفقيه العالم ابن تيمية راح بعض أتباعه يسوقون ادعاء بأن هذا الحوار مكذوب واستدلوا على ذلك بأن الشيخ ابن عطاء الله مات قبل ابن تيمية بثلاثين عامًا ولم يلتق بابن عطاء السكندري وذكر أن ابن كثير قد أفاد في «البداية والنهاية» في أحداث 707 أن الشيخ ابن تيمية كان معتقلاً في قلعة الجبل بمصر.

ونقول لهؤلاء:

أولاً: إن الشيخ ابن تيمية ولد عام 661 من الهجرة والشيخ ابن عطاء ولد في عام 658 من الهجرة أي قبل ولادة ابن تيمية بثلاث سنوات فهما قريبان في عمر ولادتهما.

فما المانع من لقائهما وهما عالمان مشهوران في عصرهما. وابن عطاء الله كان صاحب حلقة بالأزهر ومشهور بصلاحه وعلمه وتقواه وابن تيمية كان عالمًا من علماء الشريعة.

ثانيًا: أنهم ذكروا أن الشيخ ابن عطاء مات قبل ابن تيمية بثلاثين عامًا وهذا كذب لأن الشيخ ابن تيمية مات في عام 728 من الهجرة وابن عطاء مات في عام 709 من الهجرة أي قبل ابن تيمية بتسعة عشر عامًا وليس ثلاثين عامًا.

ثالثًا: أن الشيخ ابن عطاء السكندري توفي في عام 709 من الهجرة فما المانع من التقائهما في نفس العام الذي مات فيه ابن عطاء الله؟

رابعًا: أن خروج ابن تيمية من سجن القلعة بمصر كان في صفر عام 707 من الهجرة فما المانع أن يكون لقاؤهما في صلاة المغرب في الجامع الأزهر عقب خروج ابن تيمية من سجن القلعة يؤكده قول ابن عطاء: «فانظر تقدير الله؛ قدر الله لي أن أكون أول من يلقاك»؟

خامسًا: أن هذا العصر الذي جمع أمثال هؤلاء كانوا فيه كالشموس في وضح النهار فلقد كان ابن عطاء الله شيخًا للطريقة الشاذلية وإليه انتهت رئاستها بعد شيخه أبي العباس المرسي - رضي الله عنهم أجمعين - وابن تيمية عالم شريعة وفقيه ومحدث حتى إنهم لقبوه بشيخ الإسلام في عصره فما المانع أن يلتقي عالمان مثلاهما ؟

سادسًا: أن المناظرة المذكورة لم تحدد تاريخ التقائهما حتى تحكموا عليها بالافتراء أو الوضع أو التكذيب.

سابعًا: لقاء الشيخين أثبته ابن كثير دحضًا لكذب من يدعون عدم لقاء الشيخين.

قال ابن كثير في «البداية والنهاية» في أحداث سبع وسبعمائة:

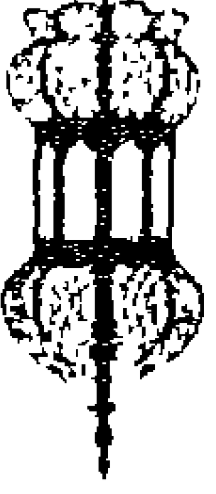
قال البرزالي: «وفي شوال سنة 707 من الهجرة شكى الصوفية بالقاهرة على الشيخ تقي الدين وكلموه في ابن عربي وغيره إلى الدولة فردوا الأمر في ذلك إلى القاضي الشافعي فعَقَد له مجلسًا وادعى عليه ابن عطاء بأشياء، فلم يثبت عليه منها شيء، لكنه قال لا يستغاث إلا بالله، لا يستغاث بالنبي استغاثة بمعنى العبارة ولكن يتوسل به ويستشفع به إلى الله».

ثامنًا: أن المناظرة بين الشيخين لم تخرج عما جاء في البند السابع فما هو وجه التكذيب إذا كان العلامة ابن كثير أثبت ما تضمنته المناظرة بينهما؟

تاسعًا: المناظرة المذكورة رواها غير واحد من الكتاب والمؤرخين فقد جاء في كتاب «مناظرات بين ابن تيمية مع فقهاء عصره» للدكتور السيد الجميلي ورواها الأستاذ عبد الرحمن الشرقاوي في كتابه «الفقيه المعذب ابن تيمية» ونشرتها مجلة المسلم الصادرة عن العشيرة المحمدية فما سندهم في تكذيب رواتها غير ما أشرنا إليه وفندناه وأبطلنا افتراءهم وكذبهم على علمائنا ومؤرخينا؟

عاشرًا: أنتم تقولون إن الشيخ ابن تيمية ممن ضعَّف حديث: «أنا مدينة العلم وعلي بابها». والحديث رواه ابن حجر العسقلاني في «اللآلئ المصنوعة» ورواه الشوكاني في «الفوائد المجموعة» وقال: حسن لغيره. وجاء في روايات عن الأعمش عن مجاهد عن ابن عباس، ورواه المحدث السخاوي في «المقاصد الحسنة» عن عبد الله بن عباس وزاد فيه: «فمن أتى العلم فليأت الباب».

فلماذا تنكرون على ابن تيمية إذعانه لرأي هؤلاء المحدثين من أهل العلم وإن خالفوا رأيه؟



الباب الثامن

مآخذ ابن تيمية على القطب الشاذلي

لقد نال القطب الشاذلي رضي الله عنه ما نال غيره من اعتراضات الشيخ ابن تيمية على أمثاله من الأولياء الصالحين سواء في أحوالهم أو في أذواقهم أو في مقالاتهم وكذلك في حياتهم أو بعد مماتهم.

لكن ابن تيمية هذه المرة لم يعترض على الشيخ الشاذلي في أحواله أو سلوكياته لسببين:

السبب الأول:

أن الشاذلي رضي الله عنه انتقل إلى جوار ربه في سنة 656هـ والشيخ ابن تيمية ولد في سنة 661هـ؛ أي أنه لم يعاصر الشيخ حال حياته ولكن ما ذكر من مآخذ كان على أحزاب الشيخ.

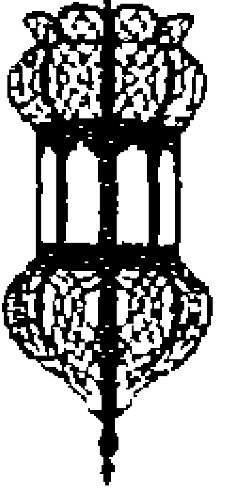
السبب الثاني:

أن الشيخ ابن تيمية يعلم أن الشيخ الشاذلي على قدر كبير من العلم؛ فهو حافظ لكتاب الله وألمَّ بالعلم الظاهر في أمور الشريعة، فقد درس التفسير والفقه والحديث واللغة العربية وتاريخ الأمة قبل أن يجتمع بالقطب ابن بشيش الذي تلقى عنه الشيخ أبو الحسن الطريق إلى الله.

و الشيخ ابن تيمية هذه المرة يعترض على شيخنا الإمام الشاذلي في ثلاثة أشياء:

- **الأول:** ما قاله الشيخ الشاذلي لتلميذه أبي العباس المرسي رضي الله عنه:

«إذا عرضت لك عند الله حاجة فاقسم بي عليه».



- **الثاني**: دعاء الشيخ في حزب البحر: «نسألك العصمة في الحركات والسكنات والكلمات والإرادات والخطرات من الشكوك والظنون والأوهام السائرة للقلوب عند مطالعة الغيوب».

- **الثالث**: خطاب الشيخ للذات العلية في حزب البر:

«فليس من الكرم ألاَّ تحسن إلا لمن أحسن إليك وأنت المفضال الغني، بل من الكرم أن تحسن إلى من أساء إليك وأنت الرحيم العليم كيف وقد أمرتنا أن نحسن إلى من أساء إلينا فأنت أولى بذلك منا».

أما عن الأمر الأول فقد قال هذا القول معروف الكرخي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لتلميذه السَّرِي السَّقَطي 253هـ قبل أبي الحسن بحوالي ثلاثة قرون قال له: «إذا كانت لك إلى الله حاجة فاقسم بي عليه».

ولم نسمع أو نقرأ عن أحد من العلماء والأئمة في عصره أو بعد عصره ناله ما نال الشيخ الشاذلي من ابن تيمية أو أتباع ابن تيمية، ولن أجد في الرد على اعتراض ابن تيمية أبلغ من رد ابن تيمية نفسه في كتابه «الاستغاثة» في رده على ابن السبكي في حديث الأعمى الذي أتى النبي ﷺ.

يقول ابن تيمية: «وقوله: يا محمد، إني أتوجه بك إلى ربي في حاجتي هذه فتقضى خطاب لحاضر في قلبه كما نقول في صلاتنا: السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته وكما يستحضر الإنسان من يحبه أو يبغضه في قلبه ويخاطبه وهذا كثير، فهذا كله بين معنى التوسل والتوجه به وبالعباس وغيرهما في كلامهم هو التوسل والتوجه بالدعاء وهذا مشروع بالاتفاق لا ريب فيه».

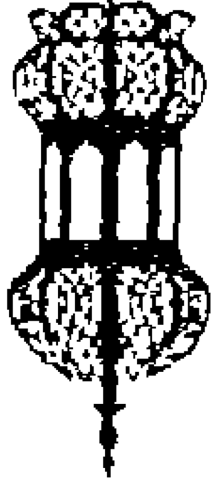
لقد أشار الشيخ ابن تيمية في حديثه هذا إلى ثلاثة معانٍ:

أولها قوله: «خطاب لحاضر في قلبه».

والثاني: «كما يستحضر الإنسان ما يحبه أو يبغضه في قلبه ويخاطبه، وهذا كثير».

والثالث قوله: «والتوجه به وبالعباس وغيرهما».

ثم يختم الشيخ مقولاته بأن هذا التوجه بالدعاء مشروع بالاتفاق لا ريب فيه.



لقد كان أبو العباس المرسي تلميذًا للشيخ أبي الحسن الشاذلي رضي الله عنه تلقى عنه وأخذ عنه العلم وقام على تربيته منذ أن كان أبو العباس شابًا في حاجة إلى رعاية الشيخ له وهو في سن شبابه، لقد تشبعت روحه بمحبة أبي الحسن فملأ حب شيخه كل أركان قلبه؛ فالشيخ هو دليله إلى الله، وهو الأستاذ المرشد فيه يتذكر أبو العباس حلاوة كل منفعة وجمال كل طاعة، واستشراقة كل قربة، فالشيخ في وجدان تلميذه لا ينساه حتى لو فارقت روحه جسده.

لتحشرن عظامي بعد إذ بليت يوم الحساب وفيها حبكم علق

وأبو العباس يستحضر شيخه أبا الحسن في دعائه فليس هناك ما يمنع ذلك شرعًا كما أفتى بذلك ابن تيمية في سابق قوله: (وبالعباس وغيرهما).

ولعل قائلاً يقول: إن الذي كان متوجهًا به في الدعاء السابق التعليق عليه (أي دعاء الأعمى) هو رسول الله ﷺ فنقول: وأبو الحسن الشاذلي بضعة من رسول الله ﷺ فهو جده لأبيه حيث ينتهي نسبه إلى الحسن بن علي وابن فاطمة الزهراء بنت رسول الله ﷺ، ومن توسل بالجزء كمن توسل بالكل.

فالشاذلي حينما قال للمرسي: (أقسم على الله بي) فهو يريد القسم بالمحبة القائمة بين الله والشاذلي، وهذا أمر ليس فيه إنكار، فالشاذلي بضعة من رسول الله ﷺ وليس هناك شك أو ريبة في قلب مسلم أن الله يحب بضعة رسول الله لمحبته لرسول الله ﷺ.

وما أفتاه الشيخ الألباني - رحمه الله - بجواز التوسل بحب الله للعبد، أو بحب العبد لله، سبحانه وتعالى، والشيخ الألباني من مدرسة الشيخ ابن تيمية وعلمائها سيؤكد ما نشير إليه إن شاء الله.

ففي الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: «رب أشعث أغبر ذو طِمْرين لا يؤبه له لو أقسم على الله لأبره» رواه الإمام مسلم.

وفي رواية: «إن من عباد الله من لو أقسم على الله لأبره» رواه الإمام مسلم.

وفي رواية أخرى للإمام مسلم أن النبي ﷺ قال: «رب أشعث أغبر ذو طمرين مدفوع بالأبواب لو أقسم على الله لأبره».

أي لأجاب له القسم، ولكم في تأويله ما تشاءون، فإن قلتم أقسم على الله بصالح أعماله أو بحبه له أو بحب الله له أو بحبه لأوليائه أو بأيٍّ من أسمائه تعالى فقد أجبناكم فيما تقولون ولكنكم لن تستطيعوا إنكار أن القسم صادر عن ذات الداعي.

لكن بعض المنكرين راح يخلط بين القسم والحلف في الحديث السابق، والمعنى هنا يختلف فيه معنى القسم والحلف فالحلف له نية وشروط كالمقسم والمقسم عليه والمقسم به والمقسم لأجله؛ ولذا راح المحللون في حديث الشاذلي وأبي العباس يخلطون بين الحلف والقسم على الله وراحوا يستدلون بأحاديث كثيرة على أن الحلف لا يجوز بغير الله.

فهل كان قسم أبي العباس على الله بأبي الحسن يسمَّى حلفًا ؟

فالقسم على الله والقسم بالله معنيان مختلفان، أما لو قلت إنك تقسم بالله على الله فقد توحد المعنى ولكنه لا يسمى حلفًا؛ لأن الحلف جاز أن يحنث المرء فيه لكن القسم على الله بحبك له أن يقضي حاجتك أو يشفي مريضك ما وجه الحنث فيه؟

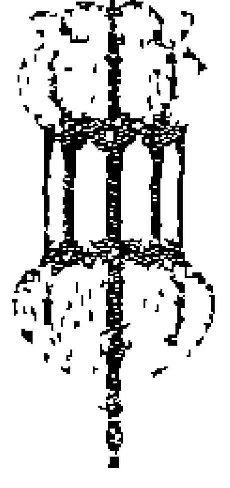
فخلاصة القول أن قول القطب الشاذلي لأبي العباس المرسي على ما أوردناه في التحليل السابق أمر مشروع لا ينبغي الإنكار عليه إذا كان المتحدث له مكانة الشاذلي نسبًا أو حسبًا أو علمًا.

فقول القطب الشاذلي لأبي العباس يعني أقسم على الله بحبه لي أو أقسم على الله بحبي له وكلا المعنيين لا إنكار عليهما.

الأمر الثاني:

يقول القطب الشاذلي في دعائه في حزب البحر:

«اللهم يا علي يا عظيم يا حليم يا عليم أنت ربي وعلمك حسبي فنعم الرب ربي ونعم الحسب حسبي تنصر من تشاء وأنت العزيز الرحيم نسألك العصمة في الحركات والسكنات والكلمات والإرادات والخطرات من الشكوك والظنون والأوهام الساترة للقلوب عن مطالعة الغيوب».



نعم ورد هذا الدعاء في بداية حزب البحر الذي قال عنه أبو الحسن الشاذلي : «أخذته من في رسول الله ﷺ حرفًا بحرف»، وقال عنه أيضًا يوصي به أبا العباس المرسي: «حفِّظوه لأولادكم فإن فيه اسم الله الأعظم».

والشاذلي عالم جليل حافظ لكتاب الله تعالى درس التفسير والحديث والفقه واللغة وتبحر في علوم الشريعة والحقيقة فهو يعلم حقيقة ما يقول فقوله: «نسألك العصمة» لو علم فيه مخالفة للشرع لما ذكره في دعائه وهو أحرص على مريديه وتلاميذه وعلى حثهم على التمسك بظاهر الشرع كما أوردنا ذلك.

ويعلم أن العصمة قد وردت في كتاب الله تعالى بمعنى الوقاية والحفظ.

لكن معترضي الصوفية والناقل عن ابن تيمية اعتبروا هذا مأخذًا على الإمام الشاذلي وقالوا إنه يجب على الشيخ عدم سؤال العصمة؛ لأن العصمة لا تكون إلا للأنبياء.

والله، إنه لأمر يثير العجب والدهشة أن يكون هذا الاعتراض صادرًا من عالم كابن تيمية والحقيقة إنني أستبعد ذلك وأنا أعلم أن الشيخ ابن تيمية عالم جليل حافظ لكلام الله ويعلم أن العصمة قد وردت في كتاب الله تعالى بمعنى الوقاية والحفظ.

ففي سورة [آل عمران: 101] ﴿ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ أي ومن يجعل الله حصنه ووقايته فقد هدي إلى صراط مستقيم.

وفي سورة [المائدة: 67] ﴿ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ أي إن الله يقيك ويحفظك شر الناس.

وفي سورة [يونس: 27] ﴿ وَٱلَّذِينَ كَسَبُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةٍۭ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ﴾ أي ما لهم من الله من واق أو حافظ أو مغيث إلى غير ذلك من المعاني.

وفي سورة [هود: 43] وردت بمعنى الوقاية أو الحماية مرتين في قوله تعالى: ﴿قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ ﴾ يعصمني: أي يقيني ويحفظني/ لا عاصم: أي لا حافظ أو لا واقي.

وفي سورة [الأحزاب: 17] قال تعالى: ﴿ قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ﴾ أي من ذا يقيكم ويمنعكم من الله.

فسؤال الشيخ الشاذلي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ سؤال على قدر حال الشيخ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فهو يسأل الله الوقاية والحفظ حتى في الخطرات والظنون والشكوك والأوهام وهي بواطن فعل العبد والحركات ظواهر فعله. وهذه الخمسة هي مجاري الحسنات والسيئات.

فهو رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يسأل الله العصمة من الوقوع في الذنب الظاهر والباطن والشيخ يعلم أنه ليس بنبي أو رسول مرسل وهذا دعاء لا غرابة فيه إذ الداعي مثل أبي الحسن الشاذلي أو هو الشاذلي نفسه، ولقد ورد مثله في حزب البر حيث قال رَضِيَ اللهُ عَنْهُ:

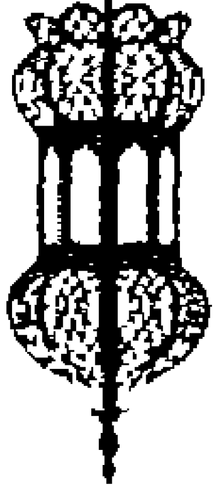
«واعصمنا من موارد الأشقياء» أي احفظنا من ورود موارد وهي جمع مورد.

وفي الحزب نفسه أيضًا قال رَضِيَ اللهُ عَنْهُ في دعائه: «واكسنا جلابيب العصمة» أي ألبسنا من نورك سترًا وحفظًا وسبق أن دعا بها إبراهيم بن أدهم في طوافه بالكعبة المشرفة فقال: «يا رب اعصمني حتى لا أعصيك أبدًا».

ولم نر عالمًا منذ عصر إبراهيم بن أدهم إلى عصر الشيخ ابن تيمية عارض قول إبراهيم بن أدهم إلا قول ابن تيمية أو الناقل عنه في مآخذه على ما ذكره القطب الشاذلي في حزب البحر قوله: « ونسألك العصمة»

وليت هؤلاء المنكرين رجعوا إلى كتاب الله قبل إنكارهم على القطب الشاذلي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ لكنها إنكار العصبية للرأي، ليتهم بحثوا المعاني الموجودة بالآيات التي ذكرناها حتى يتبين لهم معنى هذا الدعاء الذي أراده القطب الشاذلي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وهل يصح أن يصدر هذا الإنكار من عالم فقيه حافظ لكتاب الله كالإمام ابن تيمية رحمة الله عليه ؟ لا أظن أن يصدر هذا الإنكار إلا من بعض من ادعى اتباعه من الجهلاء الذين يتعصبون لرأيهم دون أن ينهلوا من مدارس علمائهم.

أما عن الأمر الثالث وهو إنكار ابن تيمية أو أتباع ابن تيمية أو الناقل باسم ابن تيمية عن قول الشيخ الشاذلي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ في حزب البر: «وليس من الكرم ألا تحسن إلا لمن أحسن إليك وأنت المفضال الغني، بل من الكرم أن تحسن إلى من أساء إليك وأنت

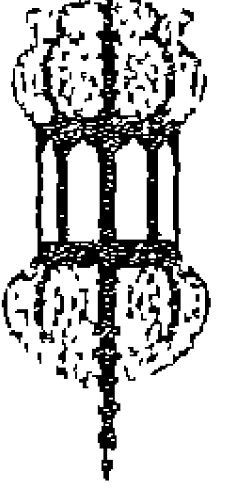


الرحيم العلي كيف وقد أمرتنا أن نحسن لمن أساء إلينا فأنت أولى بذلك منا». ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: 24].

هذا ما قاله ودعا به الإمام الشاذلي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ في حزب البر، وإنكارهم على الشيخ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنه لا يصح مخاطبة الحضرة الإلهية بهذا الأسلوب، «أحسن إلى الله وأساء إلى الله» إنهم يقولون إن دعاء الشيخ الشاذلي بهذا الأسلوب يخالف قوله تعالى: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ [الإسراء: 7] لقد نأوا بفكرهم بعيدًا عن المعنى الذي أراده الشيخ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ في دعائه؛ لأن الخطاب والدعاء بين الشاذلي وبين الحق سبحانه فما علاقة أحسنتم لأنفسكم في مجمل دعاء الشيخ؟!

فوجه استدلالهم بهذه الآية لا يوافق اعتراضهم على دعاء الشيخ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ؛ لأن الآية تتعلق بإحسان الخلق إلى الخلق أو إساءتهم لأنفسهم، واعتراضهم كان على حد قولهم «أحسن إلى الله وأساء إلى الله» فما هو علاقة استدلالهم بهذه الآية على ما دعا به شيخي الشاذلي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ؟ والحقيقة أنهم كمن تلا قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [النساء: 43] وسكت، إنهم لو قرءوا سابق دعاء الشيخ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ما كان لهم أن يعترضوا عليه بما قالوا فهذا الدعاء جاء بعد دعاء قال فيه رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «فهأنذا عبدك إن تعذبني بجميع ما علمت من عذابك فأنا حقيق به وإن ترحمني كما رحمتهم مع عظيم إجرامي فأنت أولى بذلك وأحق من أكرم به فليس كرمك مخصوصًا بمن أطاعك وأقبل عليك بل هو مبذول بالسبق لمن شئت من خلقك وإن عصاك وأعرض عنك».

ثم جاءت التكملة التي هي محل الحديث أوردها الشيخ في تكملة دعائه السابق فالشيخ في دعائه يقر بأن الله سبحانه لا يجب عليه واجب وترى ذلك واضحًا في قوله: «فهأنذا عبدك....» إلى آخر ما قال، فإن عذب فبعدله وإن رحم فبفضله توحيد مطلق وإيمان بالله عال، يقين المتقين، ودعاء العارفين، إنه تذلل وتدلل فالتذلل بدأ من قوله: «فهأنذا عبدك» والتدلل بدأ من قوله: «وليس من الكرم ألا تحسن لمن لا يحسن إليك» معناه كرمك المطلق، وأن كرمك المطلق الذي اتصفت به وعرفته خلقك ليس مخصوصًا بمن عكف على طاعتك بل مبذول بالسبق لجميع خلقك وهذا توحيد الربوبية عند الشيخ والله سبحانه وتعالى هو رب الخلق أجمعين.



وتدلل الشيخ بقوله لمن أحسن إليك ليس معناه إحسان الخلق إلى الله كما قال الذين لم يدركوا المعنى فقد قال تعالى في محكم التنزيل: ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [التوبة: 104].

فهل الله تعالى يأخذ الصدقات؟

وروي عن ابن عباس - رضي الله عنهما - (يرفعه): «ما نقصت صدقة من مال وما مد عبد يده بصدقة إلا ألقيت في يد الله قبل أن تقع في يد السائل ولا فتح عبد باب مسألة له عنها غنى إلا فتح الله له باب فقر» (رواه الطبري).

روي عن عائشة رضي الله عنها أنها كانت تضع على الدرهم شيئًا من الطيب قبل أن تعطيه للسائل فلما سُئلت عن ذلك قالت رضي الله عنها: «لأنه يقع في يد الله قبل أن يقع في يد السائل». (ذكره الإمام القاضي عبد الوهاب المالكي في عيون المجالس).

وقال تعالى: ﴿ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [البقرة: 245].

وقال تعالى: ﴿ إِن تُقْرِضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴾ [التغابن: 17].

وقال تعالى: ﴿ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴾ [الحديد: 11].

وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقْرَضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴾ [الحديد: 11].

فهل هناك من الخلق من يقرض الله؟

ولكن المعنى أن تقرض من له حاجة من عباد الله، ففي الحديث: «الخلق عيال الله، وأحب عيال الله إلى الله أنفعهم لعياله»[1].

وقول الإمام الشاذلي رضي الله عنه: «إلى من أساء إليك» أي أساء إلى عبادك وعصاك في فعله فيهم.

(1) رواه أبو يعلى 6 / 65 والطبراني في المعجم الكبير 10/ 86 والقضاعي في مسند الشهاب 2/55، ورواه الحارث في مسنده أيضًا 2/ 857.

وفي معنى قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾ [الأحزاب: 57] إشارة إلى معنى ذلك. وكذا المعاني الموجودة في الأحاديث القدسية فمثلاً:

قوله سبحانه : «يا عبدي مرضت ولم تعدني»[1] فيقول العبد: «يا رب كيف تمرض وأنت رب العالمين؟» فيقول: «مرض عبدي فلان ولم تعده أما لو عدته لوجدتني عنده».

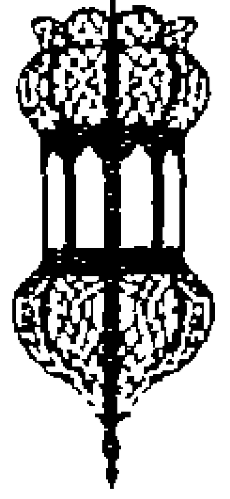
وقوله تعالى في الحديث القدسي: «كذبني ابن آدم ولم يكن له ذلك وشتمني ابن آدم ولم يكن له ذلك، فأما تكذيبه إياي فقوله: لن يعيدني كما بدأني وليس أول الخلق بأهون علي من إعادته وأما شتمه فقوله: اتخذ الله ولدًا وأنا الأحد الصمد»[2].

لكنا نقول بعد أن أوضحنا للمعترضين ما أوضحناه إن من قرأ أو درس لأرباب الأحوال أن الشيخ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ رجع من شهود الجمال الموجب للدلال إلى شهود الجلال الموجب للذل والانكسار فبعد أن قال ما قال، قال الله تعالى: ﴿ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [الأعراف: 23].

فقوله أحسن إليك أو أساء إليك يشير به إلى عمومية تعامل الخلق مع جلالة الله سبحانه وتعالى، فالدعاء السابق لهذه الفقرة من الدعاء يشير إلى ذلك فيقول: «فكرمك مبذول بالسبق لمن شئت من خلقك وإن عصاك وأعرض عنك»، فالشيخ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ انتقل من حال الدعاء بالتذلل إلى حال الدعاء بالتدلل،حتى يطمئن المريد المذنب أن كرم الله تعالى يشمله وهو المفضال الغني فهو كما قال رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «فليس كرمك مخصوصًا بمن أطاعك وأقبل عليك بل هو مبذول بالسبق لمن شئت من خلقك وإن عصاك وأعرض عنك» وهذا أمر يطمئن إليه المريد الذاكر ليعلم أن الله تعالى كرمه مطلق وفضله أعم، فهو ليس مخصوصًا بمن أطاعه وأقبل على طاعته، بل يعم فضله من عصاه من خلقه؛ فهو الرب الذي خلقه ورزقه وقام على أمر خلقه؛ مؤمنهم وكافرهم، إنسهم وجنهم، المطيع منهم والعاصي فيهم، فكان من تتمة ذلك أن يكون المعنى الوارد بعد الدعاء السابق موافقًا لعقيدة المريد العاصي فيقول: «وليس من الكرم ألا تحسن إلا لمن أحسن

(1) رواه مسلم عن أبي هريرة ورواه البخاري من رواية عبد الرحمن بن صخر.

(2) رواه أحمد في مسنده وابن حبان في صحيحه من رواية عبد الرحمن بن صخر وفي التوحيد لابن منده؛ محمد بن إسحاق بن منده 259.



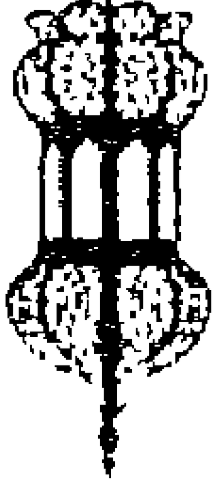
إليك وأنت المفضال الغني» فما وجه الإساءة فيمن يقول وأنت المفضال الغني؟! فهو كمن يقول: «عبد مذنب ورب غفور»، وما وجه التطاول في قوله: «بل من الكرم أن تحسن إلى من أساء إليك وأنت الرحيم العلي، والرحيم هو المنعم على عباده بجلائل النعم والعلي وهو الذي ترفَّع بعزته عن كل نقيصة»؟

والقول كما أشرنا إليه: «أحسن إليك»، أي أحسن إلى عبادك، و«أساء إليك» أي أساء إلى عبادك بفعله الذي لا يرضيك منهم.

فليس من الأدب أن يتطاول أحد الكُتَّاب على الشيخ رضوان الله عليه ويقول إن الشيخ جانب الحق حين خاطب الحضرة الإلهية بهذه الصورة ولست مع الذين قالوا برفع هذا الدعاء من الحزب وقالوا على المريد أن يترك هذه الفقرة من الدعاء ويعود ليبدأ من قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا﴾ [الأعراف: 23]، ولست أدري أيضًا من صرح لهم بذلك إن كانوا من أبناء الطريق وإن لم يكونوا من أبناء الطريق فما دعواهم بذلك؟!

كان الشيخ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قبل أن ينتقل إلى جوار ربه أوصى بقراءة الحزب كما هو فهل هؤلاء أوسع علمًا وأعلى كشفًا منه؟! وهذا أيضًا من الذين يدعون حبهم للشيخ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أو لطريقته خروج عن الأدب لا يليق بأمثالهم.

أسأل الله أن يغفر لنا ولهم جميعًا.



الباب التاسع

العلماء الصوفية وصحبتهم من الفقهاء الأئمة

وحتى يقف القارئ على فضل هؤلاء القوم مُقِرًّا ومعترفًا بفضلهم وعلمهم ومنهجهم فإننا نوثق له اعترافه بما صار عليه السلف من الأئمة الذين لم يعترض على إمامتهم أحد ولا يجحد فضلهم وعلمهم واجتهادهم مسلم.

فمن هؤلاء الأئمة الإمام أحمد بن حنبل الإمام العالم صاحب المذهب الحنبلي وإمام الجماعة السلفية التي تنادي بالتمسك بالكتاب والسُّنَّة وما كان عليه السلف الصالح الذي صحب بشر بن الحارث الحافي العالم الصوفي رضي الله عنه.

ومن هؤلاء الأئمة أيضًا الإمام العالم حجة الإسلام أبو حامد الغزالي الذي صحب الشيخ يوسف النساج. ومن هؤلاء الشيخ العالم العارف العز بن عبد السلام الذي صحب الإمام القطب أبي الحسن الشاذلي. ومن هؤلاء أيضًا الإمام الفقيه عبد الوهاب الشعراني الذي صحب الشيخ علي الخواص - رضي الله عنهم أجمعين -.

ولنبدأ برحلتنا مع:

(١) بشر بن الحارث الحافي والإمام أحمد بن حنبل:

فهذا هو الإمام الجليل أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال، قدم من مرو وأمه حملت به فوضعته في بغداد في سنة أربع وستين ومائة، وتوفي أبوه وهو ابن ثلاث سنين فكفلته أمه ولما بلغ ستة عشر عامًا كان أول طلبه للحديث، حج خمس حجات منها ثلاث راجلاً.

قال رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: ضللت في بعضها عن الطريق وأنا ماش فجعلت أقول يا عباد الله دلوني على الطريق، فلم أزل أقول حتى وقفت على الطريق.

توفي أبو عبد الله أحمد بن حنبل يوم الثاني عشر من ربيع الأول سنة إحدى وأربعين ومائتين وله من العمر سبع وسبعون سنة رحمة الله عليه ورَضِيَ اللهُ عَنْهُ صحب أبا حمزة البغدادي وهو من أكابر صوفية زمانه فقد كان الإمام أحمد بن حنبل إذا جرى في مجلسه شيء من كلام القوم يقول لأبي حمزة البغدادي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: ما تقول في هذا يا صوفي؟

فإذعان الإمام أحمد بن حنبل لأبي حمزة عن يقين بولاية الله لهذا الرجل وكذلك إذعان الإمام أحمد بن حنبل لشيبان الراعي حين طلب من الإمام الشافعي أن يسأل شيبان عمن نسي صلاة لا يدري أي صلاة هي، فأجابه وأضاف قوله بأن هذا الرجل يجب أن يؤدب.

فشيء يقف في فهمه الإمام أحمد ويعرفه أبو حمزة أو يعرفه شيبان الراعي فهذا غاية المنقبة للقوم.

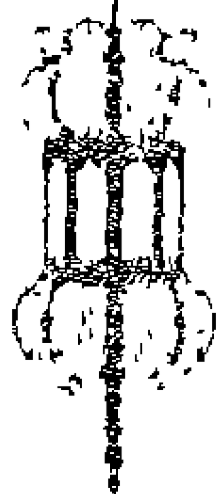
جدير بالذكر أيضًا أن الإمام أحمد بن حنبل ويحيى بن معين كانا يختلفان إلى معروف الكرخي ولم يكن معروف الكرخي يعلم من العلم والحديث ما كانا يعلمانه - رضي الله عنهم أجمعين.

وروي عن الشيخ قطب الدين بن أيمن أن الإمام أحمد بن حنبل كان يحث ولده على الاجتماع بصوفية زمانه ويقول له: «إنهم بلغوا في الإخلاص مقامًا لم نبلغه».

وصحب الإمام أحمد بشر بن الحارث الحافي وتلقى عنه العلم وكان من أجل أصحابه وكان بشر بن الحارث صوفيًّا مشهودًا له بالولاية.

لقد قال عنه الإمام أحمد بن حنبل يوم أن بلغه موته: «ما ترك بعده مثله».

وقال عنه إبراهيم الحربي: «كان من أصحاب الإمام أحمد» ما أخرجت بغداد أتم عقلاً منه ولا أحفظ لسانًا منه وما أعرف له غيبة لمسلم، وكان من كل شعرة منه عقل ولو قُسِّم عقله على أهل بغداد لصاروا عقلاء وما نقص من عقله شيء.



كان الإمام أحمد بن حنبل ممن صحب بشر بن الحارث وكان يزوره ويعتاد زيارته، وفي ذات يوم مرض بشر بن الحارث الحافي فذهب الإمام أحمد ليعوده في مرضه فوجد عنده امرأة يقال لها آمنة الرملية وكانت عابدة زاهدة مشهودًا لها بالصلاح والتقوى، فبعد أن جلس الإمام أحمد سأله: من هذه يا بشر؟ فقال له: هذه آمنة الرملية علمت بمرضي فجاءت تعودني - والإمام أحمد يعلم عن صلاحها وتقواها - فقال لبشر: سلها أن تدعو الله لنا. فقال لها بشر: يا آمنة؛ أحمد بن حنبل يسألك لنا الدعاء فقالت: «اللهم إن بشر بن الحارث وأحمد بن حنبل يستجيران بك من النار فأجرهما»، وخرج الإمام أحمد بعد زيارته وفي أثناء سيره وجد ورقة خضراء اللون تنزل قبالة وجهه من السماء فالتقطها فإذا مكتوب فيها: «قد فعلنا هذا ولدينا مزيد».

فصحبة ابن حنبل رَضِيَ اللهُ عَنْهُ لبشر لم تكن إلا عن علم بفقه الرجل وصلاحه وتقواه. فبشر بن الحارث ممن رووا أحاديث عن رسول الله ﷺ فلقد سمع من حماد بن يزيد وعبد الله بن المبارك وابن مهدي ومالك وأبي بكر بن عياد وغيرهم وعنه جماعة منهم أبو خيثمة وزهير بن حرب وسري السقطي والعباس بن عبد العظيم ومحمد بن حاتم وقال عنه محمد بن سعيد إن بشرًا سمع كثيرًا ثم اشتغل بالعبادة واعتزل الناس ولم يحدث.

فصوفية الرجل يلمسها فيه الإمام أحمد في كل لحظة عندما يلتقيان. وقد ذكر الخزرجي أن الإمام أحمد تتلمذ على بشر بن الحارث الحافي، يقول عبد الله بن أحمد بن حنبل: سمعت أبي يقول (وذكر بشر بن الحارث) إني لأذكر به عامر بن عبد الله (يعني ابن عبد قيس). ويقول صاحب الحلية عن عامر بن عبد قيس الذي شبه به أحمد بن حنبل بشر بن الحارث: «كان عامر بن عبد قيس ممن تخرج على أبي موسى الأشعري في النسك والتعبد ومنه تلقن القرآن وعنه أخذ الطريقة».

وذكره الإمام الشعراني في الطبقات الكبرى بعد أن قال: ومنهم رجال من سادات التابعين وذكر أويس القرني ثم أعقبه مباشرة بقوله: ومنهم عامر بن عبد قيس يقول عنه: «وكان قد فرض على نفسه كل يوم ألف ركعة وفي رواية ثمانمائة ركعة» ثم يقول لنفسه: «إنما خُلقت للعبادة والله لأعملن بك عملًا حتى لا يأخذ الفراش منك نصيبًا».



وكان يقول: «لا أبالي - حين أحببت الله عز وجل - على أي حال أصبحت أو أمسيت» وكان إذا دخل عليه شيء من الدراهم ينفقها على المساكين لا ينقص منها شيء وكان يقول: «من جهل العبد أن يخاف على الناس من ذنوبهم ويأمن هو على ذنوب نفسه».

وكان يطعم المجانين فيقول الناس له إنهم لا يدرون الأكل فيقول إن لم يكونوا يدرون فإن الله يدري.

ومن كراماته كان إذا سافر إن شاء صب من الركوة ماء للوضوء وإن شاء صب منها لبنًا للشرب، كان هذا هو عامر بن عبد قيس الذي كان إذا ذُكر تذكر الإمام أحمد بشر بن الحارث.

وروي عن محمد بن المثنى قال: قلت لأحمد بن حنبل: ما تقول في هذا الرجل؟

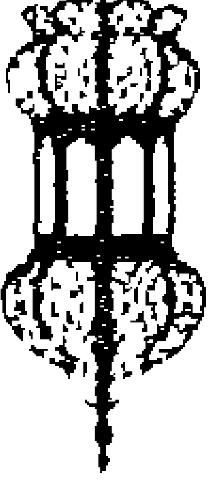
فقال لي: أي الرجال ؟ فقلت له: بشر بن الحارث. فقال الإمام أحمد: سألتني عن رابع سبعة من الأبدال أو عامر بن عبد قيس، ما مثله عندي إلا مثل رجل ركز رمحًا في الأرض ثم وقف منه على السنان فهل ترك لأحد موضعًا فيه ؟

فإقرار الإمام أحمد بن حنبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بقطبانية بشر بن الحارث في حديثه هذا وتسليمه بصلاح آمنة الرملية وطلبه الدعاء منها واعترافه بعامر بن عبد قيس ووصيته لولده عبد الله بصحبة صوفية زمانه وتلقيه العلم عن بشر بن الحارث - كل هذا دليل على أن الإمام كان يقدر صوفية زمانه ويعرف فضلهم.

يقول ابن كثير في كتابه «البداية والنهاية»:

وقد أثنى عليه (يعني بشر بن الحارث) غير واحد من الأئمة في عبادته وزهادته وورعه ونسكه وتقشفه، وعندما بلغ خبر وفاة بشر بن الحارث الإمام أحمد بن حنبل قال: لم يكن له نظير إلا عامر بن عبد قيس ولو تزوج لتم أمره.

وفي رواية عنه أنه قال: ما ترك بعده مثله. وقال ابن كثير أيضًا: وكان علي المدائني وغيره من أئمة الحديث يصيح بأعلى صوته في جنازة بشر بن الحارث: «هذا والله شرف الدنيا قبل شرف الآخرة».



(ب) الإمام الغزالي والشيخ يوسف النسَّاج:

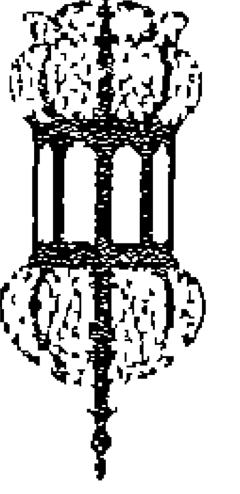
الغزالي هو الإمام محمد بن محمد بن محمد بن أحمد الطوسي الغزالي. ولد رَضِيَ اللهُ عَنْهُ في طوس سنة خمسين وأربعمائة وتوفي في بغداد سنة أربع وخمسمائة أي مات رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وعمره أربعة وخمسون عامًا ملأه علمًا ورعاه صلاحًا وتقوى.

كان والده يغزل الصوف ويبيعه بدكانه في طوس ولما حضرته الوفاة وصى به وبأخيه أحمد إلى صديق له من أهل الخير والصلاح، وكان صوفيًّا تقيًّا فقال له: إني أريد أن أدرك ما فاتني في تعلمي في ولدي هذين وإن أنفقت عليهما كل ما تركته لهما من مال، فلما مات أقبل الصوفي على تعليمهما حتى فني ذلك المال الذي تركه لهما أبوهما فقال لهما: اعلما أني قد أنفقت عليكما ما كان لكما وأنا رجل فقير ليس لي مال فأواسيكما به، وأصلح ما أرى لكما أن تلجآ إلى مدرسة كأنكما من طلبة العلم فيحصل لكما قوت يعينكما على وقتكما. ففعلا ذلك وكان هذا مما أعانهما حتى بلغا ما بلغا في العلم والاجتهاد.

وفي تلك العصور كانت الدولة تقرر لطلبة العلم ما كانت تسميه «الجراية» وهي عبارة عن مأكل وملبس قد يصرف باليوم أو الأسبوع أو الشهر وقد يصرف في صورة دراهم أو دنانير وهذا ما أشار به الصوفي على الغزالي وأخيه.

وكان والدهما صالحًا يأكل من كسب يده في عمل غزل الصوف وكان يحب العلم والعلماء ويطوف على مجالس أهل الفقه فيسمع منهم ويأخذ عنهم، وكان كلما سمع كلامهم يبكي ويتضرع إلى الله يسأله أن يجعل في أولاده من يكون عالمًا واعظًا تقيًّا فقيهًا فأجاب الله دعوته في ولديه.

وكانت رعاية الله سابقة للغلامين. يقول الغزالي إن اللصوص قطعوا عليه الطريق وأخذوا جميع ما معه فصار يتبعهم ويرجوهم أن يردوا عليه متاعه فيأبوا فيقول لمقدمهم (أي رئيسهم): أسألك بالذي ترجو النجاة به أن ترد عليَّ تعليقتي، فيقول له: وما تعليقتك؟ فيقول له: مخلاة أضع بها كل ما كتبت وتعلمت وهاجرت من أجله ويضحك مقدمهم ويقول للغزالي: قد أخذنا منك كل ما كتبت وتعلمت



وأصبحت الآن أنت من غير تعلم ولا علم، فقال الغزالي: هذا مستنطق أنطقه الله ليرشدني به في أمري وأقبلت على الاشتغال بحفظ ما تعلمت وصرت بحيث لو قطع عليَّ الطريق لم أتجرد من علمي.

تفقه رَضِيَ اللهُ عَنْهُ على إمام الحرمين في عصره وبرع في علوم كثيرة، وكان يحضر مجلسه أبو الخطاب وابن عقيل وهما من رءوس الحنابلة وكتبا كلامه في مصنفاتهما.

وللغزالي مصنفات كثيرة منها «المنقذ من الضلال»، و«تهافت الفلاسفة»، و«البسيط والوسيط»، و«الوجيز والخلاصة»، و«تحصين الأدلة»، و«شفاء العليل»، و«الأسماء الحسنى»، و«الرد على الباطنية»، و«منهاج العابدين»، و«إحياء علوم الدين» وهو من أهم ما كتب الإمام الغزالي وقد نال إعجاب الكثير من العلماء الأفاضل حتى قال عنه الإمام النووي: «كاد الإحياء أن يكون قرآنًا».

وقال الحافظ العراقي عنه إنه من أجلِّ كتب الإسلام في معرفة الحلال والحرام.

وقال عنه الزبيدي شارح الإحياء : «وأنا لا أعرف له نظيرًا في الكتب التي صنفها الفقهاء الجامعون في تصانيفهم بين النقل والنظر والفكر والأثر».

وقال ابن السبكي : «وهو من الكتب التي ينبغي للمسلمين الاعتناء بها وإشاعتها ليهتدي بها كثير من الخلق وقل ما ينظر فيه إلا ويتعظ به في الحال».

وقال الشيخ عبد القادر العيدروس عنه في كتابه «تعريف الأحياء بفضائل الإحياء»: «اعلم أن فضائل الإحياء لا تحصى بل كل فضيلة له باعتبار حيثياتها لا تستقصى».

لكن كتابه هذا لم يسلم من حجج المعترضين عليه فشنع عليه أبو الفرج الجوزي وابن الصلاح وأراد المازري المغربي أن يحرقه وكذلك غيره من المغاربة وذكروا أن به أحاديث كثيرة غرائب ومنكرات وموضوعات كما صرح بذلك العلامة ابن كثير في «البداية والنهاية».

ولم ينظر هؤلاء وغيرهم أن هذا من صنع بشر غير معصوم من الزلل كما قال ذلك شيخ الأزهر الأسبق محمد الخضر: «وكفى كتاب الإحياء فضلًا وسموًّا ومنزلة أن

تكون درر فوائده فوق ما يتناوله العبد، وأن يظفر منه طلاب العلم وعشاق الفضيلة بما لا يظفرون به من كتاب غيره ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: 269] ».

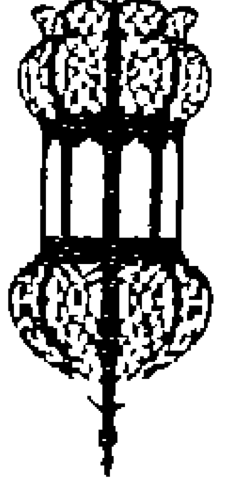
وإننا أردنا بكلمات موجزة أن نعرف من هو الإمام الغزالي العالم الفقيه الذي راح بعد أن بلغ من العلم غايته، يتتلمذ على يد شيخه يوسف النساج، ويبحث ليجد الحقيقة في شيخه النساج فيقوم الشيخ على تربية ذلك العالم الجليل تربية روحية.

فالمسألة إذن ليست مسألة علم ؛ فالغزالي مملوء بالعلم من مفرقه إلى قدميه حتى إن كتابه «تهافت الفلاسفة» الذي أشرنا إليه من مصنفاته ألفه وقد أناف على الخمسين وشرح في كتابه «المنقذ من الضلال» حياته الفكرية في تطورها من الدراسة المستفيضة إلى الشك ثم اليقين.

فالإمام الغزالي علم من أعلام أئمة الإسلام وهو الذي كان يلقب بحجة الإسلام فبحث عن المعرفة على يد العارف بالله يوسف النساج ليشرح له ويعرفه كيف الطريق إلى الله، إنه علم استنارت به بصيرته فهداه إلى اتباع من سلك قبله على نور وبصيرة.

يقول الغزالي محدثًا عن نفسه: «كنت في مبدأ أمري منكرًا لأحوال الصالحين ومقامات العارفين حتى صحبت شيخي يوسف النساج فلم يزل يصقلني بالمجاهدة حتى حظيت بالواردات فرأيت الله تعالى في المنام فقال لي: يا أبا حامد فقلت: أو الشيطان يكلمني؟ قال: لا بل أنا الله المحيط بجهاتك الست. ثم قال: يا أبا حامد زر مساطرك واصحب أقوامًا جعلتهم في أرضي محل نظري هم الذين باعوا الدارين بحبي. قلت: بعزتك إلا أذقتني برد حسن الظن بهم، قال: قد فعلت والقاطع بينك وبينهم تشاغلك بحب الدنيا فاخرج منها مختارًا قبل أن تخرج منها صاغرًا فقد أفضت عليك أنوارًا من جوار قدسي».

قال الغزالي: فاستيقظت فرحًا مسرورًا وجئت إلى شيخي يوسف النساج فقصصت عليه الرؤيا، فتبسم وقال: يا أبا حامد، هذه ألواحنا في البداية، بل إن صحبتي ستكحل بصيرتك بإثمد التأييد حتى ترى العرش ومن حوله ثم لا ترضى بذلك حتى تشاهد



ما لا تدركه الأبصار فتصفو من الأكدار طبيعتك وترقى على طور عقلك وتسمع الخطاب من الله تعالى كموسى ﴿إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾[القصص: 30].

وكان هذا ما أفاض الله به على الإمام الغزالي بعد تصوفه على يد شيخه النساج. فكتب بعد تصوفه مؤلفاته الكثيرة التي شرح فيها كثيرًا من الأحوال والمقامات وكان منها كتاب الإحياء كما كتب رحمه الله قبل تصوفه مؤلفات استدل بها معارضو الصوفية على ما وافق مذهبهم ولو أنصفوا لسلكوا مسلكه ونهجوا نهجه ليعرفوا عن يقين أن التصوف علم واتباع.

ويذكرنا الإمام الغزالي عن بداية دخوله طريق القوم فيقول: «لما أردت أن أنخرط في سلكهم وآخذ مآخذهم وأغترف من البحر الذي اغترفوا منه، خلوت بنفسي واعتزلت عن نظري وفكري وشغلت نفسي بالذكر، فانقدح لي من العلم ما لم يكن عندي ففرحت بذلك أنه حصل لي ما حصل للقوم، فتأملت فيه فإذا فيه قوة فقهية مما كنت عليه قبل ذلك فعلمت أنه بعد ما خلص لي، فعدت إلى خلوتي واستعملت ما استعمله القوم فوجدت مثل الذي وجدت أولاً وأوضح وأسنى فسررت فتأملت فإذا فيه قوة فقهية مما كنت عليه أولاً وما خلص لي، فعاودت ذلك مرارًا والحال الحال فتميزت عن سائر النظار أصحاب الأفكار بهذا المقدار ولم ألحق بدرجة القوم في ذلك وعلمت أن الكتابة على المحو ليست كالكتابة على الصفاء الأول والطهارة الأولى».

نعم لقد علم الشيخ أن العلم الإلهي الموهوب لا يأتي للمريد إلا على طهر ونقاء وصفاء في سريرته، فالمسألة كما ذكرنا ليست مسألة عالم فقط ولكن المسألة اتباع من سلك.

فالشيخ الغزالي كان لابد أن يبحث عن الشيخ الذي يأخذ بيده في هذا البحر العميق الهائل.. نعم الكتابة على المحو ليست كالكتابة على الصفاء فشتان أن تكتب على ورقة ممحاة وتظهر الكتابة عليها كما تظهر على ورقة نقية بيضاء لم يحدث المحو فيها. لقد تميز الشيخ عن أقرانه بما حصل له من فتوحات الذكر عن سائر النظار أصحاب الأفكار كما قال الشيخ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لقد تميز بهذا المقدار من فيوضات الأذكار ولكنه لم يصل في هذا

الوقت لما وصل إليه القوم، لقد عاود الغزالي الذكر والخلوة مرارًا ولكن المسألة هنا أيضًا ليست مسألة الذكر وحده.

نعم للذكر أنوار وفيوضات وإشراقات لكن الإشراقات والفيوضات لا يقف على كنه حقيقتها إلا عارف سالك، فيرقى ويرتقي منها إلى ما هو أعلى مقامًا وأرقى حالاً، إذنْ لا بد من الأستاذ العالم ولا بد من الشيخ المربي يسلك بالغزالي العالم الفقيه؛ إنه الشيخ يوسف النساج.

ج- العز بن عبد السلام والقطب الشاذلي:

العز بن عبد السلام هو العالم العارف عبد العزيز عبد السلام بن القاسم بن الحسن ابن محمد المهذب شافعي المذهب وإليه انتهت رئاسته وقصد بالفتاوى من الآفاق.

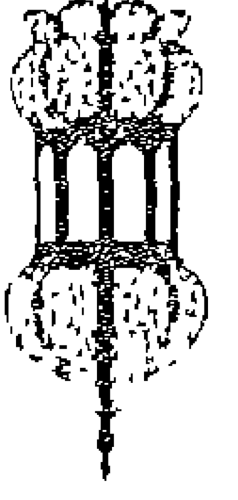
ولد في بلاد الشام سنة سبع أو ثمان وسبعين وخمسمائة من الهجرة ودرس على فخر الدين ابن عساكر وغيره وبرع في المذهب الشافعي ودرس بعده في مدارس بدمشق، وأخرجه الصالح إسماعيل من دمشق فلجأ إلى مصر فأكرمه الملك الصالح أيوب بن الكامل وولاه قضاء مصر ثم بعد ذلك أقره على التدريس حتى توفي عن عمر يجاوز الثمانين ودفن رضي الله عنه بسفح المقطم بمصر.

يقول عنه ابن دقيق العيد – وكان من تلاميذ العز بن عبد السلام : «كان ابن عبد السلام أحد سلاطين العلماء».

وله مؤلفات كثيرة منها الفتاوى الموصلية، وشجرة المعارف، والتفسير الكبير والإلمام في أدلة الأحكام، والفرق بين الإيمان والإسلام، ومسائل الطريق وغيرها.

ومسائل الطريق ألفه الشيخ بعد تصوفه وكذلك كتابه زبد خلاصة التصوف والمسمى بحل الرموز، وهو كتاب تحدث فيه الشيخ عن كثير مما يتعلق بأحوال العارفين ومراتب السلوك وهو يدل على تذوق الشيخ أحوال السالكين إلى الله.

يقول ابن دقيق العيد: «وما رأيت مثل شيخي سلطان العلماء عز الدين بن عبدالسلام، فلقد كان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر شيئًا تصنعه طبيعته كما يصنع



جسمه الحياة فلا يبالي هلك فيه أو عاش، إذ هو في الدم كالقلب لا تناله يد صاحبه ولا يد غيره ولم يتعلق بمال ولا جاه ولا ترف ولا نعيم، وانتزع خوف الدنيا من قلبه فغمرته الروح السماوية التي تخيف كل شيء ولا تخاف، وكان بهذه الروح كأنه تحويل وتبديل في طباع الناس».

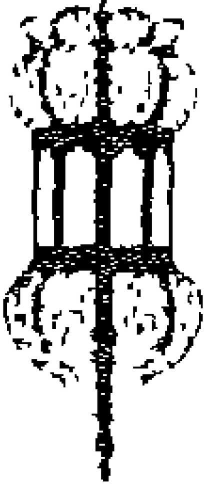
وكان الشيخ رضي الله عنه على سعة علمه وغزارة فكره كغيره من العلماء يرى أن المنهج في السير إلى الله هو الكتاب والسُّنَّة على ظاهرهما وهذا هو الحق ولم يكن يعبأ بمن يدعون الولاية والقرب من الله حتى التقى بالعارف بالله القطب الشاذلي رضي الله عنه، وكان أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه قطبًا جامعًا للشريعة والحقيقة على حد سواء، فقد كان الشاذلي عالمًا بالعلوم الظاهرة جامعًا لدقائق فنونها ومفتضًا لأبكار المعاني وعيونها من حديث وتفسير وفقه وأصول ونحو وتصريف ولغة ومعقول وحكمة وآداب.

يقول عنه صاحب المفاخر العلية: «وهو صاحب الإشارات العلية والعبارات السنية جاء في طريق القوم بالأسلوب العجيب والمنهج الغريب الذي جمع بين العلم والجمال أو الهمة والمقال».

ويقول شارح القاموس المحيط السيد مرتضى الزبيدي صاحب تاج العروس: «وكان ممن يحضر مجلسه العز بن عبد السلام وابن دقيق العيد وناهيك بهما والحافظ المنذري وابن الحاجب وابن الصلاح وابن عصفور وغيرهم بالمدرسة الكاملية من القاهرة».

وهؤلاء الذين ذكرهم شارح القاموس هم من سلاطين العلماء في ذلك الوقت.

وكان العز بن عبد السلام حريصًا على حضور مجلس الإمام الشاذلي رضي الله عنه ليسمع منه هذا الفيض اللدني، يقول صاحب المفاخر العلية إن الشيخ عز الدين بن عبدالسلام كان يحضر مجلس الأستاذ أبي الحسن الشاذلي فيسمع تقريره للحقائق ويشاهد حسن إفصاحه عن العلم اللدني فعند ذلك يحصل له وارد من جانب الحق ويركض على قدميه طربًا مع المريدين ويقول: «تأملوا هذا التقرير فإنه قريب من ربه».



وذات مرة كانوا يتدارسون الرسالة القشيرية يقرأ عليهم وهم يسمعون ويشرحون وكان الشيخ أبو الحسن صامتًا يستمع فلما فرغوا طلبوا إليه أن يتحدث فقال لهم: أنتم سادات الوقت وكبراؤه وقد تكلمتم، فألحوا عليه في أن يتحدث إليهم فسكت الشيخ فترة ثم تكلم في انطلاق وفي روحانية لا يمكن التعبير عن وصفها بأسمى من كلمة العز بن عبد السلام حيث خرج إلى صدر المجلس ينادي بأعلى صوته: «هلموا اسمعوا هذا الكلام الغريب القريب العهد من الله».

كلام غريب ليس مسطورًا في كتب ولا هو موجود بأسفار وقريب عهد من الله، فهو إلهام الوقت والساعة ووحي اللحظة الكائن فيها الحديث.

لقد اعتنق العز بن عبد السلام مذهب الشاذلي في الطريق إلى الله عن يقين وعن اقتناع وصار العز من خواص مريدي الشيخ وتبعه في ذلك تلميذه ابن دقيق العيد، ولقد ذكرنا أن شارح القاموس ذكر أن ابن دقيق العيد كان ممن يحضرون مجلس الشيخ أبي الحسن الشاذلي.

نعم لقد كان ابن دقيق العيد من الحريصين على حضور مجالس الشيخ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فلم يكن ذلك إلا عن قناعة منه.

وابن دقيق العيد عالم جليل كم عارض الصوفية وكم ناقد إشاراتهم لكنه وجد ضالته عند أبي الحسن الشاذلي وأعجبه منهج الشيخ في تربيته تلاميذه ومريديه.

ويقول لنا الإمام الشعراني رَضِيَ اللهُ عَنْهُ في الطبقات عن شيخه علي الخواص إنه قال:

«كانت القاعدة عند الشيخ أبي الحسن الشاذلي والشيخ أبي العباس والشيخ تاج الدين بن عطاء الله السكندري والشيخ ياقوت العرش في قبول الطلاب ألا يدخل أحد الطريق إلا بعد تبحره في علوم الشريعة وآلاتها بحيث يقطع العلماء في مجالس المناظرة بالحجج الواضحة فإذا لم يتبحر كذلك لا يأخذون عليه العهد».

هذا هو الطريق إلى الله عند أبي الحسن الشاذلي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ .. علم واتباع.

د- الإمام الشعراني والشيخ علي الخواص:

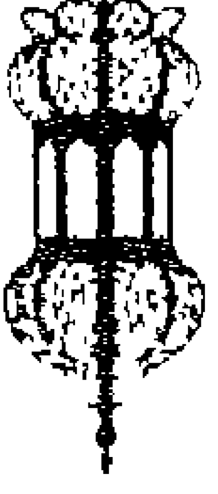
لقد أرخ الشعراني لنفسه في لطائف المنن فقال يحدثنا عن نفسه: «أحمد الله تعالى حيث جعلني من أبناء الملوك فإني بحمد الله تعالى عبد الوهاب بن أحمد بن علي بن أحمد بن علي بن محمد بن زوفا ابن الشيخ موسى المكنى في بلاد البهنسا بأبي العمران جدي السادس ابن السلطان أحمد ابن السلطان سعيد ابن السلطان فاشين ابن السلطان محيا ابن السلطان زوفا ابن السلطان ريان ابن السلطان محمد بن موسى ابن السيد محمد بن الحنفية ابن الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه».

أي أن الإمام الشعراني ينتسب إلى الدوحة العلوية الهاشمية.

ولد الشعراني ببلدة «قلقشندة» وهي قرية جده لأمه في السابع والعشرين من رمضان عام 898 هـ على أصح الروايات، ثم انتقل بعد أربعين يومًا من مولده إلى قرية أبيه وتسمى ساقية أبي شعرة وإليها انتسب فلُقب بالشعراني. وحفظ الشعراني في قريته القرآن الكريم ثم حفظ أبا شجاع والأجرومية في علم النحو ودرسهما على أخيه الشيخ عبد القادر. توفي والده قبل أن يبلغ العاشرة فنشأ يتيمًا من الأبوين وكان الله وحده - كما يقول - هو نصيره ووليه.

جاء الشعراني إلى مصر في سنة عشرة وتسعمائة وكان عمره اثنتي عشرة سنة فأقام في الجامع الغمري ولبث في مسجد الغمري يعلم ويتعلم ويتهجد ويتعبد سبعة عشر عامًا، ثم انتقل إلى مدرسة أم خوند وفيها بزغ نجم الشعراني وتألق.

عاش الشعراني حياته تحت ظلال المساجد عابدًا طالبًا للعلم واتصل منذ يومه الأول في مصر بصفوة علمائها أمثال جلال الدين السيوطي وزكريا الأنصاري وناصر الدين اللقاني والرملي والسمنودي وأضرابهم. ودرس الشعراني على هؤلاء الأعلام الأفاضل الفقه والحديث والتفسير والأدب واللغة والتصوف، ولكن هذه الدراسة لم ترض أشواق قلب الشعراني ونداءات روحه، فقد كان دائمًا يتطلع إلى سلوك الطريق إلى الله.

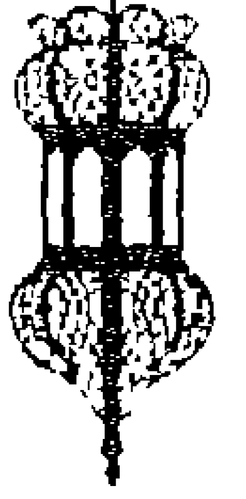


جاهد الشعراني نفسه وألهمه الله مجاهدتها من غير شيخ، لكن الشعراني كان يبحث عن الشيخ الذائق الواصل صاحب البصيرة والإلهام ليساعده على اختصار الطريق وإزالة عقبات النفس الخفية حتى أذن الله له بالفتح فجمع بينه وبين الخواص.

وصلة الشعراني بالخوَّاص هي آية الآيات على مكانة الشيخ في الطريق والآية الكبرى على مقام العلم اللدني، لقد كان الخواص أميًّا وكان الشعراني عالمًا ذلك هو حكم الظاهر، أما حكم الباطن فلقد كان الخواص عالمًا وكان الشعراني أميًّا.

يقول الشيخ الشعراني يصف شيخه: «رجل غلب عليه الخفاء فلا يكاد يعرفه بالولاية والعلم إلا العلماء العاملون لأنه رجل كامل عندنا بلا شك والكامل إذا بلغ مقام الكمال في العرفان صار غريبًا في الأكوان».

ويتحدث الشعراني عن المجاهدات التي أخذه شيخه بها وعن الفتوحات التي ظهرت له على يديه وعن بحار علوم شيخه واغترافه من هذه البحار الزاخرات، نلخصه في أقوال الشعراني رَضِيَ اللهُ عَنْهُ حيث يقول: «وكانت مجاهداتي على يد سيدي علي الخواص كثيرة ومتنوعة، منها أنه أمرني أول اجتماعي عليه ببيع جميع كتبي والتصدق بثمنها على الفقراء ففعلت وكانت كتبًا نفيسة مما يساوي عادة ثمنًا كثيرًا فبعتها وتصدقت بثمنها فصار عندي التفات إليها لكثرة تعبي فيها وكتابة الحواشي والتعليقات عليها حتى صرت كأنني سلبت العلم. فقال لي اعمل على قطع التفاتك إليها بكثرة ذكر الله عز وجل فإنهم قالوا متلفت لا يصل فعملت على قطع الالتفات إليها حتى خلصت من ذلك بحمد الله. ثم أمرني بالعزلة عن الناس حتى صفا وقتي وكنت أهرب من الناس وأرى نفسي خيرًا منهم فقال لي اعمل على قطع أنك خير منهم فجاهدت نفسي حتى صرت أرى أرذلهم خيرًا مني. ثم أمرني بالاختلاط بهم والصبر على أذاهم وعدم مقابلتهم بالمثل فعملت على ذلك حتى قطعته فرأيت نفسي حينئذ أنني صرت أفضل مقامًا منهم فقال لي اعمل على قطع ذلك فعملت حتى قطعته، ثم أمرني بالاشتغال بذكر الله سرًّا وعلانية والانقطاع بالكلية إليه وكل خاطر خطر لي مما سوى الله عز وجل صرفته عن خاطري فورًا فمكثت على ذلك عدة أشهر».



لقد وجد الشعراني مفاتيحه عند الشيخ الخواص، لقد اجتمع الشعراني بكثير من أهل الطريق على حد قوله يلتمس لديهم المفاتيح والأبواب فلم يكن له وديعة عند أحد منهم.

لقد كان الشعراني معترضًا على ولاية شيخه في البداية فكان كلما مر عليه قال له ما اتخذ الله وليًا جاهلًا ولكن الشيخ لا يريد رد فتواه عليه حتى جاء اليوم الذي قال له الشيخ فيه اتخذني وعلمني.

نعم يقول سبحانه في محكم التنزيل: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ﴾[البقرة: 282].

إنه الفيض الإلهي الذي كلم به الخضر موسى عليهما السلام، لقد نال الخواص رضي الله عنه تقدير علماء عصره واحترامهم له وتعظيمهم لحديثه وعلمه، وكان الشعراني على إمامته في علوم الحديث والتفسير واللغة تلميذًا أمام هذا الأمي العالم؛ ينهل من علمه ويرتوي من فيوضات الله عليه .. فسبحان من علم آدم ولم يكن لآدم قبل أن يعلمه الله شيءٌ من علمه، لقد قام الخواص الأمي الشيخ رضي الله عنه على تربية الشعراني «الإمام العالم» حتى أتاه من الله الفتح وشهد له علماء عصره بالولاية والقطبانية حتى إن مستشرقي الغرب أفاضوا في الحديث عن الشعراني.

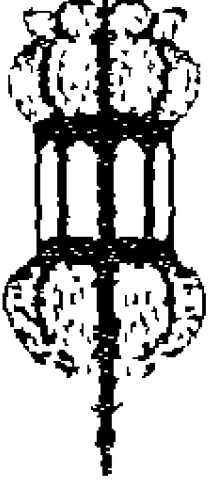
يقول المستشرق فولرز: «إن الشعراني كان من الناحية العلمية والنظرية صوفيًا من الطراز الأول وكان في الوقت نفسه كاتبًا بارزًا في ميدان الفقه وأصوله».

ويقول العلامة ماكدونالد: «إن الشعراني كان رجلًا دراكًا نفاذًا مخلصًا واسع العقل وهو رجل أخلاق تهزه أنفة عالية».

ويقول المستشرق نيكلسون: «كان مفكرًا مبدعًا أصيلًا».

لقد كانت تربية الخواص للشعراني وراء هذا الفيض من إعجاب المفكرين المستشرقين.

وفي سطور وجيزة أردنا أن نوضح أن الطريق إلى الله تربية عن علم، وسلوك عن تقوى، وسير على بصيرة، واتباع عن عقيدة.



لقد كان سيدي علي الخواص أميًّا لا يقرأ ولا يكتب، ولكن الله علمه وآتاه من فضله ففتح الله به على كثير من العلماء والمريدين؛ ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله الأمي الذي علم المتعلمين ونهل من فيضه وفضله أكابر الأولياء والعارفين.

والحقيقة أن ما وردنا من سلوك بعض العلماء الأفاضل على يد مشايخ الصوفية لم يكن فريدًا في عصورهم ولم يكن مثالًا نادرًا في غيره من العصور، بل كان في كل عصر وفي كل زمان من يقرأ لهؤلاء الصوفية بعلمهم وفضلهم فيعتنق مذهبهم فيصير على طريقتهم، أما الذين أخذوا الأمور على ظواهرها ولم يبحثوا عن إشاراتها وبواطنها فأولئك الذين حدا بهم فكرهم وفهمهم للاعتراض على ما ذهب إليه العارفون من الصوفية، والذين اعتنقوا المذهب الصوفي من العلماء الحنابلة بعد أن كانوا من معارضيه - فلم يكن ذلك إلا عن قناعة من علم وفهم عن نور بصيرة، وكثير من هؤلاء يفوقون في علمهم ابن تيمية وغيره ممن تبع فكره وصار على مذهبه.

ولعلني أردت أن أشير إلى من اعتنق المذهب الصوفي أو السلوك الصوفي من العلماء الحنابلة؛ لأوضح للقارئ أن هؤلاء الأفاضل ممن ينسبون اليوم إلى ما يسمونه المذهب السلفي، فقد كثرت المسميات وكثرت الفرق، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

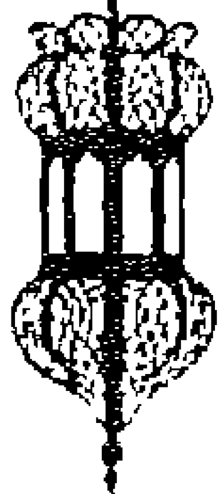
لكن من صار على المذهب الصوفي من علماء المالكية والشافعية والأحناف وغيرهم من أصحاب المذاهب والعلماء فهم كثير ولا يحصى لهم عدد.

فمن الحنابلة العلماء الذين سلكوا الطريق إلى الله على يد مشايخ عصورهم من الصوفية:

الإمام موفق الدين ابن قدامة المقدسي «صاحب المغني» ..

والإمام ابن حميد النجدي التميمي «صاحب السحب الوابلة» ..

والإمام عبد الله بن محمد الأنصاري الهروي الحنبلي ..



والإمام العلامة الحنبلي «صاحب المنهج الأحمد في تراجم أصحاب الإمام أحمد»..

والإمام أحمد بن سليمان الحسن النجاد ..

والإمام أحمد بن محمد قدامة بن مقدام ..

والإمام إسماعيل بن إبراهيم بن علي القراء ..

والإمام جعفر بن الحسن المقري الفقيه الزاهد ..

والإمام جهم العبكري صاحب الإمامين أحمد بن حنبل وبشر بن الحارث الحافي..

والإمام سعيد عثمان بن مرزوق بن حميد بن سلمة القرشي..

والإمام عبد الله بن أبي بكر العربي البغدادي..

والإمام عبد الله بن أبي الحسن بن أبي الفرج الطرابلسي..

والإمام عبد الله بن عطاء الله بن عبد الله بن أبي منصور الهروي..

والإمام عبد الواحد بن محمد الشيرازي..

والإمام عثمان بن عيسى أبو عمر الباقلاني..

والإمام الحافظ الذهبي والإمام علي بن عقيل بن محمد بن عقيل..

وغير هؤلاء كثير من الحنابلة الذين صاروا على دربهم ونهجوا مسلكهم، وذكر ابن تيمية في درء التعارض أن كثيرًا من علماء الحديث كانوا ينتسبون إلى صوفية زمانهم.

قال ابن تيمية في درء التعارض جزء 8 ص 501 ما نصه: «وهذا الشيخ أبو محمد ابن عبد البصري المالكي طريقته طريقة أبي الحسن بن سالم وأبي طالب المكي وأمثالهم المنتسبين إلى السُّنَّة والمعرفة والتصوف واتباع السلف وأئمة الحديث والسُّنَّة كمالك وسفيان الثوري وحماد بن زيد وحماد بن سلمة وعبد الرحمن بن مهدي والشافعي وأحمد بن حنبل وأمثالهم، وكذلك ينتسبون إلى سهل بن عبد الله التستري وأمثالهم من الشيوخ».

ومعلوم عند أهل العلم أن سهل بن عبدالله التستري كان شيخًا من مشايخ الصوفية في عصره.

كذلك نقل الصفدي تلميذ العلامة ابن كثير (وهو تلميذ ابن تيمية) في «الوافي في الوفيات جزء 21 ص 141، 142» أن ابن كثير تصوف على طريقة أبي الحسن الشاذلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

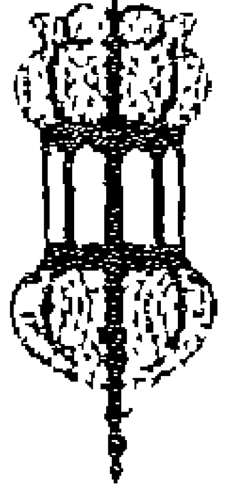
وذكر چورچ مقدسي (وچورچ مقدسي هذا مستشرق أمريكي من أصل شامي له دراسات في المذهب الحنبلي وحقق لابن عقيل) أن الشيخ ابن تيمية ينتسب إلى طريقة القادرية، ولعل ما سند إليه هو سلسلة شيوخ ابن تيمية التي تبدأ من موفق الدين ابن قدامة صاحب المغني وتلميذ الشيخ عبد القادر الجيلاني المباشر وخريج المدرسة القادرية في بغداد.

وذكر أيضًا ابن عبد الهادي في مقالته تحت عنوان: «العلقة بلبس الخرقة» من كتاب مسائل من التراث الصوفي في لبس الخرقة 36 طبعة دار الرازي قوله: «وأحد طرقها التي نقلت إلينا والحمد لله وصلت الطريقة التي أشار إليها بقية الأعلام وأحد مشايخ الإسلام تقي الدين أبو العباس أحمد بن تيمية - رحمه الله - قال (أي ابن تيمية): وقد كنت لبست خرقة التصوف من طرف جماعة من الشيوخ من جملتهم الشيخ عبد القادر الجيلاني وهو أجل الطرق المشهورة».

وقال ابن عبد الهادي أيضًا قال ابن تيمية: «فأجل الطريق طريق سيدي عبد القادر الجيلاني - رحمة الله -».

فهل كان ابن تيمية صوفيًا، أم كان سُنيًا ناسكًا، أم كان محبًا لبعضهم ومنكرًا على البعض الآخر؟

لكن القول بأنه كان سنيًا ناسكًا فهو لا يحمل عندنا غير أنه كان صوفيًا إن كانوا يفهمون معنى التصوف. وإنني لست أدري ما يحملني على عدم التصديق بصوفية الرجل إذا أنت قرأت ما قال عن التصوف والعارفين من الصوفية. وستجد أن الرجل



منصف ومحق كما وجدته من قبل منكرًا ومهاجمًا، وقد أفردنا ما جاء من مقالاته من هجوم على سادة القوم من الصوفية تجعل القارئ يميل إلى عدم التصديق بتصوفه.

ولقد ذكرت ما ذكرت قولي: «عن ابن تيمية أو الناقل عن ابن تيمية».

وذكرت أيضًا قولي: «إن أردت الشيخ مهاجمًا فستجد ذلك في مقالاته وإن أردته منصفًا فستجد ذلك في كثير من كتاباته».

فماذا قال ابن تيمية عن التصوف؟ وماذا قال عن الخوارق التي تحدث للأولياء والعارفين ؟ وماذا قال عن العلم اللدني وكرامات العارفين؟

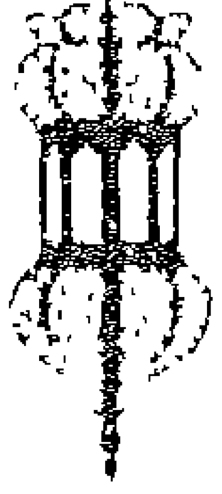
ولعل ما ذكره أو نسبوه إلى الإمام ابن تيمية - رحمه الله - من إنكار على الصوفية كان قبل سلوكه طريق التصوف كما حدث مع غيره من العلماء كالإمام الغزالي والإمام العز بن عبد السلام والشيخ ابن دقيق العيد وغيرهم.

فإذا رجعت إلى ما صنفه الغزالي قبل تصوفه فستجد من مصنفاته إنكارًا على الصوفية حتى إن بعض الجهلاء يستدل بما جاء في كتبه على ما يناسب فكرهم من إنكار وهم لا يعلمون أن هذا كان قبل تصوفه.

لقد أشاد ابن تيمية بمسلك الغزالي فقال في نقض المنطق ص 54: «فإن أبا حامد كثيرًا ما يخيل في كتبه على ذلك النور الإلهي وعلى ما يعتقد أنه يوجد للصوفية والعباد برياضتهم وديانتهم من إدراك الحقائق وكشفها لهم فيجد في كلام الشيخ والصوفية ما هو أقرب إلى الحق وأولى بالتحقيق من كلام الفلاسفة والمتكلمين والأمر كما وجدت». نعم الأمر كما وجد الغزالي وصدق به ابن تيمية.

قال ابن تيمية في مجموع الفتاوى جزء 20 ص 63: «ثم هم قائمون بظاهر الشرع فقط كعموم أهل الحديث والمؤمنين الذين في العلم بمنزلة العباد الظاهرين في العبادة، وإما عالمون بمعنى ذلك وعارفون به فهم في العلوم كالعارفين من الصوفية الشرعية فهؤلاء هم علماء أمة محمد المحضة وهم أفضل الخلق وأكملهم وأقومهم طريقة والله أعلم».

وقال في مجموع الفتاوى أيضًا 11/ 17: «طائفة ذمت الصوفية والتصوف وقالوا إنهم مبتدعون خارجون عن السُّنَّة، نقل عن طائفة من الأئمة في ذلك من الكلام

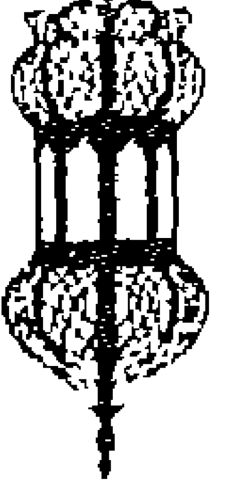


ما هو معروف وتبعهم على ذلك طوائف من أهل الفقه والكلام، وطائفة غلت فيهم وادعوا أنهم أفضل الخلق وأكملهم بعد الأنبياء وكلا طرفي هذه الأمور ذميم، فالصواب أنهم مجتهدون في طاعة الله كما اجتهد غيرهم من أهل طاعة الله ففيهم السابق المقرب بحسب اجتهاده وفيهم المقتصد الذي هو من أهل اليمين، وفي كل من الصنفين من قد يجتهد فيخطئ، وفيهم من يذنب فيتوب أو لا يتوب، ومن المنتسبين إليهم ظالم لنفسه عاص لربه وقد انتسب إليهم من أهل البدع والزندقة ولكن عند المحققين من أهل التصوف ليسوا منهم».

وقد قال- رحمه الله -: «وأما جمهور الأئمة وأهل الحديث والفقه والتصوف وعلى ما جاءت به الرسل وما جاء عنهم من الكتب والأثارة من العلم وهم المتبعون للرسالة اتباعًا محضًا لم يشربوه بما يخالفه».

وقال يعرف الصوفي في مجموع الفتاوى أيضًا 11/ 16: «هو - أي الصوفي- في الحقيقة نوع من الصديقين، فهو كالصديق الذي اختص بالزهد والعبادة على الوجه الذي اجتهدوا فيه فكان الصديق من أهل الطريق كما يقال صديقو العلماء وصديقو الأمراء فهو أخص من الصديق المطلق ودون الصديق الكامل الصديقية والتابعين وتابعيهم، فإذا قيل عن أولئك الزهاد والعباد من البصريين أنهم صديقون فهو كما يقال عن أئمة الفقهاء من أهل الكوفة أنهم صديقون أيضًا بحسب الطريق الذي سلكه بطاعة الله ورسوله بحسب اجتهاده وقد يكونون من أجل الصديقين بحسب زمانهم فهم من أكمل صديقي زمانهم. والصديق من العصر الأول أكمل منه والصديقون درجات وأنواع؛ ولهذا يوجد بكل منهم صنف من الأحوال والعبادات حققه وأحكمه وغلب عليه وإن كان غيره في ذلك الصنف أكمل منه وأفضل منه».

هذا قليل من كثير ذكره العلامة ابن تيمية في كتابه «مجموع الفتاوى» ولعل القارئ يجد فيها ذكر الشيخ - رحمه الله - عن الصوفية والتصوف إجلال الشيخ وتبجيله للمحققين من الصوفية ولمن سلك منهم المنهج الصوفي الحق، وكذلك تجد الشيخ منصفًا محقًّا فيما أفاض به وعلمه عنهم.



قال ابن تيمية في مجموع الفتاوى جزء 19 ص 312 ما نصه: «فما كان من الخوارق - من باب العلم - فتارة أن يسمع العبد ما لا يسمعه غيره وتارة يرى ما لا يراه غيره يقظة ومنامًا، وتارة بأن يعلم ما لا يعلم غيره وحيًا وإلهامًا أو إنزال علم ضروري أو فراسة صادقة ويسمى كشفًا ومشاهدات ومكاشفات ومخاطبات، فالسماع مخاطبات والرؤيــة مشاهـدات والعلم مكاشفـة، ويسمى كله كشفًا ومكاشفة أي كشـف له عنه».

وقال أيضًا في «مجموع الفتاوى» 13/ 245: «وأما العلم اللدني فلا ريب أن الله يفتح على قلوب أوليائه المتقين وعباده الصالحين بسبب طهارة قلوبهم مما يكرهه واتباعهم ما يحبه ما لا يفتح به على غيرهم. وهذا كما قال علي: إلا فهمًا يؤتيه الله عبدًا في كتابه، وفي الأثر: من عمل بما علم ورَّثه الله علم ما لم يعلم، وقد دل القرآن الكريم على ذلك في غيرموضع».

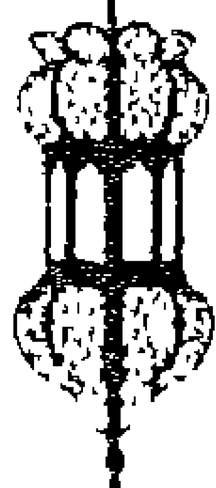
ولعل القارئ يحار بين ما روي عن ابن تيمية من إنكار على الصوفية وما روي عنه من إنصاف وإجلال لمذهبهم وسلوكهم، وأردت أن أشير إلى ما روي عن هجوم وأضع له دفاعًا يدحضه ويكذبه وأستبعد في دفاعي أن يكون ما روي عن الشيخ هو للشيخ نفسه.

فالأمر غريب وعجيب أن نرى من مؤلفات الشيخ - رحمه الله - كل هذه المتناقضات من الفتاوى والتي أرى أن الشيخ - رحمه الله - بريء من آراء دست عليه وخالف فيها جمهور الأئمة والعلماء.

فليس بغريب أن يخالف غيره في رأي فقهي أو أمر شرعي ولكن الغريب أن ينفرد برأي يخالف الإجماع فيه وينسب إليه ولم تقل به الأئمة وأصحاب مذهبه.

وفي عصره - رحمه الله - خالف كثيرًا من علماء عصره في بعض المسائل وعقدت مناظرات بينه وبينهم؛ منها ما رجع عنها، ومنها ما وافقه العلماء عليها.

ولسنا بصدد أن نورد ما وافقوه فيه أو خالفوه، لكننا نود أن نوضح أن الأمور التي يدعيها من يدعون أنهم أصحاب مذهبه ربما تكون من الأمور التي رجع عنها الشيخ - رحمه الله - بدليل وجود رأي أو فتوى نسبت إليه خالفتها أخرى نسبت إليه أيضًا.



الباب العاشر

مراتب الطريق عند الصوفية

ونبدأ فيه بمراتب الطريق عندهم، وأولاها التوبة، والثانية الاستقامة، والثالثة التهذيب، ولها أركان أربعة: الصمت والعزلة والصوم والسهر، والمرتبة الرابعة هي التقريب.

معنى كلمة طريق:

والطريق إلى الله معناه السير وإن شئت فقل السفر إليه، قال تعالى: ﴿ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ ﴾ [الذاريات: 50].

ولابد للمسافر من مطية يركبها أو دابة تعينه على أمر السفر، ودابة المريد نفسه وهواه فإن ركبها أعانته على الوصول وإن ركبته أقعدته عندها حتى يصلحها.

ومدلولها عند الإمام القشيري مجموعة من الآداب والأخلاق والعقائد التي يتمسك بها طائفة من الصوفية وهي عبارة عن مجاهدة النفس وهواها وقطع العلائق والإقبال على الله بالكلية.

ويقول صاحب كتاب ظهور الحقائق في بيان الطريق: «والطريق عند أهل الحقيقة عبارة عن مراسم الله تعالى وأحكامه التكليفية التي لا رخصة فيها وهي المختصة بالسالكين إلى الله تعالى مع قطع المنازل والترقي والمقامات».

ويقول الإمام الجنيد: «الطريقة هي العمل بالشريعة».

ويحتاج المسافر إلى مرشد يدله ويبين له ما في الطريق من أغوار وعقبات، وقد ورد لفظ الطريق في القرآن الكريم بالمفرد والجمع.

قال تعالى في سورة الجن: ﴿وَأَلَّوِ ٱسۡتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسۡقَيۡنَٰهُم مَّآءً غَدَقٗا﴾ [الجن: 16].

وقال تعالى في سورة الأحقاف ﴿مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [الأحقاف: 30] وقال في سورة النساء ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمۡ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغۡفِرَ لَهُمۡ وَلَا لِيَهۡدِيَهُمۡ طَرِيقًا﴾ [النساء: 168]، وقال في سورة طه: ﴿إِذۡ يَقُولُ أَمۡثَلُهُمۡ طَرِيقَةً إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا يَوۡمٗا﴾ [طه: 104].

هذا في صفة المفرد أما في صفة الجمع فقد ورد في سورة الجن قوله تعالى: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَۖ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدٗا﴾ [الجن: 11]، وقال ﷺ: «**الإيمان ثلاث وثلاثون وثلاثمائة طريقة من لقي الله بالشهادة على طريق منها دخل الجنة**» أخرجه ابن شاهين واللالكائي في السُّنَّة والطبراني والبيهقي في الشعب من رواية المغيرة بن عبد الرحمن بن عبيد عن أبيه عن جده «الإيمان ثلاثمائة وثلاث وثلاثون شريعة، من وافى شريعة منهن دخل الجنة» وقال الطبراني والبيهقي: ثلاثمائة وثلاثون. وفي إسناده جهالة.

والطريق إلى الله ليس سهلاً وكذلك ليس صعبًا، فهو مليء بالعقبات التي يحتاج المريد السالك أن يتخطاها، فلابد للمريد من مرشد سبق له السلوك، خبير بما في الطريق من أغوار وعقبات، وعبد يريد الوصول إلى الله، وعبد يريد الله أن يوصله إليه، فالأول ممتحن مختبر مجاهد، والثاني مصطفى ومجتبى، وللطريق مراتب عند أهل الله:

المرتبة الأولى: التوبة:

والتوبة تعني الرجوع إلى الله والإنابة إليه والعزم على عدم العودة إلى المعصية، والتوبة عندهم هي أصل كل مقام وحال وهي بمثابة الأرض للبناء؛ فمن لا أرض له لا بناء له، ومن لا توبة له لا حال ولا مقام له. وهي على ضربين: إنابة واستجابة.

فالإنابة: أن تخاف الله لقدرته عليك.

والاستجابة: أن تستحي من الله لقربه منك، وهي على أقسام: توبة العوام، وتوبة الخواص، وتوبة خواص الخواص.

وتوبة العوام على ثلاث مراتب:

الأولى: للكافرين، فتوبتهم إلى الإسلام والإيمان وترك الطغيان.

الثانية: للفاسقين، فتوبتهم عن الكبائر بالندم على ما مضى وترك الذنوب في الحال والعزم على عدم العودة إليها، ورد المظالم وإعادة الفرائض التي فاتت، وتربية النفس في الطاعة.

الثالثة: للمؤمنين، توبتهم عن الصغائر التي صدرت بسهو أو غفلة وجهل ونسيان.

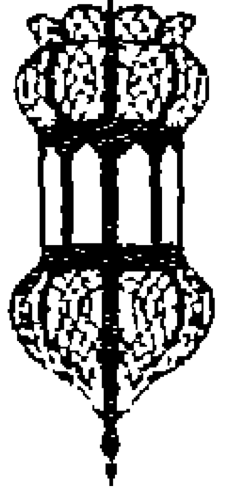
أما توبة الخواص فتكون عن الأفكار والأخطار (الخطرات) وحب الدنيا وأمورها. أما توبة خواص الخواص فتكون عن اشتغال القلب بغير الله سبحانه.

وفي شأن التوبة ذكر الله تعالى في كتابه آيات كثيرة تدل عليها منها:

قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: 110].

وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: 135]. وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ تُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾ [التحريم: 8].

وروى الإمام مسلم بسنده عن رسول الله ﷺ: «إن الله عز وجل يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها». وقال ﷺ: «لله أشد فرحًا بتوبة عبده حين يتوب إليه من أحدكم كان على راحلته بأرض فلاة فانفلتت منه وعليها طعامه وشرابه فأيس منها فأتى شجرة فاضطجع في ظلها وقد أيس من راحلته فبينما هو كذلك إذ هو بها قائمة عنده فأخذ بخطامها ثم قال من شدة الفرح: «اللهم أنت عبدي وأنا ربك» أخطأ من شدة الفرح» رواه مسلم واللفظ له ورواه الإمام أحمد بن حنبل من حديث أنس بن مالك ورواه الإمام البخاري رضي الله عنه.



والآيات والأحاديث في ذكر التوبة والاستغفار كثيرة.

وأول منزلة من التوبة هي إرضاء الخصوم ورد المظالم بما أمكنه، فإن اتسع ذات يده لإيصال حقوقهم إليهم أو سمحت أنفسهم بإحلاله والبراءة عنه وإلا فالعزم بقلبه على أن يخرج عن حقوقهم عند الإمكان، والرجوع إلى الله بصدق الابتهال والدعاء إليهم.

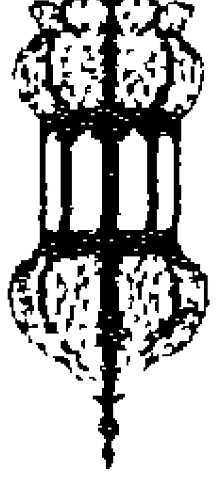
ولنتعرف أقوال وآراء أئمة الصوفية في معنى التوبة، يقول سهل بن عبد الله التستري رضي الله عنه: «التوبة ترك التسويف» وقال أيضًا: «ألَّا تنسى ذنبك».

ويقول الجنيد: دخلت يومًا على السري السقطي فرأيته متغيرًا فقلت له: ما بك؟ فقال: دخل عليَّ شاب فسألني عن التوبة فقلت له: «ألا تنسى ذنبك». فعارضني وقال: بل التوبة أن تنسى ذنبك، فقلت: إن الأمر عندي ما قال الشاب، فقال له الجنيد: ولِمَ؟ فقال السري: لأني إذا كنت في حال الجفاء فنقلني إلى حال الصفاء؛ فذكر الجفاء في حال الصفاء جفاء فسكت (يقصد المعصية جفاء والتوبة صفاء).

قال أبو نصر السراج: أشار سهل التستري فيما قال إلى أحوال المريدين والمتعرضين تارة لهم وتارة عليهم، فأما الجنيد فإنه أشار إلى توبة المحققين فهم لا يذكرون ذنوبهم بما غلب على قلوبهم من عظمة الله ودوام ذكره، وهو ما أشار إليه رويم بن أحمد حينما سئل عن التوبة فقال: «التوبة من التوبة» والمعنى كما سبق إيضاحه هو عدم الاعتماد على التوبة دون رحمة الله تعالى.

قال الإمام أبو عبد الله ابن قيم الجوزية في كتابه مدارج السالكين: «إن من حصل له مقام أنس بالله وصفا وقته مع الله، بحيث يكون إقباله على الله، واشتغاله بذكر آلائه وأسمائه وصفاته أنفع شيء له، حتى نزل عن هذه الحالة، واشتغل بالتوبة من جناية سالفة قد تاب منها. وطالع الجناية واشتغل بها عن الله. فهذا نقص ينبغي له أن يتوب إلى الله منه. وهو توبة من هذه التوبة. لأنه نزول من الصفاء إلى الجفاء. والله أعلم».

وبهذا القول وافق ابن قيم الجوزية قول الإمام الجنيد رضي الله عنه، أما ما ذكره الفقهي في قوله: «إن هذا يتمشى مع اعتقاد وحدة الوجود تمام التمشي؛ لأنه يتوب قبل أن يصل



إلى العرفان، فإذا وصل إلى أن يكون عارفًا بالحقيقة انكشف عنه الحجاب بزعمهم فرأى الرب عبدًا والعبد ربًّا فيتوب من التوبة التي كانت قبل العرفان».

وكلام الفقهي هذا عارٍ من الصحة تمامًا وفيه افتراء على العارفين بالله من الصوفية ولم يرد عن أحد من العارفين بالله منهم أن قال مثل هذا، كيف وهم الدعاة إلى الله على نور وعلم وبصيرة؟

ويقول عبد الله بن علي بن محمد التميمي: «شتان بين تائب يتوب من الزلات وتائب يتوب من الغفلات وتائب يتوب من رؤية الحسنات».

وكان يحيى بن معاذ يقول في دعائه: «إلهي لا أقول تبت ولا أعود لما أعرف من خلقي، ولا أضمن ترك الذنوب لما أعرف من ضعفي، ثم إني أقول لا أعود لَعَلِّي أن أموت قبل أن أعود».

وقال ذو النون المصري: «الاستغفار من غير إقلاع عن الذنب توبة الغافلين».

وقال ابن عطاء: «التوبة توبتان: توبة إنابة وتوبة استجابة، فأما توبة الإنابة فأن يتوب العبد خوفًا من عقوبته، وتوبة الاستجابة أن يتوب حياء من كرمه».

قال رجل لرابعة العدوية: «إني أكثرت من الذنوب والمعاصي فلو تبت هل يتوب علي؟».

فقالت رابعة : «لا بل لو تاب عليك لتبت».

وأتى إليها مرة أخرى رجل فقال لها : «إني أكثرت من الذنوب والخطايا أفتراه إن تبت يقبلني؟».

فقالت له: «ويحك أما سمعته يدعو المدبرين عنه فكيف لا يقبل على المقبلين عليه؟!».

ويروى عن أويس القرني أنه قال: مررت في بعض سياحتي براهب أسلم، فقلت له: يا راهب؛ ما أقل درجة يرقاها المريد؟

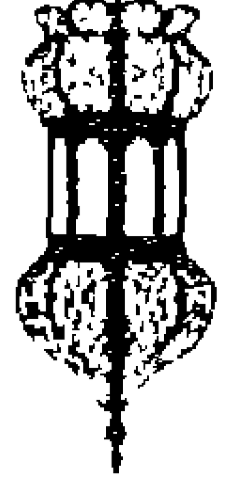
قال: «رد المظالم وخفة الظهر من التبعات؛ فإنه لا يصعد للعبد عمل وعليه تبعة أو مظلمة».

وقيل: أوحى الله إلى داود عليه السلام: «يا داود لو يعلم المدبرون عني كيف انتظاري لهم ورفقي بهم وشوقي إليهم ومحبتي لترك معاصيهم، لماتوا شوقًا إليَّ، يا داود هذه إرادتي للمدبرين عني، فكيف إرادتي للمقبلين عليَّ؟ يا داود أحوج ما يكون العبد إليَّ إذا استغنى عني وأرجى ما يكون لعفوي إذا أدبر عني وأجل ما يكون إذا رجع إليَّ خوفًا مني». (ذكره الغزالي في كتاب إحياء علوم الدين وفي الكواكب السائرة بأعيان المائة العاشرة النجم الغزي وفي المنثور لابن الجوزي).

روي عن أم المؤمنين عائشة أنها قالت: «لما أراد الله أن يتوب على آدم طاف بالبيت سبعًا والبيت يومئذ ربوة حمراء فلما صلى ركعتين استقبل البيت وقال: «اللهم إنك تعلم سري وعلانيتي فاقبل معذرتي، وتعلم حاجتي فأعطني سؤلي، وتعلم ما في نفسي فاغفر ذنوبي، اللهم إني أسألك إيمانًا يباشر قلبي ويقينًا صادقًا حتى أعلم أنه لن يصيبني إلا ما كتبت لي وأرضى بما قسمت لي». فأوحى الله تعالى إلى آدم: «يا آدم قد غفرت لك ذنبك ولن يأتيني أحد من ذريتك فيدعوني بهذا الدعاء الذي دعوتني به إلا غفرت ذنبه وكشفت همومه وغمومه ونزعت الفقر من بين عينيه وجاءته الدنيا وهو لا يريدها».(1)

وروي عن ثابت البناني قال: «بلغنا أن إبليس قال: يا رب إنك خلقت آدم وجعلت بيني وبينه عداوة فسلطني عليه وعلى ولده، فقال الله سبحانه وتعالى: «جعلت صدورهم مساكن لك» فقال: رب زدني، فقال: «لا يولد ولد لآدم إلا ولد لك عشرة»، قال: رب زدني قال: «تجري منهم مجرى الدم في العروق»، قال: رب زدني، قال: «وأجلب عليهم بخيلك ورجلك وشاركهم في الأموال والأولاد» قال: فعندها شكا آدم إبليس، فقال: يا رب إنك خلقت إبليس وجعلت بيني وبينه عداوة وبغضاء وسلطته عليَّ وعلى ذريتي وأنا لا أطيقه إلا بك، فقال الله تعالى: «لا يولد لك

(1) أخرجه الطبراني في الكبير وابن عساكر في تاريخ دمشق من حديث بريدة.



ولد إلا وكلت به ملكين يحفظانه من قرناء السوء» قال: رب زدني قال: «الحسنة بعشر أمثالها» قال: رب زدني قال: «لا أحجب عن ولدك التوبة ما لم يغرغر»[1].

وروي عن أبي بكر الصديق رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**لم يُصِرَّ من استغفر وإن عاد في اليوم سبعين مرة**»[2].

وقال ﷺ: «**إنه ليغان على قلبي فأستغفر الله في اليوم مائة مرة**»[3].

والغين شيء يغشى القلب فيغطيه بعض التغطية وهو كالغيم الرقيق الذي يعرض في الجو فلا يحجب عن الشمس، ولكن يمنع كمال ضوئها هذا ما ذكره الفخر الرازي - رحمه الله - في مفاتيح الغيب وقال إنهم ذكروا لهذا الحديث تأويلات:

أحدها: أن الله أطلع نبيه ﷺ على ما يكون في أمته من بعده من الخلاف وما يصيبهم فكان إذا ذكر ذلك وجد غيماً في قلبه فاستغفر الله لأمته.

ثانيها: أنه ﷺ كان ينتقل من حالة إلى حالة أرفع من الأولى فكان الاستغفار لذلك.

ثالثها: أن الغين عبارة عن السكْر الذي يلحقه في طريق المحبة حتى يصير فانيًا عن نفسه بالكلية فإذا عاد إلى الصحو كان الاستغفار من ذلك الصحو وهو تأويل أرباب الحقيقة.

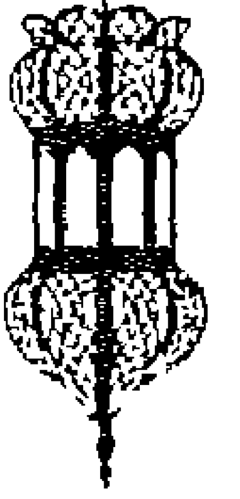
رابعها: وهو تأويل أهل الظاهر أن القلب لا ينفك عن الخطرات والخواطر والشهوات وأنواع الميل والإرادات فكان يستعين بالرب تعالى في دفع تلك الخواطر بالاستغفار.

ونعود ونعرض لقارئنا كيف كانت التوبة سببًا لاصطفاء الله لكثير من عباده حتى حازوا في القرب منه سبحانه مقامًا عاليًا فرضي عنهم ورضوا عنه.

(1) رواه أبو داود في السنن من حديث طويل لمعاوية بن أبي سفيان ورواه الغزالي في إحياء علوم الدين.

(2) أخرجه البخاري والترمذي.

(3) أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة وأخرجه مسلم من حديث الأغر المزني إلا أنه قال: «في اليوم مائة مرة».



إنَّ لِلَّـــــهِ عبـــــادًا فُطَـــــنَا
طَلَّقـــوا الدنيـــا وخـــافـــوا الفِتَـــنَـــا
نظـــــروا فيـــهـــا فلـمَّا عَلِمُـــوا
أنـــــها ليســـــت لِـــحَـــيٍّ وَطَـــنَـــا
جعلـــوهـــا لُجَّـــــةً واتَّـخَــــذُوا
صـــالِـــحَ الأعـــمالِ فيـــها سُـــفُـــنَا

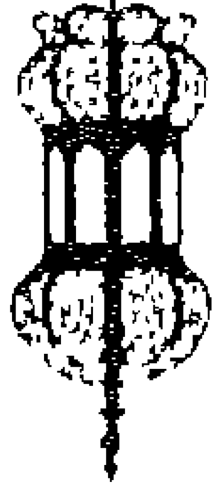
كان بشر بن الحارث يسير يومًا في الطريق فنظر؛ فإذا ورقة مكتوب فيها «بسم الله الرحمن الرحيم» ملقاة على الأرض في مكان غير نظيف فأسرع بشر يرفعها من الأرض ومسحها وتوجه إلى العطار واشترى منه طيبًا وطيَّب الورقة ورفعها إلى جدار لا تسقط منه على الأرض فسمع هاتفًا يقول: «يا بشـر طيبت اسمي في الدنيا لأطيبن اسمك في الدنيا والآخرة».

لكن بشرًا كان على عادة أهل الملوك لا يأبه لهذا المعنى إلا أنه ترك في نفسه أثرًا كبيرًا فجمال النداء يملأ أركان بشر ويهز وجدانه.

وينصرف بشر إلى ملذاته وبينما الرقص والزمر والكاسات، وإذا الباب يطرق فتخرج جارية من جواريه فتفتح الباب فإذا بالطارق يسأل الجارية: صاحب هذه الدار حر أم عبد؟ وتجيب الجارية على الفور: بل حرٌّ سيدُ قومه، قال لها: صدقتي لو كان عبدًا لأطاع سيده.

وترجع الجارية فيسألها بشر: ماذا قال الطارق ؟ قالت: يا سيدي إنه يسأل صاحب هذه الدار حر أم عبد، فقلت له بل حر سيد قومه فقال لي صدقتي لو كان عبدًا لأطاع سيده، فترك بشر موضعه يجري حافيًا خلف الرجل وهو يقول: نعم لو كان عبدًا لأطاع سيده.

لقد ظل بشر يكرر مقالة الرجل حتى أدركه فيطلب منه أن يعيد ما قال وبشر يبكي ويقول: نعم لو كان عبدًا لأطاع سيده.



وترك بشر ملكه وشهواته وملذاته تائبًا سائحًا سائرًا إلى الله، حتى قيل إنه لم يلبس نعلاً بعد ذلك، فكان إذا سئل: لم لا تلبس نعلاً؟ يقول: لأن ربي لم يصالحني إلا وأنا حافٍ.

وليس بشر بن الحارث الحافي الذي اصطلح مع الله على مثل الحالة التي ذكرناها، فلقد سبقه شيخه الفضيل بن عياض الذي كان فيما بعد شيخًا لبشر بن الحارث تلقى عنه بشر بن الحارث الطريق الى الله.

لقد كان الفضيل بن عياض في مبدأ أمره وريعان شبابه قاطعًا للطريق يأخذ من القوافل بجبروته ما يحملون بين أبيورد وسرخس، وكان للفضيل جارية يعشقها فأراد أن يرى معشوقته فها هو يتسلق الجدران إليها وإذا به يسمع تاليًا يتلو قول الله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ﴾ [الحديد: 16].

فنزل الفضيل من على الجدار وهو يقول: آن يا رب آن يا رب، وها هو راجع والليل يقبل، فأوى إلى خربة يجلس فيها حتى يطلع الصباح، وإذا به يسمع أهل القافلة القادمة إلى سرخس يقولون: «انتظروا حتى يطلع الصباح لئلا يلحق بكم الفضيل فيأخذ منكم كل ما معكم». يقول الفضيل: «هؤلاء يخافونني واسمي بينهم في معصية، اللهم إليك تبت وجعلت توبتي مجاورة لبيتك الحرام».

ولا يفوتنا ذكر سيدي إبراهيم بن أدهم رضي الله عنه كان قبل توبته من أبناء الملوك وكانت حياته حياة لعب ولهو وترف على عادة أبناء الملوك يقول رضي الله عنه: «كان أبي من أهل بلخ وكان من ملوك خراسان وكان من المياسير وحبب إلينا الصيد فخرجت راكبًا فرسي وكلبي معي، فبينما أنا كذلك ثار أرنب أو ثعلب فحركت قوسي فسمعت نداءً من ورائي: ألهذا خلقت؟ أم بهذا أمرت؟ فوقفت أنظر يمنة ويسرة فلم أر أحدًا فقلت: لعن الله إبليس، ثم حركت فرسي فأسمع نداءً أجهر من ذلك: يا إبراهيم ليس لهذا خلقت ولا بهذا أمرت، فوقفت أنظر يمنة ويسرة فلا أرى أحدًا فقلت: لعن الله إبليس، ثم حركت فرسي فسمعت نداءً مرة ثالثة وكأنه خارج من مقدم السرج الذي

أركب عليه: يا إبراهيم ما لهذا خلقت ولا بهذا أمرت، فوقفت وقلت: انتبهت انتبهت، جاءني نذير من رب العالمين والله لا عصيت الله بعد يومي هذا ما عصمني ربي».

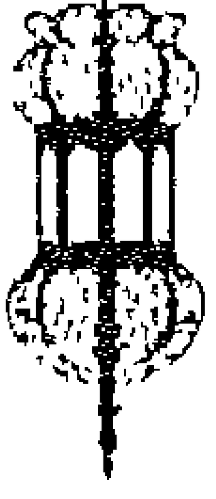
وتخلى إبراهيم عما كان فيه واتجه إلى الله تائبًا متضرعًا مناجيًا ربه قائلًا: «اللهم إني لم آت الذنوب جرأة عليك ولا استخفافًا بحقك ولكن جرى بذلك قلمك ونفذ به حكمك والمعذرة إليك».

وصادف راعيًا لأبيه فأخذ جبة للراعي من الصوف ولبسها وأعطاه فرسه وكل ما معه ثم دخل البادية ودخل مكة بعد ذلك وصحب بها سفيان الثوري والفضيل بن عياض وتلقى عنهما ثم رحل إلى بلاد الشام ومات بها رضي الله عنه.

وبعد أن ذكرنا ما ذكرناه نعرض ما جاء في كتاب مدارج السالكين للإمام أبي عبد الله ابن قيم الجوزية وما وافق فيه أقوال أئمة الصوفية وما أعرض عنه من كلام من أسماهم من متأخري الصوفية. يقول رحمه الله: «وقد ذكرنا أن التوبة – التي جعلوها من أول المقامات – هي غاية العارفين، ونهاية أولياء الله المقربين. ولا ريب أن حاجتهم إلى المحاسبة في نهايتهم، فوق حاجتهم إليها في بدايتهم».

فالأولى الكلام في هذه المقامات على طريقة المتقدمين من أئمة القوم كلامًا مطلقًا في كل مقام، ببيان حقيقته وموجبه، وآفته المانعة من حصوله والقاطع عنه، وذكر عامه وخاصه.

فكلام أئمة الطريق هو على هذا المنهاج، فمن تأمله – كسهل بن عبد الله التستري، وأبي طالب المكي، والجنيد بن محمد، وأبي عثمان النيسابوري، ويحيى بن معاذ الرازي، وأرفع من هؤلاء طبقة، مثل أبي سليمان الداراني، وعون بن عبد الله الذي كان يقال له حكيم الأمة وأضرابهما – فإنهم تكلموا على أعمال القلوب وعلى الأحوال كلامًا مفصلًا جامعًا مبينًا مطلقًا من غير ترتيب، ولا حصر للمقامات بعدد معلوم. فإنهم كانوا أجلَّ من هذا، وهممهم أعلى وأشرف، إنما هم حائمون على اقتباس الحكمة والمعرفة، وطهارة القلوب، وزكاة النفوس، وتصحيح المعاملة، ولهذا كلامهم قليلٌ، فيه البركةُ. وكلام المتأخرين كثير طويل قليل البركة.



وهنا أشار الشيخ ابن القيم – رحمه الله – إلى بعض من أسماهم متقدمين كسهل ابن عبد الله التستري، وأبي طالب المكي، والجنيد بن محمد، وأبي عثمان النيسابوري، ويحيى بن معاذ الرازي، ثم أشار بعد ذلك إلى متقدمين هم أرفع طبقة من هؤلاء مثل أبي سليمان الداراني وعون بن عبد الله لكن الشيخ لم يذكر لنا أسماء المتأخرين.

والحقيقة لا ندري كيف استطاع ابن القيم تقييم الفريقين ليوضح لقارئيه الأرفعَ طبقةً، وهذا أمر لا يعلمه إلا الله.

لكنه وافق المتقدمين والمتأخرين من سادات الصوفية عندما قال إن التوبة هي غاية العارفين ونهاية أولياء الله المقربين.

وقال أيضًا رحمه الله في الكتاب نفسه: «ومنزل (التوبة) أول المنازل، وأوسطها، وآخرها. فلا يفارقه العبد السالك، ولا يزال فيه إلى الممات. وإن ارتحل إلى منزل آخر ارتحل به. واستصحبه معه ونزل به. فالتوبة هي بداية العبد ونهايته، وحاجته إليها في النهاية ضرورية. كما أن حاجته إليها في البداية كذلك».

وقال الله تعالى: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ [النور: 31] وهذه الآية في سورة مدنية، خاطب الله بها أهل الإيمان وخيار خلقه أن يتوبوا إليه، بعد إيمانهم وصبرهم، وهجرتهم وجهادهم. ثم علَّق الفلاح بالتوبة تعليق المسبب بسببه، وأتى بأداة (لعل) المشعرة بالترجي إيذانًا بأنكم إذا تبتم كنتم على رجاء الفلاح، فلا يرجو الفلاح إلا التائبون، جعلنا الله منهم.

ولعل ما ذكره الشيخ ابن القيم – رحمه الله – يبين تأثره بسلوك أكابر العارفين من الصوفية الذين أشار إليهم كسهل التستري والجنيد وسليمان الداراني وعون ابن عبد الله وغيرهم الذين تكلموا عن أعمال القلوب والأحوال والمقامات فتراهم يحمدهم بقوله: « إنهم كانوا أجل من هذا وهممهم أعلى وأشرف، إنما هم حائمون على اقتباس الحكمة والمعرفة وطهارة القلوب وزكاة النفوس».

المرتبة الثانية: الاستقامة:

الاستقامة هي المرتبة الثانية في طريق القوم وهي لا تختلف كثيرًا عن مجاهدة النفس وهي سبب رئيسي في التقرب إلى الله؛ لأنها خروج عن المعهودات ومفارقة الرسوم والعادات والقيام بين يدي الله تعالى على حقيقة الصدق، وتعني صدق العبد مع الله وإخلاصه له، ولذلك يقول سيدي علي الدقاق رضي الله عنه: «الاستقامة لها ثلاثة مدارج: أولها التقويم ثم الإقامة ثم الاستقامة. فالتقويم من حيث تأديب النفوس، والإقامة من حيث تهذيب القلوب، والاستقامة من حيث تقريب الأسرار.

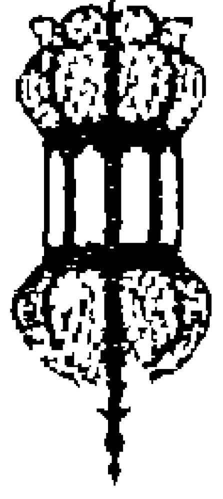
فتأديب النفوس بخروجها عن آفاتها، وآفات النفس كل ما يعيبها من كذب وحقد وحسد وخداع ومكر ودهاء وبخل وجبن إلى غير ذلك من الصفات الذميمة وترويضها على الصدق ومكارم الأخلاق. وأما تهذيب القلوب فبإخلاصها لله وإخلاص القلوب سر بين الله تعالى وعبده كما جاء في الحديث القدسي عن رب العزة قال: «الإخلاص سر من سري استودعته قلب من أحببته من عبادي»[1].

فإخلاص العبد لله في عمله وفي عبادته وفي طاعته دليل على محبة الله له، ولذلك قال أحد الصالحين: (لا يعرف الرياء إلا مخلص) ولذلك قال عن الاستقامة: الاستقامة من حيث تقريب الأسرار، فكل سر في عبادة وكل سر في طاعة صغرت أم كبرت لا يتوصل إليه السالك إلا بالإخلاص.

فتقريب الأسرار بالعمل على ما يوجب تحصيلها من إخلاص المريد في طاعاته أمر يؤهل القلب لتلقي أنوار الحق وسببٌ في تنزل الملائكة على العبد.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾ [فصلت: 30 - 32]. فتنزل الملائكة على العبد أساسه

(1) أخرجه الحافظ العراقي ورواه أبو القاسم القشيري في رسالته بسند ضعيف عن علي بن أبي طالب، وذكره الغزالي في الإحياء، وعده الألباني في الموضوعات.



أمران؛ إيمانه واستقامته؛ ولذلك قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه في معنى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟﴾ [فصلت: 30] : لم يشركوا، والإشراك له معنى ظاهر وله معنى باطن؛ أي هناك إشراك جلي أي ظاهر وإشراك خفي أي باطن ولا ينجو العبد منهما إلا بإخلاص العمل لله لا يُرَى لغير الله فيه شيء، ولذلك قال ابن عطاء: استقاموا على انفراد القلب بالله تعالى.

وقال الواسطي رضي الله عنه: «الخصلة التي بها كملت المحاسن وبفقدها قبحت المحاسن الاستقامة».

وقال القشيري رضي الله عنه: «الاستقامة توجب إدامة الكرامة».

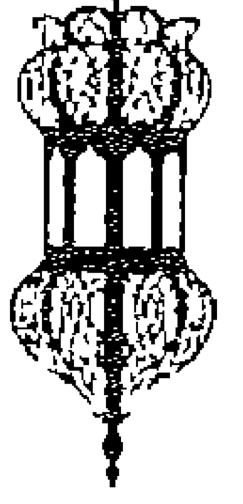
قال تعالى: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَـٰهُم مَّآءً غَدَقًا﴾ [الجن: 16] لم يقل سقيناهم بل قال أسقيناهم، يقال أسقيته إذا جعلت له سقيا فهو يشير إلى دوامها.

قيل إن الله تعالى أوصى إلى داود عليه السلام: «يا داود من صدقني في سريرته صدقته عند المخلوقين في علانيته»(1).

والاستقامة تعني إقامة العبد فيما أمره الله به على كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ وفيها اجتناب ما نهى الله عنه ودوام مراقبته عز وجل، قال بعض الحكماء لرجل: «استح من الله على قدر قربه منك وعلمه بك، وخف منه على قدر قدرته عليك، واستعد للدنيا على قدر إقامتك فيها، وأطع الله بقدر حاجتك إليه، واشكره بقدر نعمه عليك».

وقيل أيضًا إن الاستقامة هي ألاَّ تختار لنفسك غير ما يختاره الله لك ولا تدبر لها أمرًا، والاستقامة أيضًا درجة بها تمام الأمر وكماله وهي مقام لا يطيقه إلا الأكابر، يؤيده ما حُكِي عن بعض العارفين أنه رأى النبي ﷺ في المنام فقال له: يا رسول الله، روي عنك أنك قلت: «شيبتني هود» فما الذي شيبك فيها؟ أهو قصص الأنبياء وهلاك الأمم؟ قال: «لا، ولكن قول الله تعالى: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ﴾».

(1) رواه البخاري عن ابن عباس عنه معلقًا عن أبي سفيان ورواه الغزالي في الإحياء.



فالاستقامة لغة ضد الاعوجاج، وفي اصطلاح أهل الحقيقة هي الوفاء بالعهود كلها وملازمة الصراط المستقيم، والصراط المستقيم رعاية حد التوسط والعدل في كل الأمور من الطعام والشراب واللباس والنكاح وكل أمر دنيوي وديني ومن هُدِيَ إلى معرفة الصراط المستقيم كان سببًا لنجاته عند مروره عليه في الآخرة والهداية إلى معرفته من أجل وأعظم نعم الله على العبد. قال تعالى: ﴿وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [يونس: 25] وقال في حق النبي عليه الصلاة والسلام: ﴿وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ [الفتح: 2] وكما ذكرنا فإن الله تعالى مدح المستقيمين. يقول تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ [فصلت: 30]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [الأحقاف: 13].

ويقول ابن قيم الجوزية في مدارج السالكين: «فالاستقامة كلمة جامعة آخذة بمجامع الدين وهي القيام بين يدي الله على حقيقة الصدق والوفاء بالعهد».

والاستقامة تتعلق بالأقوال والأفعال والأحوال والنيات.

فالاستقامة فيها وقوعها لله وبالله وعلى أمر الله.

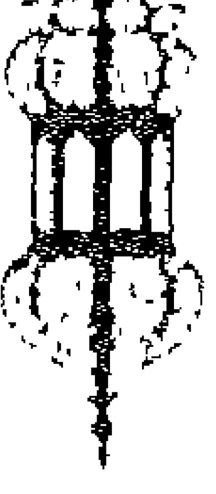
قال بعض العارفين: «كن صاحب الاستقامة لا طالب الكرامة؛ فإن نفسك متحركة في طلب الكرامة وربك يطالبك بالاستقامة» قال: «وسمعت شيخي ابن تيمية - قدس الله روحه - يقول: «أعظم الكرامة لزوم الاستقامة».

المرتبة الثالثة: التهذيب:

وتهذيب النفس عند الصوفية له أربعة أركان هي: الصمت والعزلة والسهر والصوم.

(١) الصمت:

فأما عن الصمت فليس معناه الصمت عن الكلام مطلقًا ولكنه هو النطق فيما يعنيه، فإذا نطق العبد فيما يعنيه وفيما لا بد منه فهو صامت.



وقال عليه الصلاة والسلام: «إن أكثر خطأ ابن آدم في لسانه»[1]، وقال: عليه الصلاة والسلام-: «من كثر كلامه كثر سقطه، ومن كثر سقطه كثرت ذنوبه، ومن كثرت ذنوبه كانت النار أولى به»[2].

وقال أيضًا : «من كان يؤمن بالله فليقل خيرًا أو ليصمت»[3]. وقال أيضًا: «من صمت نجا»[4].

وقيل له ﷺ: ما النجاة؟ فقال : «احفظ عليك لسانك، وليسعك بيتك، وابك على خطيئتك»[5].

والصمت نوعان :

صمت العوام : وهو إمساك اللسان كفًّا عن الكذب والغيبة.

وصمت الخواص : وهو كف اللسان والقلب، والمتوكل على الله صمت قلبه عن طلب الرزق ليقينه بأن رزقه آتيه.

وقال بشر بن الحارث الحافي: «إذا أعجبك الكلام فاسكت».

وقال لقمان لابنه: «لو كان النطق فضة لكان السكوت ذهبًا ولقد ندمت على الكلام مرارًا ولم أندم على السكوت مرة».

وقال بعض الفصحاء: «أغلق لسانك إلا عن حق توضحه أو باطل تدحضه أو حكمة تنشرها أو نعمة تذكرها».

وروي عن عمرو بن دينار أن أعرابيًا تكلم عند رسول الله ﷺ فأطال فقال النبي - عليه الصلاة والسلام -: «كم دون لسانك من حجاب؟». فقال: شفتاي وأسناني.

---

(1) رواه النسائي وهو حديث حسن ورواه البيهقي بإسناد حسن.

(2) رواه البيهقي في الشعب موقوفًا على عمر بن الخطاب، ورواه ابن حبان في روضة العقلاء، ورواه أبو نعيم في الحلية.

(3) رواه البخاري.

(4) أخرجه الترمذي من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص.

(5) أخرجه أحمد والترمذي والنسائي وابن ماجه وقال الترمذي: حديث حسن صحيح.

فقال ﷺ: «فإن الله عز وجل يكره الانبعاق في الكلام، فنضر الله وجه امرئ أوجز في كلامه فاقتصر على حاجته»[1].

وقال بعض الشعراء:

وزنِ الكـــلامَ إذا نطـــقتَ فإنمـــا يُبـدي عيــوبَ ذوي العيــوبِ المنطقُ

وقال حكيم: «تعلم الصمت كما تتعلم الكلام فإن كان الكلام يهديك فإن الصمت يقيك».

وقال الفضيل بن عياض: «من عد كلامه من عمله قل كلامه إلا فيما يعنيه. وقيل إن حمزة البغدادي كان حسن الكلام فهتف به هاتف: «تكلمت فأحسنت بقي أن تسكت فتحسن. فما تكلم بعد ذلك حتى مات».

وروي أيضًا أن سبب توبة داود الطائي أنه كان يجالس أبا حنيفة رضي الله عنه فقال له أبو حنيفة يومًا: يا أبا سليمان أما الأداة فقد أحكمناها (أي العلم)، فقال له داود: وأي شيء بقي؟ قال: الصمت، قال داود: فنازعتني نفسي إلى العزلة فقلت لا أعتزل حتى أجالسهم (يعني الناس) سنة ولا أتكلم، فجالسهم سنة ولم يتكلم في مسألة، قال: كانت المسألة تمر بي وأنا إلى الكلام فيها أشد شوقًا من العطشان إلى الماء ولا أتكلم».

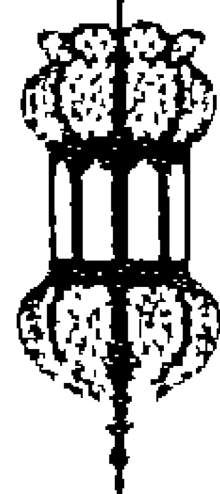
(ب) العزلة:

والعزلة عن الناس أو الخلوة مع الله تقتربان في المعنى استدلالًا بقول يحيى بن معاذ حيث يقول: انظر أنسك بالخلوة أو أنسك معه في الخلوة، فإن كان أنسك بالخلوة ذهب أنسك إذا خرجت منها، وإن كان أنسك به في الخلوة استوت لك الأماكن في الصحاري والبراري.

ذلك لأن العزلة في الحقيقة تعني اعتزال الخصال المذمومة، فتأثير العزلة في تبديل الصفات المذمومة بصفات محمودة، وليست العزلة للابتعاد عن الناس وعن الأوطان.

---

(1) رواه ابن أبي الدنيا هكذا مرسلاً ورجاله ثقات.



قال عبد الله بن عامر الجهمي: يا رسول الله؛ ما النجاة؟، قال: «ليسعك بيتك وأمسك عليك لسانك وابكِ على خطيئتك»[1].

وقال ﷺ: «إن الله يحب العبد التقي الغني الخفي»[2].

ولذا يقول مكحول الدمشقي رضي الله عنه: «إن كان في مخالطة الناس خير فإن في العزلة السلامة».

ويقول الجنيد رضي الله عنه: «من أراد أن يسلم له دينه ويستريح بدنه وقلبه فليعتزل الناس، فإن هذا زمان وحشة، والعاقل من اختار فيه الوحدة».

وقال رجل لذي النون المصري: متى تصح لي العزلة؟ قال: إذا قويت على عزلة نفسك. وقيل عن أحد العارفين: إذا أراد الله أن ينقل العبد من ذل المعصية إلى عز الطاعة آنسه بالوحدة وأغناه بالقناعة وبصّره بعيوب نفسه، فمن أُعْطِي ذلك فقد أُعْطِي خير الدنيا والآخرة.

على المريد إذا آثر العزلة عن الناس أن يعتقد باعتزاله عن الخلق سلامة الناس من شره ولا يقصد سلامته من شر الخلق، فإن هذا من الأدب والتأدب في سير المريد إلى الله، فيجب عليه استصغار نفسه ولا يرى لنفسه مزية على أحد.

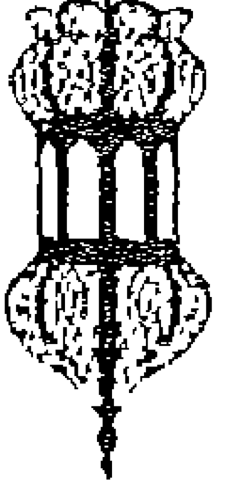
وقد أسردنا ذلك في تربية الشيخ علي الخواص لسيدي عبد الوهاب الشعراني (رضي الله عنهما).

وروي أنه ﷺ سئل: «أي الناس أفضل؟»، قال ﷺ: «مؤمن مجاهد بنفسه وماله في سبيل الله تعالى». قيل: ثم من؟ قال ﷺ: «رجل معتزل في شعب من الشعاب يعبد ربه ويدع الناس من شره»[3].

(1) رواه الترمذي من حديث عقبة.

(2) رواه الإمام مسلم من حديث سعد بن أبي وقاص.

(3) متفق عليه من حديث أبي سعيد الخدري.



ويجب على المريد في عزلته أو خلوته أن يحصل من العلوم ما يصحح به عقد توحيده لكي لا يستهويه الشيطان بوساوس، ثم يحصل من علوم الشرع ما يؤدي به فرضه ليكون بناء أمره على أساس محكم.

وينبغي أن تكون عزلته خالية من ذكر كل شيء سوى ذكر ربه عز وجل، ومن إرادة كل شيء سوى إرادة ربه عز وجل، ثم يؤاخذ نفسه في عزلته بتأديبها وتهذيبها بمكارم الأخلاق ومحاسن العادات والعبادات.

وربما كانت العزلة والخلوة مذهبًا ذهب إليه كثير من الصوفية ولم يذهب إليه بعضهم، فلم يكن القطب الشاذلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يأمر مريديه أو تلاميذه بالعزلة عن الخلق والابتعاد عن الناس.

بل كان يرى أن الصحبة في الله والاستفادة من الصحبة في العلم خير من العزلة والابتعاد عن الناس؛ قال ﷺ: «الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم خير من الذي لا يخالط الناس ولا يصبر على أذاهم»[1].

لكنه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وضع لمريديه قانونًا محكمًا في هذا الشأن فقال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ معتبرًا ذلك وصية لمريديه: «أوصاني حبيبي فقال: لا تنقل قدمك إلا حيث ترجو ثواب الله ولا تجلس إلا حيث تأمن من معصية الله ولا تصطحب إلا من تستعين به على طاعة الله ولا تصطفِ لنفسك إلا من تزداد به يقينًا».

وأخذ الذاهبون إلى العزلة والخلوة مذهبهم من قوله تعالى: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [مريم: 48]، وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا﴾ [مريم: 49] وقوله تعالى: ﴿وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ لِى فَٱعْتَزِلُونِ﴾ [الدخان: 21] وقوله تعالى: ﴿وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ﴾ [الكهف: 16].

(1) رواه ابن ماجه والترمذي من حديث ابن عمر.

ولذلك قالوا إن ثمرة العزلة هي الظفر بمواهب المنة وهي أربعة أشياء: كشف الغطاء وتنزل الرحمة وتحقق المحبة ولسان الصدق في الكلمة.

وكما أن للعزلة ثمرة يجنيها المريد إذا قام بواجباتها فللعزلة أيضًا آفات، وآفاتها في العوام القاصدين إلى الله تختلف عن آفاتها في الخواص القاصدين إليه سبحانه.

أما عن آفاتها في العوام فأربعة أشياء:

«تعلق النفس بالأسباب، وركون النفس إلى الجهة المخصوصة من الاكتساب، واكتفاء العقل بما يحصل له من الاقتراب، وخطرات العدو (الشيطان) بالأماني الصادة عن المراد».

وأما آفاتها في الخواص فأربعة أيضًا:

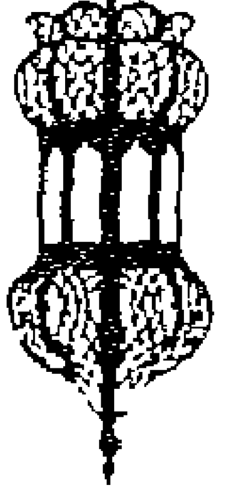
«الاستئناس بالوسواس، والتحدث بالرجوع إلى الناس، والتحديد في الوقت وهو من أمارات الإفلاس، وملاقاة هواتف الحق على زعمه المعهود من الحواس».

ولكل آفة من الآفات التي ذكرناها - سواء كانت في العوام القاصدين إلى الله أو في الخواص السالكين إليه سبحانه - سبيلٌ بالجهاد إلى التخلص منها بالرد والرجوع إلى أصل التوحيد والمعرفة والحمل على سبيل الاستقامة.

أما بالنسبة للعوام:

فإذا عرض لك عارض من جهة التعلق بالأسباب والركون إلى الجهة المخصوصة بالاكتساب فأرجعها إلى أصل المعرفة فيما قسم لها أو أُجري لها، وقل لنفسك اتخذت عند الله عهدًا أنك لن ترزقي إلا من هذه الجهة أو بهذا السبب، وقل ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، وأغرقها في بحر التوحيد؛ ولذلك قالوا غَرِّق الدنيا في بحر التوحيد قبل أن تغرقك.

وإن عرض لك عارض من جهة اكتفاء العقل بما حصل من علم أو عمل أو نور أو هُدًى أو خطاب بنجوى، فلا تغفل عن السابقة والخاتمة، ولا بد من فعل الواحد المختار يفعل ما يشاء ولا يبالي بحسنة المقبل أو بسيئة المدبر.



وإن عرض لك عارض من خطرات الشيطان الصادة عن المراد فاثبت واستعذ واصبر؛ فالله تعالى يقتضي منك أن تكون له عبدًا، وتحب أنت أن يكون لك ربًّا فإذا كنت له من حيث يرضى كان لك من حيث ترضى ولا يدعك لغيره.

وأما بالنسبة للخواص:

فإذا كنت من الخواص وعرض لك عارض الوسواس سواء من طريق إلهام أو كشف التوهم فلا تقبل وارجع إلى الحق المقطوع به من كتاب وسُنَّة، واعلم أن الله قد ضمن لك العصمة في الكتاب والسُّنَّة ولم يضمنها لك في جانب الكشف والإلهام كما قال القطب الشاذلي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «واعلم أن الذي عارضك لو كان حقًّا في نفسه وأعرضت إلى حق بكتاب الله أو بسنة رسوله ﷺ لما كان عليك في ذلك عيب».

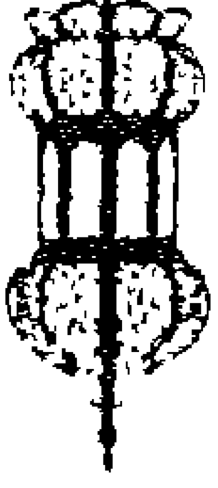
وإن عرض لك عارض من التحدث بالرجوع إلى الناس فأنت معهم لم تخرج منهم ولا تغتر باعتزال بدنك عنهم والقلب معهم، فاهرب إلى الله فإن من هرب إلى الله آواه.

وصفة الهروب إلى الله بالكراهة لجانبهم والمحبة لجانب الحق باللجوء إليه والاعتصام به، وإن عارض لك عارض من التجديد فجاهده بالعوارض الممكنة في العلم الحاصل من ذلك مما يجوز أن يكون، واصرف همتك إلى الله بالتقوى كي يجعل لك من ذلك مخرجًا ويرزقك من حيث لا تحتسب.

فإن جاذبتك هواتف الحق وآفاتها إلى الاستشهاد بالمحسوسات على الحقائق المغيبات فلا تردها إلى ذلك فتكون من الجاهلين.

فلا يصح أن تستشهد بالمحسوسات على الحقائق المغيبات، فالحقائق المغيبات يتولى الحق ظهورها لك وإيضاحها، فلا تدخل في شيء من ذلك بعقلك وكن عند ورودها كما كنت قبل ظهورها والله يتولى هداك وهو يتولى الصالحين.

يقول ابن عطاء الله السكندري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «إلهي كيف يستدل عليك بما هو هو في وجوده مفتقر إليك، أيكون لغيرك من الظهور ما ليس لك حتى يكون هو المظهر



لك؟ متى غبت حتى تحتاج إلى دليل يدل عليك ومتى بعدت حتى تكون الآثار هي التي توصل إليك؟».

(جـ) السهــــر:

والسهر مرتبة من مراتب التهذيب عند بعض الصوفية وإن كان البعض الآخر لم يجعلها في مذهبه كمرتبة تهذيب؛ لأنهم يرون أنها قد تنشأ مع المريد أثناء سلوكه فتكون من جملة أحواله فلا تعد عندهم مرتبة تهذيب إنما هي مرتبة أحوال، لكن الذاهبين منهم إلى غيرها من مراتب تهذيب المريدين قد أوجبوا أن تكون هذه الرتبة من مراتب التهذيب لقوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴾ [الفرقان: 64]، وقوله تعالى: ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ [السجدة: 16].

وقيل في تفسير قوله تعالى: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [السجدة: 17]: كان عملهم قيام الليل.

قال ﷺ: «عليكم بقيام الليل فإنه دأب الصالحين من قبلكم فإن قيام الليل قربة لله عز وجل وتكفير للذنوب ومطردة للداء عن الجسد ومنهاة عن الإثم»(1).

وقال ﷺ: «ما من امرئ تكون له صلاة بالليل يغلبه عليها نوم إلا كتب له أجر صلاته وكان نومه صدقة عليه»(2).

وقال ﷺ: «من أتى فراشه وهو ينوي أن يقوم يصلي من الليل فغلبته عيناه حتى يصبح كتب له ما نوى وكان نومه صدقة عليه»(3).

(1) أخرجه الترمذي من حديث بلال وقال: غريب ورواه الطبراني والبيهقي من حديث أبي أسامة بسند صحيح وقال الترمذي إنه أصح.

(2) أخرجه أبو داود والنسائي من حديث عائشة ورواه النسائي بسند صحيح.

(3) أخرجه النسائي وابن ماجه من حديث أبي الدرداء بسند صحيح.

وقال ﷺ: «من نام عن حزبه أو عن شيء منه فقرأه بين صلاة الفجر والظهر كتب له كأنه من الليل»[1].

قال معاذ لأبي موسى: «كيف تصنع في قيام الليل؟» فقال: أقوم الليل أجمع لا أنام منه شيئًا وأتفوق القرآن تفوقًا، قال معاذ: لكنني أنام ثم أقوم وأحتسب في نومي، فذكر ذلك للنبي ﷺ فقال ﷺ: «معاذ أفقه منك»[2].

وقال ﷺ: «ركعتان يركعهما العبد في جوف الليل خير له من الدنيا ومن فيها ولولا أن أشق على أمتي لفرضتهما عليهم»[3].

وفي الخبر: «عليكم بقيام الليل فإنه مرضاة لربكم وهو دأب الصالحين قبلكم ومنهاة عن الإثم وملغاة للوزر ومذهب كيد الشيطان ومطردة للداء عن الجسد»[4].

وكان جمع من الصالحين يقومون الليل كله حتى نقل ذلك عن أربعين من التابعين كانوا يصلون الغداة (صلاة الصبح) بوضوء العشاء منهم سعيد بن المسيب والفضيل ابن عياض ووهيب بن الفرات وأبو سليمان الداراني وعلي بن بكار وحبيب العجمي وكهمس بن المنهال وأبوحازم ومحمد بن المنكدر وأبو حنيفة - رضي الله عنهم أجمعين.

وروي أن داود عليه السلام قال: «يا رب إني أحب أن أتعبد لك فأي وقت أقوم؟ فأوحى الله إليه: يا داود لا تقم أول الليل ولا آخره فإنه من قام أوله نام آخره ومن قام آخره نام أوله ولكن قم وسط الليل حتى تخلو بي وأخلو بك وارفع إليَّ حوائجك».

---

(1) رواه مسلم من حديث عمر.

(2) متفق عليه بنحوه من حديث سعيد وليس فيه أنهم ذكروا ذلك للنبي ولا قوله ﷺ: «معاذ أفقه منك» وإنما زاد الطبراني: «فكان معاذ أفضل منه».

(3) أخرجه آدم بن أبي إياس في الثواب ومحمد بن نصر المروزي في كتاب قيام الليل من رواية حسان بن عطية مرسلاً ووصله أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث ابن عمر.

(4) رواه الغزالي في الإحياء.



وقيل لرسول الله ﷺ إن فلانة تصلي من الليل فإذا غلبها النوم تعلقت بحبل. فنهى رسول الله ﷺ عن ذلك فقال: «ليصل أحدكم من قليل ما تيسر فإذا غلبه النوم فلينم»(1).

فكم من نائم يسبق القائم لوفور علمه وحسن نيته.

وفي الخبر: «إذا نام العبد عقد الشيطان على رأسه ثلاث عقد فإن قعد وذكر الله تعالى انحلَّت عقدة، وإن توضأ انحلت عقدة أخرى، وإذا صلى ركعتين انحلت العقد كلها فأصبح نشيطًا طيب النفس وإلا أصبح كسلان خبيث النفس»(2).

وفي خبر آخر: وذكر عنده ﷺ رجل نام حتى أصبح فقال ﷺ: «ذلك رجل بال الشيطان في أذنه»(3).

وقال ﷺ: «من استيقظ من الليل وأيقظ امرأته فصليا ركعتين كتبا من الذاكرين الله كثيرًا والذاكرات»(4).

وقال ﷺ: «رحم الله رجلاً قام من الليل فصلى ثم أيقظ امرأته فصلت فإن أبت نضح في وجهها الماء»(5).

قال رجل للحسن البصري: يا أبا سعيد إني أبيت معافى وأحب قيام الليل وأعد طهوري فما بالي لا أقوم ؟ قال له الحسن: ذنوبك قيدتك فليحذر العبد في نهاره ذنوبًا تقيده في ليله.

وقال النوري رحمه الله: حُرمت قيام الليل سبعة أشهر بذنب أذنبته فقيل لي: ما كان هذا الذنب؟ قلت: رأيت رجلًا بكاء فقلت في نفسي هذا مُراءٍ.

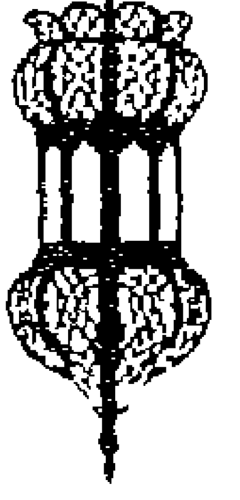
(1) متفق عليه من حديث أنس.

(2) رواه البخاري من حديث عبد الرحمن بن صخر، ورواه مسلم أيضًا من حديث عبد الرحمن بن صخر، ورواه أحمد في رواية: «إذا نام أحدكم» من طريق الحسن عن أبي هريرة.

(3) متفق عليه من حديث ابن مسعود.

(4) أخرجه أبو داود والنسائي من حديث أبي هريرة وأبي سعيد بسند صحيح.

(5) أخرجه أبو داود وابن ماجه من حديث أبي هريرة.



وقال بعض الصالحين: «دخلت على كرز بن وبرة وهو يبكي فقلت: ما بالك؟ أتاك نعي بعض أهلك ؟ فقال: أشد. فقلت: وجع يؤلمك؟ قال: أشد. فقلت: وما ذاك؟ قال: بابي مغلق وستري مسبل ولم أقرأ حزبي البارحة، وما ذاك إلا بذنب أحدثته».

فمن عد السهر واحدة من مراتب التهذيب فقد أحسن، ومن عده عادة أورثتها عبادة فقد أحسن كذلك.

وهكذا حال المحبين إذا هاجهم الشوق إلى الله فهم ساهرون الليل يتضرعون إليه بالدعاء ويناجونه بعبارات المحبة والوجد فيحلو لهم ليلهم ويزيد الله عليهم فتحهم.

(د) الصـوم:

والصوم مرتبة من مراتب التهذيب عند معظم أهل الطريق، والصوم الشرعي هو الإقلاع عن الطعام والشراب والنكاح من طلوع الفجر إلى غروب الشمس، وليس القصد أن يصوم المريد الدهر ولكن المراد أن يروِّض نفسه بالجوع وقلة الأكل.

قال الغزالي في الإحياء: «فالبطن والفرج باب من أبواب النار وأصله الشبع، والذل والانكسار باب من أبواب الجنة وأصله الجوع، ومن أغلق بابًا من أبواب النار فقد فتح بابًا من أبواب الجنة بالضرورة؛ لأنهما متقابلان كالمشرق والمغرب فالقرب من أحدهما بعد من الآخر».

وعن أنس قال: «جاءت فاطمة رضوان الله عليها بكسرة خبز إلى رسول الله ﷺ فقال: ما هذه الكسرة؟ قالت: قرص خبزته ولم تطب نفسي حتى آتيك منه بهذه الكسرة فقال ﷺ: أما إنه أول طعام دخل فم أبيك منذ ثلاثة أيام»[1].

وقالت عائشة - رضي الله عنها-: «ما شبع رسول الله ﷺ من خبز شعير يومين متتابعين حتى قبض»[2].

---

(1) رواه الحارث بن أبي أسامة في مسنده.

(2) متفق عليه.



وعن عروة عن عائشة - رضي الله عنها - أنها كانت تقول: «والله يا ابن أختي إنا كنا ننظر إلى الهلال ثم الهلال ثلاثة أهلة في شهرين وما أوقد في أبيات رسول الله ﷺ نار. فقلت: يا خالة؛ فما يعيشكم ؟ قالت: الأسودان؛ التمر والماء إلا أنه كان لرسول الله ﷺ جيران من الأنصار وكانت لهم منايح وكانوا يرسلون إلى رسول الله ﷺ من ألبانها فيسقينا» (1).

وقال ﷺ: «نور الحكمة الجوع، والتباعد من الله عز وجل الشبع، والقربى إلى الله حب المساكين والدنو منهم، لا تشبعوا فتطفئوا نور الحكمة من قلوبكم ومن بات في خفة من الطعام بات الحور حوله حتى يصبح»(2).

قال لقمان لابنه: «يا بني إذا ملئت المعدة نامت الفكرة وخرست الحكمة وقعدت الأعضاء عن العبادة».

وقالت عائشة - رضي الله عنها -: «ما شبع رسول الله ﷺ ثلاثة أيام من خبز بُرٍّ حتى مضى لسبيله».

وقالت أيضًا - رضي الله عنها -: «أديموا قرع باب الملكوت يفتح لكم، قالوا: كيف نديم ؟ قالت: بالجوع والعطش الظمأ».

فالمريد السالك إلى الله يجب عليه أن يأخذ الوسط ويتمثل أمر النبي ﷺ: «... ثلث لطعامه وثلث لشرابه وثلث لنفسه».

قيل ظهر إبليس ليحيى بن زكريا عليهما السلام وعليه معاليق فقال: ما هذه؟ قال: الشهوات التي أصيب بها بنو آدم، قال: هل تجد لي فيها شهوة؟ قال: لا غير أنك شبعت ليلة فثقلناك عن الصلاة والذكر. قال يحيى: لا جرم أني لا أشبع أبدًا، فقال إبليس: لا جرم أني لا أنصح أبدًا.

وقال شقيق البلخي: «العبادة حرفة حانوتها الخلوة وآلاتها الجوع».

(1) متفق عليه.

(2) رواه الديلمي في مسند الفردوس من حديث أبي هريرة.

وقال يحيى بن معاذ: «الجوع للمريدين رياضة وللتائبين تجربة وللزهاد سياسة وللعارفين مكرمة».

وقال حكيم: «دواء القلب في خمسة أشياء: قيام الليل وقراءة القرآن وخلو البطن وقلة الكلام والتضرع عند السَّحَر».

وقال ذو النون المصري: «من قوي على بطنه قوي على دينه ومن لا يعلم أن مضرته من قبل بطنه فذلك من العابدين أعمى».

وكان رسول الله ﷺ يبقى أيامًا لا يأكل شيئًا.

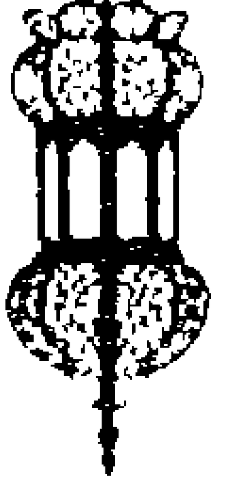
وروى القاسم بن محمد عن عائشة - رضي الله عنها - قالت: كان يأتي علينا الشهر ونصف شهر ما تدخل بيتنا نار لا لمصباح ولا لغيره، قال: قلت سبحان الله فبأي شيء كنتم تعيشون ؟ قالت: بالتمر والماء.

وروي أن حفصة بنت عمر - رضي الله عنها - قالت لأبيها إن الله قد أوسع الرزق فلو أكلت طعامًا أكثر من طعامك ولبست ثيابًا ألين من ثيابك، فقال: إني أخاصمك؛ ألم يكن من أمر رسول الله ﷺ كذا وكذا ؟ يقول مرارًا... فبكت فقال: قد أخبرتكم والله لأشركنه في عيشه الشديد لعلي أصيب عيشة الرخاء.

فالجوع رياضة الصديقين وأحد أركان المجاهدة للسالكين وبسببه تتفجر ينابيع الحكمة لأهل السلوك وهو من صفات أهل الحقيقة.

ونقل عن الشيخ أبي السعود - رحمه الله - أنه قد كان له في ذلك بدايات يعز مثلها حتى أنه نقل عنه أنه بقي أيامًا لا يأكل ولا يعلم أحد بحاله ولا يتصرف هو لنفسه ولا يتسبب إلى تناول شيء وينتظر فعل الحق لسياق الرزق إليه ولم يشعر أحد بحاله مدة من الزمان.

ثم إن الله تعالى أظهر حاله وأقام له الأصحاب والتلاميذ وكانوا يتكلفون الأطعمة ويأتون بها إليه وهو يرى في ذلك فعل الحق والموافقة حتى إنه رُئِي بعد ذلك يأكل من الطعام مرات في اليوم لأن حاله مع الله كان ترك الاختيار في مأكوله وملبوسه وجميع تصاريفه.



وهذه مراتب تظهر على السالكين بعد تخطيهم مراحل المجاهدة ويصلون إلى مراتب التمكين وما نقل عن الشيخ أبي السعود رحمه الله رضي الله عنه لا ينطبق على غيره ممن سلكوا الطريق إلى الله لكن لكل منهم مجاهداته الخاصة التي ترتبط بترويض النفس إلى ما يخلصها من المذموم من الخصال. ولقد كان القطب الشاذلي رضي الله عنه يلبس أفخر ثياب زمانه و يأكل ما طاب له من الطعام وكان رجلاً ثريًّا صاحب مال ولكنه رضي الله عنه كان عالمًا عابدًا أوصلته عبادته وتقواه إلى قرب من الله عز وجل حتى تحدث هو بنفسه عن هذا القرب فقال رضي الله عنه: «إنه الغيبة بالقرب عن القرب لعظم القرب».

المرتبة الرابعة: التقريب:

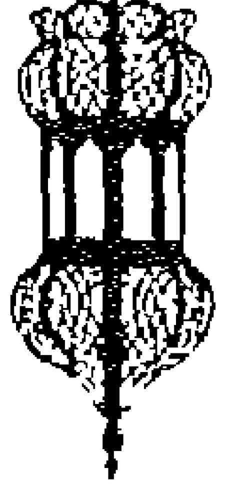
وهذه هي المرتبة الرابعة من مراتب الطريق عند الصوفية، ولا تتم عندهم إلا بعد أن يجتاز المريد سابقتها من المراتب؛ وذلك لأنها تتطلب تقرب المريد إلى الله بعد تصفية النفس باجتيازها المراتب سابقة الذكر، بمداومة الذكر في جميع الأوقات حتى يصير ذكر الله بمثابة النَّفَس (التنفس) يجري من غير اختيار ولا قصد، بحيث لو صمت أو منع لا يمتنع ولا ينفك عنه، ولو فقده لوجد أثره فعلم سريانه ونفعه.

وفي كل هذه المراتب لابد من وجود شيخ عالم على بصيرة عارف بالله يسلك المريد على يديه وذلك لأن السالك من غير شيخه مبتلى بنفسه، فإذا اجتهد وعمل وحده من غير شيخ ربما ظفر منه الشيطان بخيالات وأوهام وعقائد فاسدة وأفكار كاسدة وكسل ومكر وحيل وزندقة واستدراج وغيرها ويوهمه أن ذلك من الأحوال والأصول وهو لا يدري ولا سيما المبتدئ فإنه يشوش عليه هذه الحالة فلا بد من شيخ عارف لينجو من عقبات الطريق وتوقفه.

وشروط الشيخ الذي يلقي إليه المريد نفسه خمسة أشياء:

ذوق صريح، وعلم صحيح، وهمة عالية، وحالة مرضية، وبصيرة نافذة.

يقول الإمام الجنيد رضي الله عنه: «إذا رأيت رجلاً يطير في الهواء ويمشي على الماء ولم يعمل بشرع الله فهو زنديق أو شيطان».



ومن كانت فيه خمسة أشياء لا تصح مشيخته :

الجهل بالدين، وإسقاط حرمة المسلمين، والخوض فيما لا يعنيه، واتباع الهوى في كل شيء، وسوء الخلق من غير مبالاة.

ويشترط في الشيخ المرشد أن يكون عالمًا بما يحتاج إليه المريدون من الفقه وعقائد التوحيد بقدر ما يزيل الشُّبَهَ التي تعرض للمريد في البداية، وأن يكون عالمًا بكمالات القلوب وآدابها وآفات النفس وأمراضها وكيفية حفظ صحتها واعتدالها، وأن يكون رءوفًا رحيمًا بمريديه ناصحًا لهم ساترًا ما اطلع عليه من عيوبهم.

والشيخ يجب أن يكون على حالة وسطى من أحواله من جوع وشبع ونوم وسهر وقبضٍ وبسط«ونعني بالحالة الوسطى هي ما بين الإفراط والتفريط ولا يقدر عليها إلا الكُمَّلُ من الرجال» قد استوت عنده جميع المآكل والملابس، غني النفس حسن الخلق، عالمًا بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

ويجب على الشيخ للمريد ثلاثة أشياء: التسليك في البداية، والتبليغ في النهاية، والحفظ في الرعاية.

ويجب على المريد للشيخ ثلاثة أشياء: امتثال أمره، وكتمان سره، وتعظيم قدره. ومعلوم أن أوامر الشيخ للمريد يجب أن تكون موافقة لكتاب الله وسنة رسوله ﷺ، فلا يأمره بمنكر ولا يحثه على أمر فيه مخالفة الشرع.

فبدايات المريد كما أوضحنا مليئة بالمجاهدات من ذكر وسهر وصوم وجهاد وعزلة يتعرض المريد خلالها لأحوال حسب مجاهدته قد تكون ربانية وقد تكون شيطانية، وفرق الجنيد رضي الله عنه بين هواجس النفس ووسواس الشيطان فقال رضي الله عنه: إن النفس إذا طالبتك بشيء ألحت فلا تزال تعاود وتصمم ولو بعد حين حتى تصل إلى مرادها ويحصل مقصودها إلا أن يدوم صدق المجاهدة حتى تموت عن حظوظها.

وأما الشيطان إذا دعا إلى ذلة أو قبح فخالفته بتركها فهو يوسوس بذلة أخرى؛ لأن المخالفات عنده سواء.

أما الخواطر فهي موازين يحفظ بها الولي بدايته ويخلص بمعرفتها نهايته.

والخواطر أربعة:

الأول: رباني و هو مصيب أبدًا وبه تكون الفراسة للمؤمن الكامل والمكاشفة عند السالك الصادق وهذا الخاطر يرد على الروح.

والثاني: خاطر ملكي يرد على العقل وهو لا يغشى أبدًا.

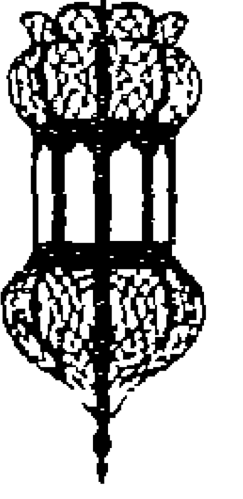
والثالث: خاطر نفساني ويرد على القلب ولا يصدق أبدًا.

والرابع: خاطر شيطاني يرد على الطبع ولا ينصح أبدًا.

و الملكي يرد واعظًا وآمرًا وناهيًا وناصحًا والنفساني يرد بالكبر والغضب ومعاشرة اللئام ومجالسة أهل الجدال والشيطاني يرد عند الميل إلى الطبع والفرار من قيود الشرع، وقالوا إن الخواطر جمع خاطر وهو خطاب يرد على الضمائر قد يكون بإلقاء ملك وقد يكون بإلقاء شيطان وقد يكون بأحاديث النفس وقد يكون من الله. فالأول الإلهام، والثاني الوسواس، والثالث الهواجس، والرابع الخاطر الحق، ولكل علامته؛ فعلامة الإلهام موافقة العلم، وعلامة الوسواس ندبه إلى المعاصي، وعلامة الهواجس ندبها إلى اتباع الشهوات وحظوظ النفس.

وأجمع مشايخنا - رضوان الله عليهم - أن من كان قوته من حرام لا يفرق بين الإلهام والوسوسة، وأجمعوا أيضًا على أن الخواطر المذمومة محلها النفس والخواطر المحمودة محلها القلب وأن النفس لا تصدق أبدًا. أما الواردات - جمع وارد - فهو ما يرد على القلب من الخواطر المحمودة مما لا يكون للعبد، والوارد أيضًا كل ما يرد على القلب من سرور وحزن أو قبض أو بسط ونحو ذلك.

يقول القطب الشاذلي رضي الله عنه: كل علم تسبق إليك فيه الخواطر وتتبعها الصور وتميل إليه النفس وتتلذذ به الطبيعة فارم به واتركه وإن كان حقًّا وخذ بعلم الله الذي أنزله على رسوله، واقتد بالخلفاء والصحابة والتابعين وبهداة الأمة المبرئين من الهوى تسلم من الشكوك والظنون والأوهام والدعاوى الكاذبة المضلة عن الهدى وحقائقه، وماذا عليك أن تكون عبدًا لله ولا علم ولا عمل، وحسبك من العلم العلم بالوحدانية، ومن العمل محبة الله ومحبة رسوله ﷺ ومحبة الصحابة والاعتقاد الحق للجماعة.



قال رجل: متى الساعة يا رسول الله؟ فقال عليه الصلاة والسلام: «وماذا أعددت لها؟ قال: لا شيء إلا أني أحب الله ورسوله، فقال عليه الصلاة والسلام: المرء مع من أحب»[1].

وفيما أشرنا إليه من تعرض المريد في سيره إلى الله لخواطر وواردات وأحوال قد تكون ربانية وقد تكون شيطانية كذلك يتعرض لواقعات تظهر له بين النوم واليقظة إذا شرع في رياضة نفسه ففي كل هذا لابد للمريد من شيخ عارف بالله على بصيرة سلك وعرف أغوار الطريق.

وشرعية اتخاذ الشيخ واردة في كتاب الله تعالى: ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلۡ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمۡتَ رُشۡدٗا﴾ [الكهف: 66].

وقوله تعالى: ﴿فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [الأنبياء: 7].

وكان رسول الله ﷺ هو المعلم الأكبر لأمته عامة ولصحابته خاصة.

يقول أبو هريرة رضي الله عنه: أعطاني حبيبي علمين أما أحدهما فقد بثثته، وأما الآخر فلو بثثته لقطع مني هذا الحلقوم»[2].

وكل متعلم لابد له من معلم والعالم مهما وصل في علمه حتى يظن أنه وصل النهاية فسيجد نفسه في حاجة إلى من هو أعلم منه. قال تعالى: ﴿نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ وَفَوۡقَ كُلِّ ذِي عِلۡمٍ عَلِيمٞ﴾ [يوسف: 76].

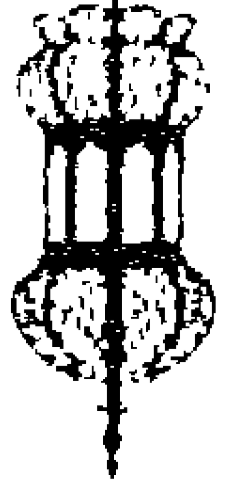
وهكذا يرتقي العلم في عالم وفيمن هو أعلم حتى يقف العلم عند منتهاه عند العليم الخبير سبحانه.

واعلم أن المعرفة بالله هي ما قطعك عن غير الله وردك إلى الله. وخصلتان تسهلان الطريق إلى الله هما المعرفة والمحبة.

---

(1) أخرجه البخاري من حديث عبد الله بن مسعود والإمام مسلم من طريق محمد بن جعفر بلفظ «كيف ترى في رجل أحب قومًا ولم يلحق بهم؟» فقال رسول الله ﷺ: «الرجل مع من أحب» وفي مسند أحمد كذلك.

(2) رواه الترمذي والحاكم وذكره إسحاق بن راهويه في مسنده.



اعرف الله ثم استرزقه من حيث شئت غير مكب على حرام، وانصح الله في عباده ولا تخنه في أمانته واعبد الله باليقين تكن إمامًا من أئمة الدين وانتقل عن علم الجهلة إلى علم الخاصة تكن من الوارثين.

ومن صدق الله في نفسه فهو إمام قلت روايته أو كثرت، ومن كان إمامًا فلا يضره أن يكون أمة واحدة وإن قلت أتباعه.

وإني أتمثل قول البوصيري رضي الله عنه:

أستغفر الله من قول بلا عمل ... لقد نسبت به نسلًا لذي عقم

أمرتك الخير لكن ما ائتُمرت به ... وما استقمت فما قولي لك استقم

ولا تزودت قبل الموت نافلة ... ولم أصل سوى فرض ولم أصم

المصادر والمراجـع

م	اسم المرجع	م	اسم المرجع
1	تفسير الجلالين	16	الفتوحات المكية
2	تفسير ابن كثير	17	التوسل أنواعه وأحكامه للألباني
3	تفسير الزمخشري «الكشاف»	18	تفسير الأحلام لابن سيرين
4	مفاتيح الغيب	19	الشفاء للقاضي عياض
5	تفسير الألوسي	20	المجموع للنووي
6	صحيح البخاري	21	الإمامة والسياسة لابن قتيبة
7	صحيح مسلم	22	مجموع الأوراد الشاذلية
8	البداية والنهاية	23	درء التعارض لابن تيمية
9	الرسالة القشيرية	24	جامع أصول الأولياء
10	الطبقات الكبرى للشعراني	25	مسند الحارث
11	العبودية لابن تيمية	26	سنن الترمذي
12	الفرقان لابن تيمية	27	سنن النسائي
13	المنهاج لابن تيمية	28	سنن ابن ماجه
14	الفتاوى لابن تيمية	29	مستدرك الحاكم
15	مدارج السالكين لابن قيم الجوزية	30	مسند الحارث بن أبي أسامة

الفهـــرس

طبـع بمطابـع دار نهضــة مصــر للنشـــر

التصوف علم واتباع

والرد على من اتهموا رجاله بالابتداع

تقرأ بداخل هذا الكتاب:

1 - نشأة التصوف.

2 - تعريف التصوف الإسلامي.

3 - إنكار المتشددين على الصوفية.

4 - التوسل وآراء المتشددين.

5 - آراء المتشددين في شد الرحال.

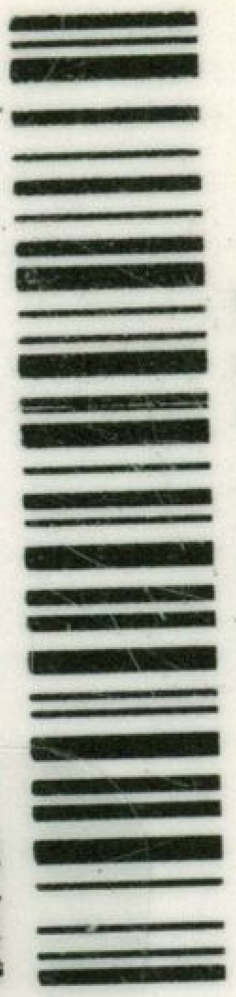
6 - التبرك في الكتاب والسنة.

7 - بين الصوفي والفقيه.

8 - مآخذ ابن تيمية على القطب الشاذلي.

9 - العلماء الصوفية وصحبتهم الفقهاء.

10 - مراتب الطريق عند الصوفية.





طبع بمطابع دار نهضة مصر للنشر